حيدر جاسم محمد
HAIDAR .J. MUHAMMAD

مسافر بلا وطن

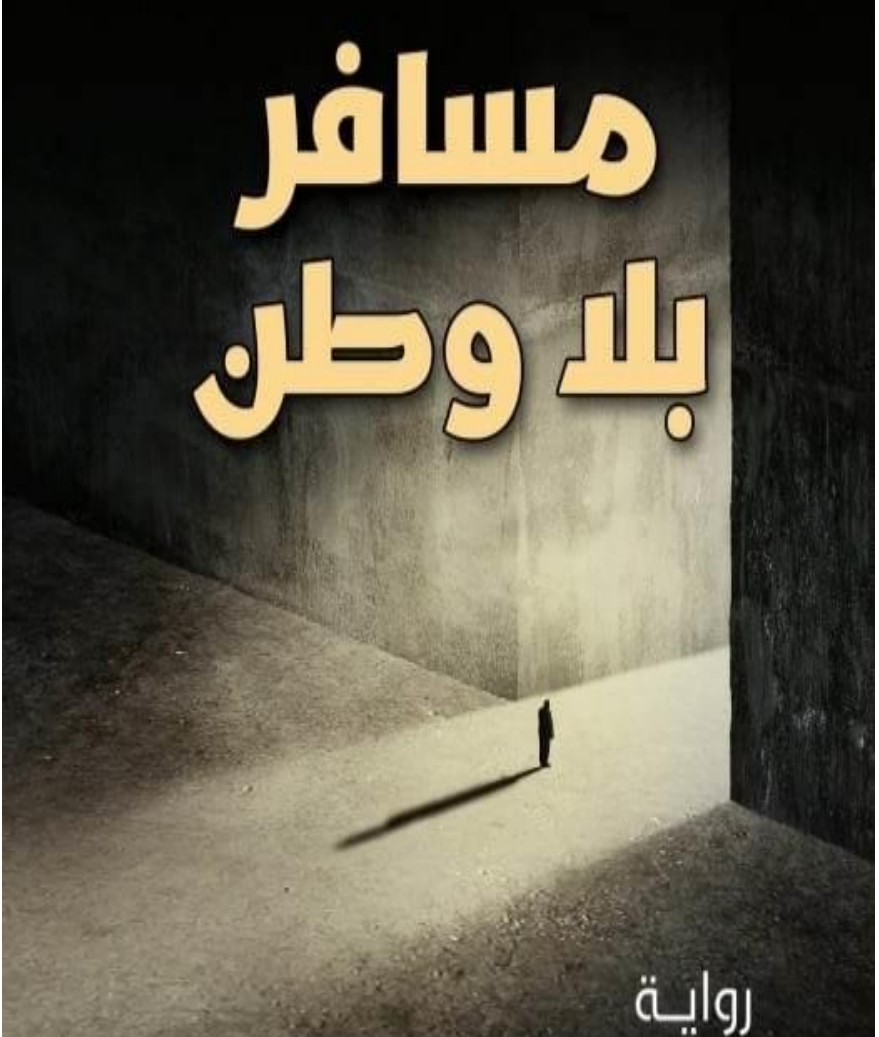

رواية

رواية

مسافر بلا وطن

حيدر جاسم محمد

الكتاب: مسافر بلا وطن

الكاتب: حيدر جاسم محمد

الطبعة الأولى ١٤٣٨هـ- /٢٠١٧م

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

جميع الحقوق محفوظة

دار الجواهري

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد - شارع المتنبي

البريد الإلكتروني:

E - Mail: daraljwahere@yahoo. com

موبايل: 07702910090

بغداد - شارع المتنبي

بيروت - لبنان

دمشق- سوريا

الغلاف والإخراج: م. جمال الأبطح

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت (الكترونية) أو (ميكانيكية) أوبالتصوير أو بالتسجيل أو بخلاف ذالك الا بموافقة كتابية من المؤلف أو الناشر

All righs reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system. or transmitted in any formor by any means. Electronics. mechanical photocopying. recording of otherwise. without prior permission in writing of the publisher.

الإهداء:

إلى كل مواطن شريف..
ومسؤول نظيف..
وعاشق يراعي حدود الله
بالجنس اللطيف.

المقدمة

هذه الرواية مزيج من الخيال الخصب..
مقرون بواقع المكان..
بنيت شخوص صراعها على الخصوصيات
متحاش في ذلك العموميات..
فمن يجد نفسه متهماً في روايتي هذه
فذلك لشعور جنابه بالنقص أو التقصير
فهو الملام الأول والأخير.. والسلام.

اختلال

(تحامل عليها..
أخذته الرجفة
الشبق الجنسي، هزّ قوائمه
اختلال
راح يضاجع قضيته وبال)
"المؤلف"

في يوم صباحه شهد وورد.. كانت الشمس اشد إشراقاً بعد انقشاع موسم التراب والريح الصفراء المتكررة التي تعج بالأرض والإنسان على حد سواء.. بانت نضرة الشجيرات المتهالكة، بعدما نفضت الأشجار السامقة عن نفسها ثوب من الغبار، إذا ما نزعت عن نفسها ثوباً من الخريف، وان لم ترتد ثوباً ربيعياً، لكنها بالكاد كشفت عن ساقيها المترعتين بالحسن والطلاء.. في ذات الساعة لم تكن الشمس وحدها تتنفس الصعداء وهي تبلغ رسالتها النورانية.. أشعة كبريق الذهب يعلو المدينة بسحره البراق.. بعد أن كان إلى جوارها القمر يسير معها كتفاً إلى كتف.. أنه قمر أنسي طلع كزهر الربيع النضر البهيج في أقاصي المروج.. يغني بصوته الدافئ السحري.. يجذب إليه الأنظار والقلوب، إذا لم تكن الرقاب هي من تعلقت بحبال حسنه الأخاذ.. علا صفير هنا وهناك، ودوّي عجلات مسرعة، وجلبة وصياح:

- عمارة بـ (البهبهان).
- بصرة بـ (اليوكن).

وهذا يسحب بحقائب المسافر، وذاك يدل على سيارته المختبئة بعيداً عن الطوابير النظامية.. آخر يقلل من السعر الحقيقي ليعجل بالخروج والعودة إلى الأهل.. الباعة المتجولون يجولون

ببضاعاتهم المزجاة بغية مكسب زهيد يتراكم بازدياد المبيع.. المطاعم مفتوحة الشهية للزبائن بيد أنها لم تتمكن من فتح شهية الزبون مهما حاولت، كونها لم تحظ بالنظافة المعهودة؛ حيث اعتادت على أجواء الحرب والجنود.. هذا هو مرآب النهضة للمسافرين.

اختفى القمر مع الزحام.. أظن أن سائقاً ما قد خطفها ليحتفي بها في طريقه إلى البصرة؛ مع ما لها من حسن نافذ للقلب، لها من الإمكانيات الأخرى ما تزحف به للدماغ.

كالعادة السواق أشبه ما يكونون بالكلاَّب، فهم لم ينفكوا منك سؤالاً وتدليلاً، مرحبين بك، يستقبلوك بالدعاء والصلوات، حتى يحظون بك راكباً مستديماً، أو راكباً وقتياً، المهم أن يحولوا شيئاً من نقودك في جيوبهم المتدلية.. غير إن السماسرة يلعبون أكبر الأدوار في أن يطولوك مرابطاً في سياراتهم إلى مقصدك.. أحيانا تنتفي الأخلاق وتنجلي المبادئ، فالكل يفكر بنفسه، وان الرزق عندهم بالسعي حد الهرولة والاحتيال.

استنهضني سائقٌ من غفلتي، وأنا انظر لمدَّ هذا (الكَراج) وجزره.. بحر متلاطم الأمواج.. السائق يجرفك بسيله.. وأنت تسعى لضفة هادئة الانسياب قائلاً:

ـ بصرة بـ (الدولفين) نفر واحد واطلع.

ـ لا أحبذ (الدولفين).

ـ فقط أنت والدكتورة في المقعد الخلفي.

ـ دكتورة؟!

ـ نعم، دكتورة.

راود احمد سؤاله الكبير مع نفسه طبعاً: أتجيد هذه الدكتورة فن الحب كما تجيد اللعب بالمشارط.. ما المانع من النظر إليها، أو الرحلة بجانب دكتورة متنورة لقضاء ملل الطريق.. لا أظنها

صغيرة.. حتى أنها متفهمة ستبادلني الحديث.. لربما أفضل بكثير من الركوب مع مسافر متذمر.. هكذا شان أكثر من ركبت معهم.. بعدما صار التذمر أشبه بتقليعة جديدة؛ سيطرت على النفوس بسبب إرهاصات الوضع الاجتماعي والسياسي العويص.

تحولت من مكاني إلى عجلة (الدولفين) دلفت في داخل السيارة، سلمت.. امتد إلى ناظري القمر ذاته.. ما أبهى ذلك الضوء المشع من هذا الكيان البشري الضعيف.. حاولت أن ارجع أدراجي للخلف وانزل، متجنباً هذا الخوف الساخن الذي غمرني فجأة.. ولكن إلى أين.؟ إلى أين يرغب ضال ينشد النور في لحظة العتمة.؟ لكن ما باله ـ السائق ـ يكذب عليَّ، فهو قال دكتورة.. وأنا متيقن أنها قمر؛ فليس بمقدوري أن اكذب نفسي وأصدقه.

تملك احمد شيء ما في داخله.. عصف غريب، سد بوجهه الطرق، المكوث هاهنا يعني الصراع.. صرخت به الهواجس وهو يصيح: هي المرة الأولى التي تخونني بها توقعاتي.. ما أن سمعت بأنها دكتورة، قلت: أنها بنت جيلنا العقد الرابع أو أواخر العقد الثالث أو منتصفه على أقل تقدير، لكنها لا تعدو أن تكون بنت منتصف العقد الثاني.. لا اصدق حتى أنها بنت خمس وعشرين ربيعاً إذا لم تكن أصغر من ذلك.

انطلقت العجلة.. وأنا متردد بين أكمال المسير، وبين النزول والترجل إلى البصرة على الأقدام، بدل هذا الهم.. لم اعد أطيق هذا الحسن الممتد إلى غور النفس، حيث أعماقي الساكنة، سكون الليل.. فتحت شهيتي وقتها، إلى النظر، إلى الكلام، إلى الأكل، إلى الكتابة، إلى الحب، ذلك العالم الذي ما زلت أواقع ذكراه، واحلم به يقظاً أكثر منه في المنام.

كان يفصل ما بيننا جهازها الحاسوب المحمول، أسرعت في إخراج مفكرتي ودواتي، لأكتب الشعر والنثر، وكل ما يجول بخاطري، المهم أني بحاجة للتنفيس عن لحظات مجنونة بصورة ما.. حرياً بي أن أعود لرشدي، أن أفيق من غفلتي.. إن عمري لم يكون بعمر المراهقة، ووضعي لم يسمح لي بالمغامرة.. سأنفض سم لواعجي على ورق صامت، اقلها يستر عليّ أنفاسي الملتهبة، ويكتم سر أعماقي الصارخة الملتاعة.

لأني لم أجد ما اكتبه، أو أني سأكتب ما يفضحني، بعد إن كنت عنيد الألم، مكابراً لم تلصق بي التهم.. فكانت عيني واقعة في أعماقها، تستفزها من نومها، فتفز مذعورة، ترمقني بحنق وترجع لنومتها.. حجابها الحريري الأسود اللون ـ الشال ـ لم يعد له صبرٌ في البقاء على الرأس، بان شعرها الكستنائي الموشى بخيط فضي.. لم يكن الشال ليغطي الشعر وحده، بل كشف عن صدر وبياض نهدين متمردين متفجرين بقوة وصلابة.. ولأن نافذة السائق مفتوحة، والسيارة مسرعة جداً، فان بين الحين والآخر تتطاير التنورة لتكشف عن ساقين مصقولتين كالعاج.. مدهونتين بزيت الحياة.. بلغ الهياج عند ذروته، ليس هو بهياج الصبا بل التصابي.

ماذا لو ملكت مفاتح امرأة مثلها.. ماذا لو كانت عشيقتي وحدي.. ماذا لو أني أحظى بصحبتها بقية عمري.

قطعنا مسافة ساعتين، بلغنا محافظة واسط (الكوت) وهي ما زالت نائمة.. وأنا سابح في هيامي، أمنياتي تلك الساعة لم تكن رصينة، كانت أشبه بهذيان مجنون وقت الغروب.. ما عساني فاعل وأنا في حال يرثى لها.. لم تبقَ لنفسي باقية، كل كياني تعلق بشماعة سحرها، جذبتني أسفاً من الياقة.

وما زال احمد يكابر ويتبجح بقوله: أنا ذلك الرجل الرزين، القوي، العنيد، المكابر، جبار في بيتي، مضرب للمثل في الصبر والعزيمة والعنفوان ـ رجل والرجال قليلُ ـ أصبحت ممن سكر حتى الثمالة، برحيق امرأة كسائر النساء، لا فرق بينها وبينهن سوى ذاك التباين الجسدي الرشيق والقوام الفارع.

وفي لحظة تأنيب وتوبيخ للنفس قائلاً: ويحكِ يا نفس، إذا لم يستفزها سحركِ وجذبكِ وشبابكِ فأنت إذن لا شيء ـ مجرد حطام ـ واسترخى قليلاً، وحاول أن يلتمس النعاس، لعله يبتعد ولو قليلاً عن ورطة هو بالغها عاجلاً أو آجلاً.. ومكث غير بعيد يقلب عالماً آخر مليئاً بالهدوء والسكينة، لعله ينسى ما هو عليه من مصيبة وفاجعة.. غير أن كل محاولاته باءت بالفشل ومنيت بالنكسة.. واستدار نحوها فرمق أطراف نهد مترع ينع نضج خمري.

فصرخ في نفسه: آه يا ويل نفسي..! لا أعدو إلا أن أكون مجنوناً، فكل نهود اليافعات نواهد.. وطارت تنورتها مجدداً، كأنها ارتعدت مذعورة، تنظره شزراً، وتضرب بيديها أطراف تنورتها لتغطي بها ساقين مصقولين كالرخام.

شعر عندها بقوة جاذبيته التي باتت فاعلة، وقواه السحرية صارت فاتكة وقاتلة، وهو يقول جذلاً: أن نظراتي وصلت لأعماق عالمها الحصين.. خاصة عندما بت أشعرها بوجودي، وأهز نومها بصراخ أعماقي، واستفز حلمها الدافئ بنوح أحلامي، وأعلقها بتلابيب آمالي.. امتلكتها نفسياً ووجدانياً وإيحائياً.. إن ما بيني وبينها من طول المسافة التي استغرقت أكثر من ساعتين، بدت الخيوط التخاطرية ذات نتيجة ومفعول سحري، إذا لم يكن كارثياً وسلبياً.

ماذا يدور في خلدها يا ترى، ماذا تخبأ أعماقها لي من أجوبة لتساؤلات نفذت إليها مع الهواجس والوساوس..؟ ما هو لون صراخها، وطعم أحاسيسها.؟ إزاء نزيف من الأحاسيس المكبوتة في داخلي التي وجهتها بسهام أنفاسي الملتهبة.. أليس من المفروض أن اكلمها، اختلق أية حكاية، افتعل أية لعبة، لأرى عالمها المادي، بعد إن غزوت عالمها الروحي.. ما زلت أكابر؛ هنا تكمن المشكلة.. يمنعني كبريائي، ويمنعها عني حياؤها.. لكني مصر، وعلى عزيمة قوية وشكيمة منيعة، إن لا أتنازل لامرأة مهما كانت على حسنٍ وثقافة وأدب؛ هذا ما يناور به ظاهري، أما داخلي بدا يتفتت كحجارة من غرين جاسها انهمار المطر.. هي ليست المرة الأولى التي يختلف بها الظاهر مع الباطن، هو صراع أبدي، عدم توازن، اختلال، استخفاف بالقيم واستسلام لأخرى.. أنظرها بازورار عين غاضبة، ماذا يكمن في داخلها، أي صراع يضطرم في جوفها، ماذا يعني لها الرجل الذي كله همة وتوق.. يجالسها طول الطريق دون أن يكلمها، ولو على سبيل المجاملة أو الاستفسار، هل هو محصن بإحراز ضد الجمال أو بالأحرى ضد أنوثة الأنوثة.. إلى أي فئة ينتسب هذا الرجل، أو في أي حزب ينخرط.. أسلامي متشدد، أو أخلاقي محافظ.. أو.. أو.. أية قوة يمتلك هذا الرجل، هل هو داهية في المراوغة، هل هو صمت مكر.؟ أم انه الهدوء الذي يسبق العاصفة.؟

لا أظن أنها تبادلني نفس الشعور، فمثلما بدت نظراتي افتراسية، كانت نظراتها الخاطفة مريبة ومشككة بمدى صبري على السكوت، والوقوف أمام عاصفة المفاتن التي تتعمد إرسالها على شكل جرعات هادئة توخز به ثباتي المتزعزع.

ولم يجد احمد غير صرف النظر ـ على خلاف من يقول، كله نظر، فان الحقيقة هو بلا نظر ـ وعاد يراجع أوراقه الصفراء التي أذبلها عناء قلم جفت محابره. إلى إن وصلوا إلى مطعم (جنة الجنوب) أحد أشهر المطاعم السياحية في الطريق الرئيس، انه وقت الاستراحة والغداء.. لَكَم راودته فكرة استضافتها والجلوس معها في القسم الخاص بالعوائل، وان يحدثها عما يدور في خلده من عصف حب وشوق عارم.. لكن كل شيء بالقسمة ـ كما يقال ويبرر به ـ هذا إذا لم يكن بالعزيمة والنوايا الدسمة.

****

عجلات المسافرين تركن هنا وهناك، خاصة إن منطقة (علي الغربي) هي المنطقة التي تنتصف الطريق بصرة /بغداد تقريباً، لذلك أكثر ما تتوجه العجلات إلى مطعم جنة الجنوب لشهرته بالنظافة وحسن المداراة.. على الرغم من إن أكثر المسافرين يخرجون من هذا المطعم متذمرين لغلاء الأسعار.. لكن يافطة أصحاب المطعم تقول نحن لا نجبر أحداً، هذا طعامنا، وهذه خدماتنا، وهذه أسعارنا؛ فمن يريد غير ذلك فان المطاعم السياحية كثيرة ولا عليه إلا الاختيار.. في حين ان أكثر من يختار المطاعم هم أصحاب السيارات، لعلاقتهم بهذا المطعم أو ذاك، ولا تخفى أن علاقة السائق بالمطاعم، هي علاقة مصالح متبادلة، لا تربطها جودة أو رداءة الطعام أو المكان، بمقدار ما يدر على السائق من فوائد بدت مشروطة بين الطرفين.
ما زال احمد يتحرق وجداً إليها، خاصة عندما شعرت بالأمان، فبدت تتعرى بشكل ملفت، حتى حركات قدميها كانت تنم عن

هياج وثورة.. كان بين أصبعيها عود الخلة لم تنبش أسنانها به بل راحت تدخله وتفرك قشرة ظاهر الكف، وترجع لتدخله بين أظافرها الطويلة، وبدت على شيء من العصبية، فهي تضرب بعود الخلة المدبب الرأس علبة ماء بلاستيكية كانت بيدها في محاولة لثقبها.. إشارتها لا تخفى على احد عارف مثل احمد بأحوال النساء.. كلها إمارات عطش لماء الحياة يروي ظمأ شابة كبلت بالقوانين والطبيعة والمكان.

ويح نفسي إذا ما كنت لها الساقي، فأرويها من حر أشواقي نشوة لا تنفك بها عني أبداً.. وانا قدر المسؤولية التي حطت بها، وأكثر من ذلك أماناً وحرصاً، وهذا ما تلوذ به الفتاة الضائعة.

طَفلة، جميلة، ساحرة، سرقتني من رزانتي، هدوئي، سكينتي، لو كان بإمكاني لأسرق ثوب عفتها، وأدنس طهارتها، انتقاماً منها لهذا الصمت الذي لم تبن نهايته بعد.. ولو لم يكن في نيتي من الأصل إيلام هذه البراءة المشوبة بالعنفوان الكاذب.

وأقفلت راجعاً عن غيي، ما بالي، أمجنون أنا.؟ ماحقي عليها، حتى امتلك شعورها وناموسها.؟ من خولني القضاء على أنوثتها، وتعفير عفتها بالتراب.؟ لماذا لا ارجع إلى نفسي.؟

امرأة استحبت الصمت، وركنت إليه.. طفلة لا تقوى على خوض مواضيع الحب ومقامرة العاهرات.. ما يهمني منها.؟ وما بها بها.! أنا لست سوى متطفل فحسب ولربما دخيل وضيع، يتلصص على شعور أنثى غارقة في خصوصياتها.

توسدت ذراعي على المقعد الأمامي وضممت راسي، واستلقيت وكان في ودي أن أنام طويلاً طويلاً؛ وان لا أصحو للأبد.

وبين شعوري باليأس حد الإحباط، وفشلي في ترويض فتاة نافرة، وجدت نفسي سابحاً بتحدٍ آخر، أين هي إمكانياتي السابقة

أبالأمس غيرها اليوم.. خاصة وأنا قد شببت على أكثر من علاقة وصداقة، وعشت مع جيلين سلفاً وخلفاً.. وأنا أكثر من متمكن، وأقدر من قادر، فلا اللغة تعيقني، ولا دراية الشباب تثيرني، وحتى الموضة، فانا أجمل من يلبس وأحسن من ينتعل.. وعلى خلاف ما بيني وما بينهم من العمر، فلا أجد في شبابهم ما يشيبني، فمازلت بروح شبابية، انشد الشعر واكتب للهوى وأغني.

ورجعت منتصب القوام متكئاً على حافة الباب.. سرقت منها نظرة فنظرة.. شعرت باني طريد طراوة أنثى وسحيق ميوعها، خاصة عندما كشفتْ عن زند مترع، وطرف نهد كالجمار، وبدا لي انها ستكشف عن كثير مما خبأه الدهر.

انظر إلى ميل السرعة الذي بدا يتراوح بين ١٢٠-١٤٠كلم بالساعة، فنحن نقترب من الثلث الأخير للوصول إلى البصرة، وكلما تذللت المسافة، قد ينتهي نزاع النفس ولواعج الفؤاد وحر الجوى؛ وان بدا نزاع آخر، هو نزاع اللوم والأسف على تضييع مثل هذه الفرصة التي قلما يحظى بها المرء مرة أخرى.

راجعت حساباتي أكثر فأكثر، راجعت حافظة رصيدي مما علمني الزمن: "اغتنموا الفرص فإنها تمر مر السحاب" كل شيء يدب فيّ هو نزاع عقيم على ملكية قلب مجهول صادفته على حين غرة، وبلا موعد، وها أنا ارفضه، وارفس النعمة بكبرياء فارغ، ما كنت أعهده في سابق العهد.

أنا لا أنتمي لهذا الصمت، حتى في سكناتي مد وجزر.. يذهلني الجمال بكل معانيه تبهرني المرأة التي تعتني بنفسها في إثارة شعور الآخرين.

المرأة خلقت مقدسة، كلها مفاتن وحسن وعورة، جذابة، ساحرة، مكارة، قاهرة.. الحياء فيها عفة، والعفة فيها طهارة،

والطهارة أمر مقدس لامرأة تعيش العمر كلها تضحيات؛ إلا المبتذلة.
اقر احمد بهذيانه، بقوله: ما أبالي بدأت أهذي كمن جُن، أسكرتني بحسنها المتنامي كلما ارتفعت حرارة الشمس ازدادت هي بريقاً وازددت أنا فوراناً.. أنا اشعر بما يفور في داخلي، لكنها تكابر مثلي.. لبئسما كانت العنادة مستقبحة في الرجل، على العكس منها في المرأة.. فالعنادة غنج، والصرامة حصافة.
لكني كمن عاهد نفسه على شيء لم تقتنع النفس ذاتها بارتياده، فهي ترتعد غضباً وتزمجر أسفاً على تصرف ارعن إذا لم يكن عن غباوة وجهل، فهو بالتأكيد ينم عن اختلال سكينة.
غشي المشهد بأكمله نوع من الصمت المفتعل، فلا اسمع للسائق حساً ولا للراكب الأول لربما تعزية لموقفنا المتشدد الأهوج وكأنه يوم صمت عالمي وحداد.
عند سيطرة (كميت) أوقف رجل الشرطة العجلة ككل باقي السيطرات، لكن في كل سيطرة ما ان يسرق الشرطي نظرة، إذا يومئ للسائق بالانصراف، إلا هذه المرة فان الشرطي أطال النظر، وان كان يقصد بنظرة الغالب لسحر الدكتورة، فأشار على احمد بإعطائه هويته، اخرج احمد هويته العسكرية من محفظته وأعطاها للدكتورة لتسلمها إليه كونها على مقربة منه..
مد الشرطي رأسه معتذراً: ـ العفو سيدي، تفضل هويتك.
فأومأ له أحمد برأسه احتراماً لعمله، ومدَّ يده إليه لاستلام الهوية، لكن الدكتورة تناولتها منه، وأخذت تقلبها وجهاً وقفا، فسحب يده خالية، فالتفتْ إليه بهدوء:
ـ أنت ضابط.؟
وكأن طول الصمت سيطر على ذهنه فهز لها برأسه إيجاباً، وما لبث إلا إن تكلم:

ـ توقعتك خرساء.
بابتسامة هادئة:
ـ نفس الشعور.
ضحك أحمد ضحكة مصطنعة، ثم قال:
ـ أنت دكتورة.؟
باستغراب:
ـ كيف عرفت.؟
تعمد الكذب:
ـ مجرد تخمين.
ـ لا اعتقد.
ـ لأني موجوع.
ـ أنا طبيبة نفسانية، وهج الأمير.
ـ اسمك.؟
ـ بلى.. اسمي وهج.
ـ الحقيقة أنت قبس من نور، ومنار هدىً، وفنار.
بغرور:
ـ هذه الحقيقة.! فكيف يكون خلافها.؟
ـ صدقيني أنا لا اكذب، ولا أجاملك، فقد أشعلتِ في قلبي ناراً وفورة هياج.
ما زالت تقلب هويته وهي تضعها بين أطراف أصابعها، قائلة:
ـ اسمك احمد محمود عبد الله وصورتك جميلة وفصيلة دمك نفس فصيلتي، لكن تكمن المشكلة في عملك، فهل أنت مثقف، متعجرف، ثوري، ذو سطوة وبطش، إذا لم تكن طاغياً في الأرض وجباراً.؟!
نظرها برغبة هادئة، خلع وراءه كل أردية الكبرياء والعناد، قائلاً:

ـ أنت طبيبة نفسانية، ويمكنك تشخيص سلوكياتي.
ـ يلزمني تنويمك مغناطيسياً.
وجد الفرصة مواتية، وبلا تأنٍ قال:
ـ حبذا لو كان بين أحضانك إغفاءة إلى الأبد.
أعربت عن ابتسامة عريضة، شعر حينها بالرضا، على الرغم مما يصطرع في داخله من تساؤلات مستفزة وناكرة وجحدة: هل لفتها عملي كضابط وما تعني العسكرية قبال الطب.؟!
ورجع يوبخ نفسه على هذا التفكير الساذج إذا لم يكن بالسخيف.. وبرره بأنه رد فعل طبيعي.. عرفت هي كيف تكسب بما فشلت به أنا، وماذا ان تساءلت وتحادثنا طول الطريق، التي باتت علامات نهاياته تقترب ومسافاته تضمحل؛ بعد ان دخلا مدينة (العمارة).
تصادفك وأنت تدخل محافظة ميسان.. الطرق الترابية.. أعمال البناء القائمة لأكثر من مجسر ينظم سير المنطقة المختنقة بالزحامات المرورية.
جسور كونكريتية قيد الإنشاء، مرحلة عمران طويلة تعم كل مناطق البلد.. تمنى عندها وهو ينظر لهذه الكتل الخراسانية السامقة، والجسور العظيمة، ان يمد جسور المحبة بينه وبين هذه الفتاة، التي تزداد ومضاً وبريقاً، فقد بانت كبدر في ليل مخيلته المظلم، التي عادت بأنفاسه لريح الصبا ومسح ظلامة زمن مغبر.. رمقها بتحدٍ وهو يبث هوى لواعج فؤاده المتعب، ورمى بشجون حديث طويل:
ـ لماذا اخترتِ هذا الاختصاص.؟
ـ مجرد رغبة.
ـ أم أنك تكرهين اللعب بالمشارط.؟

ـ على قولك.. فضلاً عن إني أحب معرفة هذه النفس الغائرة في جوفنا.
ـ على الرغم من كثرة المرضى، فان دخلها قليل وعوائدها طفيفة.
ـ بابتسامة هائلة، وغنج قاتل:
ـ ما أدراك.؟
ـ أنا ابن شعب أكثره عليل، وأمراضه نفسانية أكثر منها جسمانية، لكنه ضائع بين مكابرة مصطنعة وأماني مقنعة.
ـ الحق انه خائف، ويخشى أن يسمع به الآخرون، بأنه عاد طبيباً نفسانياً، فقد يُتهم بالمختل والمخبول، وينعت بالمجنون، ويُدق له الطبل.
ـ هذا ما زاد الطين بلة، فان سكوته سيغلبه ويغّلب عليه نوازعه.
وبهدوئها المعتاد، وشيء من المكر:
ـ مثلك تماماً.
فز احمد لوقع هذه الكلمة، صارخا بصمت: لا أدري ما تعني بالضبط، فهل أنا الخائف، أم أنا المخبول، أم أنها أرادت بي ممن غلبت عليه نوازعه.. اهانة لا يمكن السكوت عنها والتغاضي عليها، أصابتني بغتة نزعة البادية، حركت بي مشاعر الحنق والثأر، وأوعزت بي بالانقضاض عليها، وعاودت أفكاري باحثاً عن ملجأ آمن يجنبني فقدها، فقلت في نفسي: سكت دهراً ونطق كفراً ـ انه أنا ـ من تنطبق عليه هذه المقولة، أما هي فبراء، إنها لم تقل إلا الحق، وان كان ليس من حقها ان تقيم وضعي، وان نصبت نفسها طبيبتي الخاصة، أو حتى حبيبتي أو أكثر.. لا.. لا شيء أكثر من الحب واكبر.
ورجعت وهج وهي تلمس ما فعلته بأحمد المسكين لتقول له:
ـ أنت تهدر وقتك، وفر عليك طاقتك.. أنت مضطرب.

احمد في نفسه: بل أنا راكض وراء سراب.. وظل مستاء من هجوم استباقي بلا سابق إنذار، فخاطبها بمسكنة:
ـ ما بالك معي، رويدك عليَّ.
وهج ضاحكة بصوت عالٍ وبطريقة استفزازية:
ـ أرى في داخلك اضطراب هواجس، واضطرام مشاعر، واهتزاز ثوابت، واختناقاً.
وجد احمد نفسه في مكان الفاشل الهزيل، الذي لا يصلح لخوض أية معركة مهما كان نوعها، والانكى في ذلك إن لا مكان للانسحاب: لم يحضرني في ذلك الوقت ما أصد به هجومها عني، سوى أنْ ألزم الصمت الذي بدأته أول وهلة واخترته على غيره، فالصمت وحده في مثل هذه المواطن قد يفوق الهجمات المسلحة.
وعاد احمد يقلب ما يعتريه من هم قابع في داخله، وأسف بالغ المعالم في وجهه وملامحه، لما تورط به مع أنثى كل ما فيها قاتل، حرباء تتلون مع لون المكان والزمان.
وراح يراجع نفسه لربما ورد منه ما يسيء الفهم، ويعكر صفو هذه الألفة، فتذكر قوله (حبذا لو كان بين أحضانك إغفاءة إلى الأبد) الكلمة التي عبرت عن صدق داخله وانتصر به لأحاسيسه اتجاهها، هل كانت هي العائق في أن تسمعه كل هذا الكلام الجارح.
وبدا يعيد شريط الأحداث على الرغم من ان الكلام بينهما لا يعادل سوى واحد بالمئة من الصمت الطويل.
فرجعت إليه وهج بقصد الاستفزاز:
ـ أين ذهب قيس يا ترى.؟!
احمد لا يدري ما ترمي إليه بهذا الاستفزاز السافر:
ـ أتسخرين مني.؟

ـ أبداً.
ـ إذن.!
بهدوء يشوبه الحياء والمسكنة:
ـ ما بالك.؟ إنما أحببت إبلاغك شيئاً من خبرتي.
احمد ينظرها بازورار عينيه:
ـ أتقول خبرتكِ أني مضطرب عقلياً.
وهج ترجع للخلف متسائلة:
ـ من قال هذا.؟
ـ لا تنكرين.
تجيبه وهج بصوت عالٍ:
ـ اقسم إني لم اقل ذلك.. ها.. قلت اضطراب هواجس.
ـ وكيف تفسرين ذلك.؟
اقتربت منه وعلى رضاب شفتيها طراوة وبلل:
ـ يعني أحب، أو لا.. أقامر، أو لا.. احكي أو اصمت، وتساؤلات أخرى، محاكاة لمشاعر حيرى.
ضحك احمد واستعاد نشاطه وأحس بأنه ظلمها، وبمكر وتصنع كلمها:
ـ تعمدت ان العب بأعصابك واستفزك يا دكتورة، بل يا أجمل وأحلى ما رأت عيني.
الدكتورة لا يفوتها هذا الانسحاب غير المنظم، وما مُني به من هزيمة نكراء أمام امرأة سحرته بحسنها، وما لقي من لباقتها فهو أعظم، وهي تردد في نفسها: (كذاب وفوقها منافق، تريد ان تستميلني إليك، هيهات ان تطول ذلك، وتبلغ مناك).
احمد ينظر لصمتها وتغير حركات وجهها وعينيها الزرقاويتين اللتين تتراءى له كبحر ساكن، فيصيح بها:
ـ الى أين.؟

تنتبه إليه:
ـ لا عليك.. مجرد ذكريات.
ـ جميلة، أم مريرة.؟
ـ ذكريات وحسب.
ودار في خلده أن يسألها إذا كانت مرتبطة، لكنه استقبح هذه العجالة الممجوجة، ووجد في التأني السلامة، على الرغم من إن اختزال مثل هذه المسافات الشاسعة قد يودي بك إلى بر الأمان.. ظل يراوح في مكانه، يعصر صدغيه، عسى أن ينم عن فكرة سديدة يستحوذ بها على قلب امرأة من نوع خاص، تمتاز بقوة الشخصية وسحر الجمال، عصية، متمردة، فتية، متنورة، لبقة، عتية.. كلها مؤهلات صادحة، ملتفتاً إلى نفسه متسائلاً: فمن أكون أنا، وأين.؟ هنا تكمن المشكلة.!
وإذا بصوتها يكسر ما وراء السكوت من فورة غضب وغليان:
ـ أين تعمل، أعني مكانك؟
بتأن وتؤدة: في مصنع الرجال.
ـ هل يجمعكم ثمة جامع في صنّاع القرار.؟
ـ نحن من يحمي القرار.
ـ إذن أنتم بلا قرار.
قلت في نفسي: (صادقة والنبي) وفاتني القول بأننا سند الحكومات، إذا ضاقت بها الضائقة، فلا ينتصب لهم قرار، إلا ونحن من نقّوم أمته، ونقوّي ظهره، وندفع بإسته.
بدت عيونهما تصطدم ببعض، إشارات طائشة، وموجات مشتتة وسالبة.. ينعكس على الطريق وعداد السرعة، وهم يشارفون على الدخول إلى قضاء القرنة، الذي يبعد (٧٠) كم عن مدينة البصرة.

وصف احمد رحلته بقوله: ساعة أو اقل بقليل وتندرس هذه الرحلة الجافة وتسوى بالماضي الحافل بالقهر، رحلة لم احمل منها غير مآسٍ وذكريات أليمة، سترافقني طويلاً.. عشق طائش، وجوىً غائر، وقهر للواعج مكبوتة، لا يفرغها إلا الموت من ذاكرة منكسرة.

****

اعترض المسير رتل أمريكي، اكتظت السيارات وبدأت تسير دون البطيء، فلا أحد بإمكانه اجتياز هذا الرتل، الذي ما ان تقترب منه أو تلحق به حتى يفتح عليك النار، دائما ما تحتاط هذه الارتال فهي تعتقد كل من يزاحمها عدو.. نزلت العجلات على الطريق الترابي حال باقي كل السيارات عبرنا الى (السايد) الآخر وحتى نتخطى الرتل الذي يسير بسرعة لا تتخطى الـ (٦٠) كيلو متر بالساعة، وكنت أود لو إني اعبر بها الى الجهة الأخرى، اختلي بها بين الأشجار، ووراء التلال، أتحدث معها بلغة العصر التي بدت مفهومة لكل البشر صغاراً وكباراً.. وإن لم أرَ فيها سوى طبائع وحشية، وغريزة انتقام.. فكلما أشتد أوار الصمت، تملكها الغرور، وبان في تصرفاتها، وطبع في مخيلتها إنها.. إنها بلا منازع.
وعدت ـ والعود احمد ـ لأراجع ما إذا كانت قراراتي تعسفية بدافع الغضب والحقد.. أم ان كل ذلك ينم على فشل في ترويض هذا الحيوان الأليف بفطرته والوحش بشخصه، حتى المشاكسات التي صدرت منها ، قد تكون هي لغة الجيل ولا تعدو إلا إن تكون مجاملة رقيقة.

لم يجد غير هذا القول ما يبرر به مواكبة العصر: قد نأيت طويلاً، ومكثت بعيدا عن دياري، وهذا ما أبعدني عمن يركب التقليعات الحديثة، ويتطلع للانفتاح.. مازلنا أبناء جيل لم ينفصل إلا قليلا عن علائقه، إما اليوم فالجيل لم يأبه ولن يكترث لذاك الترابط وأواصر التقارب.. جيل انفصل بالكامل عما يحلم به الآباء.. أما جيلنا المسكين فظل يركض ويلهث دون أن يحقق أي هدفٍ مهما كان واهياً وركيكاً.

وفي نوع من التطفل والفضول سألها:

ـ هل أنت مرتبطة.؟

ـ لا أحب التطفل على خصوصياتي.

ـ وان كانت إجابتك لا تروقني، لكن لا باس، بان أصوغها بطريقة أكثر تحضرا، هل يزعجك إذا ما شاطرتك أحاسيسي.

ـ لا تعنيني بشيء.

ـ ولكن أجد نفسي معنياً بك.

ـ هذا شأنك.

ـ تعرفين أنت أجمل تجربة حب أحس بها.

ـ بهذه العجالة تتكلم عن الحب.

ـ أنا مرهف الحس.

ـ اعذرني إذا ما قلت أنت مراهق، تعشق بسرعة، وتنسى ببطء.

من مندوحة القول أنها أصابت كبد الحقيقة.. ما دعاه للعدول عن الحب إلى الصداقة، بعد أن وجد بها المعلم الجيد بقوله مع نفسه: هي بنت وسط جامعي، فلعلي أتعلم منها ما قد فاتني. فكلمها محتالاً:

ـ على الرغم من خسارتي الفادحة بالحوار معك والفوز بك كحبيبة، إلا إنني اطمح أن أنال صداقتك.

ـ الحب بسموه ورقيه ينتهي إلى المضاجعة، فإلى أين يا ترى تنتهي الصداقة.؟!
جال احمد بنظره يمينا وشمالاً، وهو يقول في نفسه: اغرب ما سمعت، واصدق ما علمت، فبما ان الإنسان حيوان ناطق فهو حيوان متوحش إذا ما خلا بملكيته وعوائده.
لم يبق عنده من الحديث ما يمكن ان يستدرجها به، فقد خسر كل أدوات اللعبة.. بقي أمامه ان يستسلم ويرفع علمه الأبيض منكساً، إلا إن أمانيه مازالت عائمة.
ـ سعدت بلقائك، رحلة جميلة، لكن مازال في ودي ان احصل على رقم هاتفك، عساني..
قاطعته بهدوئها المعهود وهي تهز برأسها رفضاً:
ـ كذلك سعدت بلقائك.
ـ ولكن هاتفك.
أجابته بالتلويح برأسها ممتنعة ان تجيبه إلى مطلبه.
ساد الصمت، وخيم السكون، وللحديث شجون.. السيارة اقتربت من نهاية المشوار، وليس في وسع احمد نسيانها والابتعاد عنها، وما زال يخطط في محاولة منه أخيرة، لعله يترك بصمة، أو بصيص نور بالالتقاء معها، انه شغف بعناده، وفكر مليا.. فتوصل إلى اخذ جذاذة، من أوراق كانت بيده، وكتب رقم هاتفه، ودسه بين أصابعها، قائلاً:
ـ هذا رقم هاتفي، إذا ما احتجت أي شيء، فانا برسم الخدمة.
لكنها كانت اصلب عوداً من أن تنطلي عليها هذه اللعبة، ففتحت النافذة ورمت الجذاذة إلى الخارج، دون أن تلتفت إليه وعند مدخل بوابة البصرة، ووجود السيطرة تفقد جيوبه بحثا عن هويته العسكرية التي كانت بين أصابعها قبل قليل، فلم يجدها في جيوبه، واخذ يرمقها بحدة، فلا هو قادر على سؤالها بعد كل

مـا عملتـه معـه، ولا يجـرؤ أن يتهمهـا بـذلك، وإن ذهـب بعيـداً باتهامها بالسـرقة، ورجـع متسـائلاً مـع نفسـه بمـاذا تفيـدها هـذه الهوية.

واخذ يـتفحص المكـان مـا إذا كانـت قـد وقعـت منـه، حتـى رأى الهوية تكاد ان تكون تحت كعب حذائها، فعلى الرغم من استيائه لمـا رآه منهـا، لكنـه أحـس بالراحـة بوجـود هويتـه العسـكرية.. نظرت اليه مسـتفهمة. اجابهـا بصـمت: المهـم ان تكـون القنـدرة بخير.. أعني..

بيوت بلا سقوف

((أكابد البرد في سراج يكاد من ضعفه يموت
في غرفة ملؤها ثقوب أو قل ملؤها بيوت))
"شعر/ السيد احمد صافي النجفي"

بلغ احمد البيت أحاطته الأطفال.. أطفاله وأطفال أخويه اللذين يسكنان معه، بينما حنا على أمه يقبلها وهي تجهر بالدعاء إليه، إما زوجته فقد احتوته وضمته إلى صدرها، لم يكن الفراق طويلاً بقدر ما هو خطر، فهو عسكري يعمل في العاصمة بغداد المشتعلة بلهيب الحضارة وصراع البقاء، على خلاف كل مسمياتها التي حظيت بها هذه المدينة الشامخة بالعلم والأمجاد والتمدن والسلام، أصبحت هدفاً لمرمى الفساد من كل جانب ومكان.

جلس بين عائلته ابنته الصغيرة تطوق عنقه بذراعيها الناعمتين، وتقبل مؤخرة رأسه وكتفيه وهي تنشد هديتها المرتقبة، لكنه كان في شغله الشاغل عنها.. زوجته عجلت بتجهيز الغداء، وهي ترميه بابتسامة تلو أخرى، فرحة الزوجة كبيرة بعودة زوجها، خاصة إذا ما طال الغياب، فكيف بمن يضحي ويتغرب لأجل عائلته، ان هناك قدرا كبيرا من الحب ينتظره، فليغرف بكلتا يديه، قارنَ مابين زوجته وتلك الدكتورة التي دخلت حياته على عجالة، وما ظنه ان تخرج ولو صنع المستحيل، فقد طبعت صورتها في مخيلة مهزوزة أتعبها الحرمان والترحال بلا طائل.

وهج الأمير، عاد يسميها وهج الحقير، وينهال عليها بالسب وهذا ما يطيل عمرها في نفسه، صورتها علقت على جدار قلبه، وصوتها مازال يدغدغ أسماعه، امرأة ولا كل النساء، فان مثلها لا يرد إلا بمثلها.. لكن زوجته لم تمتلك مثل صفاتها، وإن كانت لا تخلو من حسن وخلق رفيعين، إلا إنها على شيء من الكبر، وعديمة الحيلة وهذا ما يقلل من حظها عنده، وإن كبر شأنها وعلا مقامها.

مدت السفرة، جاءوا بألوان من الأطعمة من الأرز والمرق وكانت وجبة سمك الصبور هي الوجبة الأساسية، كان ساكتا طيلة الوقت، يفرك بفروة رأسه، وان تكلم تكلم مجاملة مع عياله وبالمثاقيل.. زوجته استنكرت ذلك عليه، وعلقت ذلك على شماعة التعب وخاصة السفر وما ان يقدم على أكل لقمة يتجشأ ويشرب عليها اللبن ليدفعها، وعلى الرغم من نهمه بالأكل وخاصة السمك، ما كان ليستطيع ان يمرر الطعام دون ان يلحقه بشربه ماء أو ضياح لبن.

قام عن طعامه دون ان يكمله، وتوضأ وراح يصلي، وهو يدعو ان يتغمد ألله روحه النقية بالرحمة، وان يتلطف به بعد هول ما رأى من صدمة الجمال.

وما ان انتهى من صلاته، إذا ما عاد لرشده، يوبخ نفسه تلك النفس الأمارة بالسوء، الطائشة الضائعة في متاهة الحياة، عبثا يسعى وراء أمل ضال.. وراء حلم بعيد المنال، ان زوجته قدمت له القلب كالبلور بين كفيها وأعطته السيادة المطلقة على نفسها الشفافة، ووهبته سحرها وأنوثتها ورقتها، وكانت كالجارية بين يديه.. ألا ان مضي الزمن عليهما وتشابه الحياة عندهما، سعى باحثا عن تغيير وقتي أو أبدي فهذه أم بيته وعياله، ومحط ركابه، ومنزل ثقته وسره، وتلك متعته وسلعته

التي اشتراها بثمن بخس، نافذة الصلاحية لوقت ما كأي سلعة تجارية مستهلكة.
ما كان يروق زوجته هذا الصمت، حتى بناته شعرن بان أباهن لم يكن على بعضه، فهو سارح في تيهه، وغارق في غيه، وكان في ود زوجته ان تنتشله من بحر همومه، إذا لم يكن من أوهامه، وكأن بناته شعرن بأن والدهن يرغب الخلوة بأمهن أو بالأحرى شعرن ان أمهن هي من ترغب ذلك، لكن حجرتهن التي تعتبر غرفة منام ومطبخ في آن واحد، فهو لا يملك في هذا البيت سوى هذين الغرفتين وهذه الغرفة بدون تبريد سوى مروحة سقفية لا تجدي نفعا في جو البصرة المستعر نارا ورطوبة، ففضلن البقاء وان كان على حساب الأبوين.
الكل مدّ مفرشه الاسفنجي الرطب، إلا ابنته الصغيرة فقد شاركت أباها فراشه، مرّحبا بها وضعها في حضنه ونام.. هي المرة الأولى التي يأتي بها الأب دون حس ونس.. الزوجة حائرة هل ثمة مشكلة تنتظرها ان كان العادة ان البيت هادئ نسبيا كون الزوج يدرك مسؤوليته اتجاه عائلته وكذلك الزوجة امرأة متعقلة، متفهمه صابرة رغم ما طرأ على حياتهما من صعوبات ومآسي.. لكن ضعف الإرادة وهزيمة العمر وأماني الكبر جعلته ينوء بأرض يباب يزرع فيها ما فاته زمان.

****

كالعادة انقطعت الكهرباء، وأبى صاحب المولد ان يشغل مولدته، كونه قد شغلها أكثر من ثلاث ساعات، صحا احمد من نومه على (مهفاة) زوجته التي قامت تهفّي عليه لعلها تخفف عنه وطأة الحر.. مد ببصره على طول الحجرة، وجد بناته

نائمات تمعن بهن أكثر لم ير لهن حركة، سبات، فجرَّ زوجته الى صدره وقبلها قبلة طويلة على الرغم من امتناعها خوفا من ان تستيقظ بناتها، فأفلتت نفسها بشدة.. إلا ان يديه كانتا تعبث بين صدرها وفخذيها.

بدت للبنات حركة، يتقلبن من شدة الحر.. غرفته في الأعلى غير محاطة ببنيان ما جعلها معرضة أكثر لحرارة الشمس، لم يسعه ان يفعل شيئاً، فقد ابتعدت زوجته عنه قليلا وهي مازالت تمسك بالمهفاة، وهي تشمر بيد مرة على (رغد) ابنتها الصغيرة ومرة عليه، رفع نفسه عن فراشه، فما عاد للنوم الجدوى بعد ان أصبحت الغرفة كالتنور، حاول ان يتكئ على الحائط لكنه كان شديد الحرارة، فاتكأ على الوسادة، وفي قلبه تجول الجوائل.. فلم يجد سوى التهامس سبيلا في ان يطول بغيته، لكن أي الأمكنة يمكن ان توفر له الجو المناسب غير الحمام.

فذهب بعد غمز ولمز إلى الحمام على أمل ان تتبعه، لكنها أبت هذه الحالة واستقبحتها بشدة، وأنها لا تتماشى مع رغبتها، خاصة ان الحمام والخلاء كان مشتركا بمساحة لا تزيد عن المتر والنصف مربعا؛ لكنه ما كان ليتركها ومزاجها فقد نادى عليها أكثر من مرة.

فاقتربت منه وبصوت خافت:

ـ ماذا تريد.؟ البنات قاعدات.

ـ ملعون أبو البنات، تعالي اغسلي لي ظهري.

ـ هذا عذر قديم.

ـ عليك بعذر جديد.

ـ ماذا تراني معتذرة.

باستهجان واستمراء:

ـ اذهبي واستأذني من بناتك واخبريهن بأنك ستدخلين معي الحمام، ولربما أتجرأ وأطولك بقبلة أو أكثر، فتركته وانسحبت بعيدا عنه، وجلست عند ابنتها تهفي عليها لكن من يحنو على زوج ضاع بين شهوة جامحة ورغبة مكبوتة.

****

عندما يأتي المساء..
للغروب صدع في النفس، وهزة في الوجدان، يخيم على الفكر شيء من الوحشة والاغتراب.. والليل اشد ما يرغب به المتعب واللهفان، ففيه تبرد الأجواء، وتنتفض الأحشاء.. يظهر القمر في عنان السماء يتوسط ملايين النجوم البعيدة التي أذبلها السهر وخَوَتْ في المجهول.. أكثر العوائل ترتاد السطوح، لان الكهرباء غير مستقرة رغم برنامج الانقطاع المنتظم، لكن لاشيء من هذا القبيل، حتى الفترة المقررة بإعادة التيار الكهربائي هي فترة متذبذبة، قد تنقطع فيها الكهرباء أكثر مما تشتغل وأحيانا نتمنى ان لو لم تأتِ الكهرباء إطلاقا كونها تقض علينا مضاجعنا، ففي عز نومتك تنقطع، وصاحب المولد يتوقع عودتها بين الفينة والفينة فيعمد دون تشغيل المولد كونها فترة الكهرباء الوطنية؛ وصدق من قال: إني اشك فيما إذا كان عند رجال الكهرباء وطنية من الوزير الى الغفير.

****

نامت عيون الخلق، وعيون احمد واعية، حتى زوجته التي تعتقد ان الليلة ليلتها المفضلة نامت، والبنات ما زلن مستيقظات يتحدثن أحاديث العجائز.

شعر بالإعياء والصداع.. وكان آنذاك يقول: طيلة فترة عملي سهران في الواجبات الليلية، أما الليلة فما هو واجبي.؟ انتظر ان ينام الخلق جميعا لأعانق زوجتي.. وبات ينظرها بحنق، عندما علت أنفاسها، شخيرها والكوابيس.. امرأة متعبة طيلة النهار في عمل البيت الذي لم ينته، فجال ببصره صوب السماء وصرخ في داخله: يا رب إني لا أسألك درء الفقر، ولكني أسألك اللطف معه، فانعم على عبدك الفقير بكهرباء، وسرير، وزوجة لا تقل عن وهج الأمير.

****

وكانت أنفاسه تحاكي واقعه المرير وهو يصيح: قلبت ليلي وحيدا على نار ذكرى قائظة، واشتد بي الولع والوله، والحب والحنين، واللعب مع الصبايا الطائشين (وهج الأمير) ما زالت صورتها قائمة حتى في محرابي، كأني بها ممتدة معي على طول خارطة جسدي المترامية بثقل هم السنين وفوضى الحياة.
حاولت ان أسلُّ نفسي من أفكارها الصاخبة، كل حياتي باتت أرقة، ضائعة، تخطو بلا صواب، وتهفو بلا معنى.. مسكينة هذه النفس ما ان تمسك بخيط نجاة حتى يضيع آخر، وأحياناً تظل عالقة بلا خيط أمل أو بصيص نور.
حاول ان يوقظها ـ زوجته ـ بشدة بعدما شعر بسكون البنات في خيمة الليل الممتدة على كل الآفاق.
لكن ما ان لاحت يده ذلك الجسد الكسلان البارد كالموت، فزت احدى بناته صارخة مذعورة: جرذي.!
فرفع يده الى السماء صارخا: الجرذ يشاركني الحياة، أي ربّ ماذا صنعنا.؟ لكننا صنعنا الكثير.. وطأطأ رأسه للأسفل،

فخطف عن كثب جرذ آخر؛ وكانت القط تنظره مشفقة من حجمه الكبير وشكله المقزز.

****

بيوت عارية الى السماء، داعية بالرجاء، انثال عليها القحط والتقشف والكساد، عانت ويلات عقود مضت، وظنها بما هو آت أعظم.. لكن احمد بدموعه المنهالة، ضيع ليلة من إجازته دون ان يخفف إثقاله ويفرغ سمومه وأسماله، وهو يصرخ للعلى، ويشهق في الدعاء: ماذا جنينا.؟
ويلثم خد السماء وهو يتأمل حركة الشمس المتراجعة ببطء، فهي مازالت متعلقة في كبد السماء، رامت العلى وما انزوت عن مكانها ولا هبطت، لكنه مازال يُمني النفس: ان الليل آتٍ وان كان ثمة خوف قد طغى على صوته ولهجته، إذا كان جرذ قد ضيع ليلته الثمينة ورامه القلق.. فكل الليالي منذرة بهذا النزق.
وشق طريقه باحثا عن ليل، يجن فيه ويسكن خلوته مع حليلته، لكن ليالي الغدر بائنة طالما تلفعت بأثوابها السوداء الداكنة، انه الليل، كسبته الساسة، وأحجمت عن ثقله المساكين..
وهو يستصرخ الأفق: إذا ما سرقت ثمار إجازتي نهاراً، سأعتنق التيه، وابحث عن (وهج) ولو بالحلم، اسكن غيظ نفسي وفورة الحنين.. وان كان مثلها لا يروم مثلي، فهل تجالسني تحني شيبتي وتمّسدْ انحناءة ظهري، بالكاد وما زلت اشعر بنشاط الشباب وقوته، لكني لا أشم إلا رائحة المغيب والذبول.
مسرح الحياة مازال يعج بواقعه المرير، ونحن نلجأ للأساطير، ونخدع أنفسنا أننا أحياء؛ لكن في ذمة الفناء.

****

ينظر احمد للبيت ذاك الذي تتكالب عليه الورثة وتتمنى بيعه بأسرع ما يكون ولو بأقل من سعره الحقيقي المهم ان يدخل بيوت إخوانه وأخواته شيئا من العافية.. حتى ان رأي أمه العجوز القعيدة التي دائما ما تحرص ان تسعد بناتها ولو على حساب تعاسة ـ الذكور ـ ودائما ما تشن الخصومات في بيت لم يجد فيه متسعاً لبناء غرفة أخرى، ليختلي بها مع زوجته، مع نفسه بعيدا عن صراخ الأطفال وهذرة النساء، وان كانت المشكلة قائمة بشكل أو بآخر، فالكهرباء اساس المشكل، واصل الفوضى.. البيت منخر الجدران، متآكل السقف، أو قل: بيوت بلا سقوف.. في بيوت العالم تعشعش الطيور، وتزقزق العصافير والبلابل، وفي بيوت آخرين تعشعش الفئران والجرذان، سؤرها في كل مكان.. في قعر بيوتهم بيوت لكم هشة تلك البيوت التي تأكل الجرذ جدرانها الإسمنتية، وتشق لها أخاديد هجوم وانسحاب.. في بيت احمد يتكتك الجرذ، ووزير الإسكان والبلديات يعيقهم التصميم الأساسي لتوسيع المدن، فصارت بعض بيوتات الحي كطباق بيض بين مكسورة وفاسدة، وصارت العوائل تبات معاً على سقف واحد، قتلى في صور من المعركة؛ وكأنها إحياء عرض واحد.

****

في الليلة الثانية غمّ احمد كثيراً وركبه الإحباط، ارتفع عنده الضغط، بدا يشعر بصداع قوي كاد يصرخ منه، أحس بان شيئاً

ما يخنقه، يجثم على صدره.. سارع أحد إخوانـه بأخـذه للمركـز الصحي، فحص الطبيـب ضـغطه، ونبضـه، وحرارتـه، فـأخبره بصحة اعتقاده بارتفاع ضغط الدم، وانه ارتفاع نسبي، لكـن بمـا ان حالته النفسية كانت متعبة، شكل له الصداع المريع، فوصـف له أقراصاً مُدرة، وأشار عليه بتنـاول السـوائل لتسـهم فـي كثـرة التبول مما تخفف نسبة الأملاح.. وبينما كان يتكئ على أخيه في مشيه الى الصيدلية.. رآه أحـد أصـدقائه جـابر الصـيدلاني فبعـد سلام طويل وسؤال مستفيض عن وضعه وعمله، اختتمه دكتور جابر بالسؤال عن صحته.

فأخبره احمد:

ـ الضغط، كسّر أجنحتي.

ضحك الصيدلاني:

ـ مذ رأيتك وأنت بلا ضغط مضغوط.

ـ الفرق بيني وبينك أنت فطير لا هم ولا غم.

ـ وهل في الدنيا من يستحق ان أموت لأجله.؟

ـ الكثير.

ـ هذا أنت.. تموت كمداً من اجل كل شيء، وتغم على كل شيء، ولا أجد من يهتم لك او يصغي إليك.

ـ الحديث معك حديث عقيم.

ضحك الصيدلاني وكأنه يقول له العكس هو الصحيح، ومن حق الصداقة عليه ان ينصحه تلافياً لارتفاع ضغطه فأشار عليه:

ـ عليك بحبة منوم (فاليوم٢ملغم).

ـ ولكني لا أريد النوم.

ولسان حاله يصرخ: إني أريد الانفراد بزوجتـي، أمـارس حقـي عليها ولا أنسى حقها عليّ.

يرمقه الصيدلاني بابتسامة هادئة وكأنه يعرف ما يرمي إليه فخاطبه:
ـ حبة المنوم تهدأ لا أكثر، وفيها تسترخي أعصابك فيخف حدة الضغط عندك.
فهز احمد رأسه مستنكراً ذلك.
لكن عادل الأخ الأصغر تدخل:
ـ أعطني حبوب المنوم.
فسحب شيت أقراص الفاليوم وأعطاها لعادل.
وما ان اخذ حبة المنوم للاسترخاء وتهدئة الأعصاب، لم يشعر إلا بطلوع صباح جديد.. شاهد الشمس وهي تعتلي الأفق البعيد، أحس بانقراض إجازته ولم يحس أبداً بانقراض العمر، وهو طيلة فترة وجوده في العسكرية، يرقب اليوم تلو اليوم، ويسقط الساعات والدقائق، ليحفل بإجازته الدورية التي تلاشت ساعاتها دون ان يمس زوجته، ولو بقبلة.

((كم من شاعر هجا الوطن
وما استحى
عاد له دون لحى
ملتمس العذر انحنى
يبكي خيانات القوى))
"المؤلف"

نهار يوم جديد، حار قائظ، شمس عمودية تهدد بضربة منها قاصمة إذا ما لاحت رؤوساً فارغة آثمة، فلا فراغ إلا من فقر ولا إثم إلا منه، ينظر لزوجته وهي تركض بيد تعد الإفطار وأخرى تنشر الغسيل وتجمع الافرشة، وبناته نائمات حتى الضحى، كان في نيته أن يفتعل مشكلة ما، بسبب ومن غير سبب، ولو أن أهم الأسباب هو حرمانه المضاجعة، فرجع لعقله قليلا بعد طول تفكير، وبمرارة وجد أن الذنب ذنبه، أو ذنب الدنيا ضده، ونشرَ غسيل ذنوبه على الحكومة، ورفع يديه إلى السماء مزمجراً بصوت عالٍ أراد أن يسمع زوجته:
ـ أنا خصيمكم عند الله، وخصمكم يوم القيامة، والله منتصرا لي منكم غداً.
دنت زوجته منه، وهمست بإذنه:
ـ قلت لك رتب غرفة للبنات بدل هذا المطبخ الكسيف المملوء بالجرذ والوزغ.
فنهرها بصوته:
ـ امشي بنت الكلب.

****

كالعادة التقى صديقه وزميله النقيب (منشد حزام) عند صديقهما سيد فارس العطار في سوق العطارين في العشار.
سيد فارس العطار هو محط ركابهم ومنتدى لقائهم، تجمعهم أواصر صداقة متينة وعريقة، فقد كان يجمعهم أكثر من قاسم مشترك، إلا ان أهم هذه القواسم هي: السن، والوضع الاجتماعي المتقارب.. كما جمعتهم سنوات هجرة مريرة، سنوات عجاف، ما جعلتهم أصحاب خط واحد سياسياً، حتى أنماط تفكيرهم ما كانت لتتفاوت إلا بنسبة طفيفة، وأحيانا تكون معدومة التفاوت، بسبب ظروف المهجر وضيق المكان.. ان أجمل ما فيهم أنهم طيبون، بسطاء، ساخرون، صريحون إذا ما اجتمعوا ثلاثتهم، أصبحوا كتلة كونكريتية، تصمد في وجه أعتى الأعاصير.. وأنى للسواقي الضحلة ان تجرف الثوابت الشماء.
استقبلهم سيد فارس:
ـ أهلا بالسادة الضباط.
منشد ببساطته وطيبة قلبه.
ـ أهلا بك.
إلا احمد فهو يشعر ما وراء هذه الكلمة من سخرية، فالتزم الصمت تحاشيا للخوض في متاهة الحديث.
سيد فارس موجها كلامه إلى احمد:
ـ خير ما بك يا أبا البنات.
لا يخفى على احمد، ما يلوح به العطار، وكأنما أراد بإشارته إلى ضعف قلبه وولهه بالصبايا.
فأجابه احمد بمقولته المتكررة:
ـ لا يصلح العطار ما أفسده الدهر
فضحك منشد وهو يقول:

ـ أظن ان صاحبنا ضاقت به الأمكنة.
وأكمل العطار:
ـ لا.. وارتفع ضغطه كالعادة.
واحمد ساكت لا يدري ما يقول، فهذه الحالة ليست بالجديدة عليه، هي ذات المأساة دائمة التكرار فقال في نفسه: (ويقولون في التكرار فائدة.. أولاد الكلب) على هذه الأمثلة الجافة.
فصرخ عليه العطار:
ـ ما بك، تكلم.؟
احمد باستياء:
ـ ماذا أقول، فانتم تعرفون كل مشاكلي.
سكت قليلاً ثم أردف قائلاً: جئت هذه المرة مع فتاة من بغداد إلى البصرة.
انتبها إليه.. إلا أن (منشد) ضحك ضحكة فاترة:
ـ وعشقتها أليس كذلك..؟
ـ نظر إليه بازدراء:
ـ واعشق كل جميلات الدنيا.
العطار يقاطع هذه البجاحة الممجوجة:
ـ أكمل قصة الفتاة.
ـ لا ادري ماذا أقول، وكيف أوصفها، إذا قلت ملكة مليكات جمال العالم، اظني ما وفيت حقها.
يتعمد منشد استفزازه:
ـ ركبتْ معك، وعشقتك.
احمد يتذمر:
ـ لا.. تعشقني أنا.
ـ اطرب.

يتراجع احمد على كرسيه، وهو يشمر بكفه الأيمن، مكتفياً بالقول:
ـ إذا انتم قعدتم لي ركبة ونصف، فلا أحدثكم بعد اليوم.
لكن سيد فارس العطار ألح عليه، وحلف له بالإيمان الغليظة إن لا يقاطعه، وتعهد له بسكوت منشد والاستماع لهذه الحكاية الشيقة على ما يبدو.
فاعتلى احمد منبر الخطابة، وهو يحدثهم من طق طق للسلام عليكم مصحوبة بتأوهاته المستفيضة، وما أن انتهى من حكايته إذا تراجع صاحباه على كرسيهما يتنهدان من ثقل ما سمعا..
التفت إليه منشد قائلاً:
ـ بابا.. أنت كبير، مالك ولعب العيال.؟!
ألا إن سيد فارس العطار كان على خلاف صاحبه منشد، وهو يترنم بمقولته:
ـ إذا كنت لا تعشق فتلك مصيبة
وأن كنت تعشق فالمصيبة أعظم

****

في الطريق إلى بيت منشد حزام حيث دعاهما إلى مأدبة حافلة بوليمة كما صورها لهم، بعد أن ألح عليهما بقوله: لقد ذبحت لكم ذبيحة.
لكن سيدنا فارس تشكر منه متعذراً بعدم استطاعته ترك الدكان بسبب ارتباطه مع زبائن له يترددون في مثل هذا الوقت.
فاخذ بيد احمد إلى داره في حي الحسين، والتي كانت تسمى بمدينة البعث، ومن ثم مدينة الشعلة، وما زالت لكنها على الأغلب تسمى المدينة، شمال حي الحسين يفصلها حي المربع

المشهور بحي (السخول) ليس في المدينة ما يلفت الانتباه من التمدن بل هي أقرب للمستنقعات النائية منها للمدينة.! مستنقعات المياه الآسنة، وأكوام القمامة المنتشرة وطفح الصرف الصحي على شوارعها، والمطبات العميقة مثلها مثل الشارع العربي السياسي.

****

قبل أن يصل احمد وزميله منشد إلى البيت، وهما يمران على كسر من الكونكريت الموزع هنا وهناك التي أشبه ما تكون بالمعابر، كون أن الشارع غاطس بالمياه الآسنة لم يرق لأحمد هذا المشهد من الكسافة والجيفة وما تحمله من أمراض لإنساننا الذي يعاني الأمرين، وتساءل أين تلعب الأطفال.؟
وكيف يمكن للمريض أن يجتاز هذه الصخيرات، دون ان يسقط في هذا الفيض النتن بالمايكروبات والاخماج.
وما بالك إذا كان في هذه البيوت أعمى، هل يبقى حبيس البيت؟ وأين تقام مراسم الأعراس وكيف يدخل العريس بعروسته إلى بيته بثوبها الأبيض الهفهاف لربما تصطاد به السمك.؟ وتزحف المناسبات للشوارع الرئيسة المكتظة بالمارة والباعة والعجلات والمزابل.؟
التفت احمد إلى صاحبه بامتعاض شديد:
ـ إلا يوجد في هذه الديرة سياسي.؟
ـ أنا سياسي.
ـ أنت حمار.
منشد مبتسما:
ـ إذا كنت انا ما تزعم فأين أنت.؟

احمد باستياء رمقه بازورار عينيه دون أن يجيبه فاستطرد منشد كلامه:
ـ البلد كله سياسي، فهذا شهيد سياسي، وذاك محكوم سياسي، وذاك مفصول سياسي، والديمقراطية ُسيست الجميع.
احمد بالتفاتة باهتة:
ـ افهم يا غبي، أنا أعني من علا الكراسي.
ـ ها.. تعني من ركب القطار.
ـ الحقيقة، أعني من نزل من القطار.
ضحك منشد ضحكة صفراء تشبه أسنانه التي عشعش بها الجير، وسحب احمد إلى بيته.
دلف به إلى حجرة الاستقبال.. حجرة الضيوف حجرة متواضعة لبخت بالاسمنت ومن ثم دهنت بالطلاء الوردي.. مثلها مثل سائر البيوت الأخرى، وكلها أعدت بنفس الخارطة وعلى نفس المساحة، لكن ما أن يتمكن صاحب المنزل مادياً، إذ يحاول بناء حجرة أو أكثر في المساحة الفارغة المتبقية من البيت.
جال احمد بنظره في جدران الحجرة المغطاة بالصور العقائدية وتحف من سور القرآن الكريم المزججة، كانت خالية من الأرائك والكراسي، معتمدة على التكيات الفارسية والدواشك الأرضية، وفرشت بسجادة سورية رخيصة الثمن، وكانت تحتوي على معرض به تلفاز نوع (شونيك) مع ستلايت، ويعلو رفوف المعرض مجموعة بسيطة من الكتيبات، أما باقي الرفوف فمملوءة بالأقداح وأكواب الشاي.
لفت انتباه احمد شعرا من أليـاف حبال الحياكة المبعثر هنا وهناك في أرجاء الحجرة، فثاره فضول التساؤل:
ـ أما زلتم تحوكون الليف.؟
منشد بهدوء ذليل:

ـ العيش يتطلب ذلك.
ـ حتى بعد إن صرت ضابطا.؟
وما الذي تغير.؟
احمد يرمقه بغضب:
ـ تغير الكثير، الحمد لله تبدلت حالنا وتبدد الظلام.
منشد باستهجان:
ـ أما ساذج أنت، وأما مخادع.
استنكر احمد ذلك بعينيه، دون ينبس ببنت شفة.
فتابع منشد قوله:
ـ لا تنظرني هكذا، أنت تقول تبدلت حالنا، ما الذي تبدل، راتبنا أصبح مليون دينارا، وماذا يعني.؟
لأصحاب العوائل الكبيرة، وخاصة نحن المثقلون بالديون والاحتياجات الكثيرة، وان أكبر العقبات التي تعترض ازدهار حياتنا، هي إننا لا نملك في أوطاننا شبراً واحداً من الأرض، نحن سائرون بلا وطن، وثوار بلا قضية؛ ستلحقنا لعنة الأبناء إلى الأبد.
لم تكن معاناة احمد بأقل من معاناة منشد فكلاهما يتشاطران هذه المشكلة العويصة والمستديمة التي يشاطرهم أكثر أبناء الشعب بها.
وحبس احمد أنفاسه وهو يتساءل مع نفسه: إذا كان راتبنا قرابة المليون ديناراً، ولم نستطع أن نشتري قطعة ارض؛ فكيف بمن لا يدخله ربع هذا المبلغ.؟
عم السكوت، بينما كان الأطفال يتصايحون في الحجرة الأخرى.. وثمة صياح حد الصراخ كان يغور في داخلهما، كانت عيونهما فضاحة بهذا الغول المتوحش الراغب بالحياة،

والمصر على أن لا يطلب المستحيل، بل يطلب إحدى حقوقه المشروعة ليس إلا.
لم يكن في الحجرة سوى صوت التلفاز على قناة الأنوار حيث كان الشيخ الإبراهيمي يصدع بمقولة أمير المؤمنين عليه السلام: ((الله الله بالأيتام الله الله بالفقراء أشركوهم في معايشكم)).
ضحك احمد حد البكاء، وهو ينظر إلى صاحبه منشد يهز بيديه ويقلب جيوب بنطلونه الفارغة وهو يقول:
ـ الله يعطيهم.
ـ وما إن هدأ احمد من ضحكه حتى قال متسائلاً:
ـ رزق واحد على واحد والكل على الله.
ـ وما الجديد.؟
ـ المفروض نحن من نعطي..
فقاطعه منشد ساخراً:
ـ إلى متى ونحن نعطي ونعطي، والحكومة تتفرج، متى يأتي دورها بالعطاء، يكفي أننا أعطينا أعمارنا، بالمقابل نحن لا نملك عشر معشار ما تملكه الساسة.
احمد ممتعضا: رجعنا على نفس القوانة المشروخة.
منشد مستغربا:
ـ منذ متى وأنت تدافع عن الحكومة، اقتنعت بعد أن صرت ضابطا..ها.؟
احمد بضحكة جافة:
ـ أنت تعرفني جيدا أنا أكثر المتضررين من الحكومة والحزب، لكنك تخلط الأوراق.
ـ كيف، بصرني.
احمد يشمر بيديه ثم يضع يمينه على وجهه قائلاً:

ـ الآن أنـت تقـول عنـدك ذبيحـة هـل وزعـت شـيئا منهـا علـى الفقراء، الجيران، الأقارب.؟
ـ لا.. لأن أهلي أحق بها.
احمد مستسلما قطعا للجدل العقيم:
ـ لربما أنت على حق.

****

علا صوت المؤذن لأذان الظهر.. منشد اخذ بيد احمد للوضوء.. لكن احمد اخبره: بأنه متوضأ.
تساءل منشد:
ـ منذ متى..؟
ـ منذ خروجي من البيت.
ـ قبل ثلاث، أو أربع ساعات.!
ـ تقريباً.
منشد ضاحكا:
ـ وما زلت محافظاً عليه.؟
احمد يدرك ما يرمي إليه صاحبه:
ـ نعم ما زلت محافظاً على وضوئي.
منشد ممازحا:
ـ الحقيقة هذا إن دل فإنما يدل على إن أنك مازلت باكراً.
احمد باسماً:
ـ أنت لعين.
قامـا للصـلاة.. منشـد وهـو متوجـه للقبلـة كـان يرمـق صـاحبه بطرف عينيه وهو يقول بصوت فاتر:
ـ ابن الكلب ما عندك بواسير، قولون، فلتان، بعدك (صرمهر).

وكان احمد يجيبه بابتسامة عريضة، ما كانت لتنفك عن وجهه طيلة فترة الصلاة.

مدت السفرة وجيء بالغداء، فكان الغداء دجاجاً على رز، فاستغرب احمد ذلك متسائلاً:

ـ أين الذبيحة.؟

ـ أمامك.

ـ ولكنك قلت ذبيحة.

منشد ينظر برفع حاجبيه:

ـ وهل تؤكل الدجاجة بدون ذبح.. وبالتالي هذا دجاج عرب.

احمد ساخراً:

ـ خير يا طير، ودجاج العرب على رأسه ريشة.

ـ غبي طبعاً، على رأسه ريشة، وهل على رأسه صوف.؟!

الكلاب تنبح والقطار يسير

تمر الأيام سريعا كانقشاع سحب الصيف.. كان الجو رطبا حاراً تضيق به الروح وتشهق النفس ويلاً وثبوراً.. الأجواء كلها تنذر بالهلاك.. جفاف مياه نهري دجلة والفرات بإغلاق رافديه المتعمد.. اشتداد ملوحة مياه شط العرب لأكثر من سبب وسبب، احتباس المطر.. التقاء المبازل والصرف الصحي مع الأنهر التي أعلنت إفلاسها، وعلتها رواسب الطين والرمل.. بلد السواد، أعلن الحداد؛ بعدما صارت مياهه أغلى من الوقود.

التقى الصديقان احمد ومنشد في محطة القطار بالمعقل، كان في العادة يلتقيان عند ساحة سعد مرآب البصرة الموحد.

فهذه المرة الأولى التي يركبان القطار.. اعتقد احمد بأن القطار هو واسطة النقل الاكثر اماناً من السيارات الحديثة التي تسير أكثر من (١٦٠) كم بالساعة أحياناً.

محطة المعقل هي ذات المحطة منذ نشأة السكك الحديدية في البصرة.. شهدت أكثر من حرب وأكثر من كارثة، واختلف بها القطار من مرحلة إلى مرحلة انتهت بالقطار الفرنسي، منذ انطلاق الرحلات عام ٢٠٠٨ وهي تشهد تدهوراً ملحوظاً، فالعناية بها لا تفرق كثيراً عن العناية بالمرافق السياحية والمرافق العامة الأخرى.. لعنة الكهرباء طالت كل المرافق الحيوية.. محطة المعقل للسكك الحديدية تعتمد على مولدة

صغيرة عند الدخول أمام دكة الاستعلامات للتفتيش الروتيني، وما إن تلج في المحطة فإنك بالكاد ترى القطار بسبب الظلمة التي تخيم على أجواء المحطة.
وما إن تدلف للمصلى فأنك لا ترى بياض يديك، فيعمد كل من يدخل المصلى لإشغال إنارة جهازه النقال ليتمكن من التنقل بحرية.. أما إذا حاولت الولوج إلى المرافق الصحية، فأنك تصطدم بعلب المياه البلاستيكية الفارغة التي تملأ المكان، ناهيك عن النجاسات المتراكمة هنا وهناك، المشكل الرئيس أن شحة المياه مصداق لما تراه، بما في ذلك الإهمال الدائم وانعدام الإدامة بالكامل، مع ما تتمتع بها المحطة من موارد مالية كبيرة.

****

ركب الصديقان في القطار العربة السياحية، عربة متربة مغبرة لم يستطيعا الجلوس على مقاعدها البلاستيكية المغطاة بالتراب
احمد ينظر بوجه صاحبه مستغرباً:
ـ أيحمل هذا بشرا أم ترابا.
منشد ساخرا:
ـ هذا القطار وفيٌ يحمل معه تراب الوطن.
ضحك احمد ضحكة عاجز متذمر.. اخرج منشفته من حقيبته ومسح المقعدين له ولصاحبه.. نظر للمنشفة وقد تغير لونها، فتح النافذة لرميها، لكن منشد صرخ به:
ـ لا ترميها، انه مجرد تراب لا أكثر، وتراب طاهر قد طهر المنشفة.!
اشتد احمد غيظا من سخرية صاحبه الفجة والممجوجة:

ـ هل طهرها من ولوغ الكلب.
ـ أنت رجل متبطر، أعطني المنشفة.
فرماها احمد عليه، دون أن يكلمه.

****

الركاب يصعدون للقطار منهم من يدقق أرقامه مع أرقام المقاعد وآخرون يتجولون بين العربات بحثاً عن معارف.
وإذا برجل معه امرأة ثلاثينية العمر وبنت لا تتجاوز العشرين ربيعاً على ما يبدو، نظر لرقمي المقاعد التي كانت قبال احمد وصديقه، سلم الرجل، فرد منشد عليه السلام، بينما كان احمد مشدوهاً بسحر المرأة التي ترتدي العباءة الإسلامية والفتاة السافرة التي ترتدي البنطلون الكابوي الأسود الفاتح على (تي شيرت) الوردي.
الرجل بهدوء:
ـ هل بالإمكان أن ائتمنكم على أختي وبنتها.؟
منشد برحابة:
ـ نُعم مَن ائتمنت.
احمد مستفسراً:
ـ وأنت.؟
الرجل بسكينة:
ـ أنا اسكن هنا، ولا أستطيع السفر، أما أختي فهي تسكن في بغداد وكانت بضيافتي، وهي اليوم تعود لبيتها.
ـ لا بأس، اذهب رافقتك السلامة.
هذا ما قاله منشد، أما احمد فأجابه بلوعة وشجن:
ـ كن مطمئنا، سنوصلها حد بيتها، إذا شاءت ذلك.

ودع الرجل أخته وبنتها، وكذلك صافح احمد ومنشد امتنانا منه لهما، ورحل.

****

انطلق القطار بلا هوادة، وعلت زئطة الاحتكاك وعربدة العربات المفككة، وجال ساعي العربة طولا وعرضا ينادي: الطعام، وهو عبارة عن كيكة واحدة وعلبة عصير وقنينة ماء، التي لا تزيد قيمتها على خمسمائة ديناراً.. على طريقة الغرب: اخدم نفسك بنفسك، قام منشد واخذ البطاقة الخاصة بالطعام من الأم وابنتها كما كان في جيبه بطاقة صاحبه احمد، فذهب واستلم المواد، وقام بتوزيعها على طريقته الضاحكة.. أعطى أربع قناني ماء إلى البنت (نداء) وسلم الأم (بشرى الضاحي) أربع علب من العصير، واحتفظ لنفسه بالكيك.
ضحكت الأم قائلة:
ـ وصاحبك.؟!
منشد بسرعته المعهودة قبل ان يفلت الجواب منه:
ـ انه ليس بصاحبي.
بينما علا الاستغراب وجه بشرى، كانت نداء تنظر بهدوء، كان على وجه احمد ابتسامة فاترة، فأردف منشد:
ـ انظروا، فتح حقيبة سوداء كانت تحت كرسيه واخرج منها كيس نايلون فتحه ثم استخرج لفافة كبيرة ملفوفة بجريدة، كشف عن الجريدة شيئاً فشيئاً فاخرج دجاجة مشوية، وكيس صغير من الطرشي الناشف، وكيس آخر به خبز بيت موشى بالسمسم.
وقال متعمداً إغاظة صاحبه:

ـ انظروا لدجاج العرب التي جلبها احمد معه وأخفاها لحين نومنا ليلتهمها خلسةً وحده.
احمد بازدراء: أريد اعرف ما مشكلتك مع دجاج العرب.
منشد بنوع من الدلال والغنج غير اللائق:
ـ أحبه يا أخي.
كانت الأم بشرى لا تفارق وجهها الابتسامة، بينما كانت البنت نداء عازفة عن التعليق وردود الفعل ما عدا نظرات مبعثرة تجول في مكان ضيق الأفق.
إما ما يدور في خلد احمد من فكرة فهي لا تقل من استقباح واستهجان لتصرف صاحبه المتطفل، لكنه كان يخجل من ان يبدي رد فعل مغايرة قد تحرج صاحبه، خاصة ان منشد مرهف الحس يجرحه أي خدش وان كان بسيطاً، ولكم تمنى احمد ان يسكت صاحبه بعد ان بدأ يهذرم بأقواله ويثني على نفسه وصاحبه بخصال ونعوت حقيقية وأخرى افتعالية.. وبدون استئذان سحب منشد حقيبة الملابس العائدة له ولصاحبه ورصهما مع بعض ولم يكتف بذلك فقد تناوش حقيبة البنات ووضعها أعلاهما وفرش منشفة احمد على الحقيبة وبدأ يعزم على الأم وبنتها بالطعام.. وصرخ بصاحبه:
ـ اقترب، ما بك، أتستحي.؟!
اعتذرت الأم عنها وعن بنتها التي ما زالت متطرفة نائية بعيداً مع نفسها، لكن دون جدوى فإلحاح منشد وإصراره بعزيمتهما قاوم كل امتناع.
فأدركت الأم ان لا جدوى من الامتناع، ولتأكل ولو على حساب المجاملة، فلا يرد الكريم إلا البخيل.

واقتربت الأم للطعام، واقترب عندها احمد الذي لا يجد بداً من ذلك، بينما كانت نداء بعيدة بفكرها ونظرها الذي يجول في ظلمة المكان.
فواتت احمد فكرة فقطع الفخذ وقدمه إليها.
نداء على استحياء:
ـ لا.. لا شكراً.
لكن احمد بقى مصراً وهو ممسكاً بفخذ الدجاجة نحوها قائلاً:
ـ لا خيار أمامك، إما تقبلي الفخذ أو تقبلي الصدر.
منشد بفضوله المعهود:
ـ كلي، إنها شهية وطعمها لا يقاوم.
فمدت يدها بروية وأخذت فخذ الدجاجة.. فأسرع احمد جالباً لها بالخبز وقطع من الطرشي.
باشروا بالأكل بهدوء خال من الكلام مشوب باصطراع داخلي، فالبنت والأم يتنافسان بالجمال أيهن تفوز بلقب الملكة.. الأم ست وثلاثون عاماً وكأنها بنت اليوم، والبنت بنت العشرين ربيعاً، جميلةً لونا ولغة وملبسا.. لباسها يوافق حرارة الجو الذي لم يترك لها إلا ان تنزع غلالة النهدين فتتركهما نهدين طليقين يلعبان تحت (قميص) حريري وردي اللون قد ترك مصممه مساحة لتنفس النهدين في مثل هذا الوقت من القيظ، بينما تلفعت الأم بجبة سوداء وحجاب بنفسجي فاتح اللون ذا كسرات متساوية موشى بفصوص بلورية بيضاء اللون، وهي لم تكشف عما تحت الجبة من خفايا لكونها فضفاضة ضيعت معالم جسم وجهه كشقة البدر، فضلاً عما يعلوه من ابتسامة طفولية صارخة وعينين عسليتين واسعتين كسعة البحر أو هي اكبر لما يغور في داخلها من ضياء وأشعة ساحرة ما كان احمد ليضمد جرحاً حتى ينزف جرح آخر.. حار بأيهن ازداد افتتاناً،

فالصغيرة لا تعدو ان تكون لعوباً مدللة، إذ لم تكن على علاقة مع شخص ما، فقد يكون بانتظارها عشرات العلاقات.. لما تتحلى به من غنج وخفة دم وجمال أخاذ.
أم ينظر للام تلك المرأة الحسناء بلا تصنع، والجميلة بلا تجمل، لا هي بالكبيرة الخشناء، ولا الناعمة الذائبة، في صمتها كلام، وفي لفظها وئام تعلو وجهها سحنة حزن ملفع بالكبرياء وبرقة بياض وومضة اعتراض، لاهي بالغافلة الجاهلة ولاهي بالمتشببة اللاعبة، هندامها يناسب سنها، وسنها يناسب الأجيال.
شاح احمد بنظره بعيداً، ثم لوى على صاحبه يرمقه خلسة.. طالما كان منشد لا ينشد إتباع هوى النساء، وليس بميال للعشق، فقد اكتفى بزوجة شريكة صبرت عليه وصبر عليها، وكان دائما ما يعلق على أولئك المتشببين الذين يقعدون لحكايا النساء والمتعة الجنسية بقوله:(يا ليت لي القدرة على الإيفاء بحق زوجتي، فانا قاصر مقصر بحقها وحق أطفالي).
ـ ماذا يدور في خلده في هذه الساعة.؟
هكذا كان احمد يجاري نفسه متسائلا:(ماذا لو اقتسمنا هذين المرأتين) هل سيرضى بالكبيرة، خاصة وهو يطيل النظر بها متمعنا بهذا التكوين الملائكي الذي نزل على كل كيانه، وانساب مع مشاعره، وتدفق مع سريان دمه.
وعاد احمد من تساؤلاته عن حال صاحبه الذي مازال رازحا تحت وطأة جذب مغناطيسي ألزمه الصمت والانزواء بعيدا في عالم من الدهشة والتباريح، وهو ينظر لحاله الذي طالما كان تواقا للعب مع امرأة أخرى، أية لعبة حب، متعة، خداع، صراع، شكوى أنين، فيض حنين؛ المهم ان يكون مع امرأة ناضجة تنتشله من الحرمان.. فان كان ثمة شعور يشعره بالضياع هو بقاؤه على حاله العادية بالرتابة والروتين، وان

التفت على نفسه إذا ما صحا، وجد نفسه بعيداً تائهاً بلا عشق.. ورجع يندب حظه العاثر ويفكر جادا بالبحث عن امرأة تملأ عليه وحشة الحياة وفراغ القلب.
وعند نفسه انه أعطى الكثير لعائلته على خلاف صديقه منشد الذي يقر بتقصيره ويلوح بفشله.
وعلى الجانب الآخر، كانت الأم بين نارين، تتكوى بنار بنتها المراهقة التي نذرت حياتها لها ودفعت كل سنين عمرها ضريبة لنشأتها نشأة صالحة وحطمت كل أصنام الأماني لئلا تجرفها بعيدا عن قيمها ومبادئها السامية النبيلة، ونار أخرى هي الحظوة الأخيرة برجلين معا في آن واحد يحق لها أن تختار من تريد بعد أن سيطر سحرها على كليهما، فلربما يكون احدهما نافعا راغبا بالزواج، داخلا عليها بما أحله الله واقره العرف، ربما هذا الرجل ـ تشير إلى منشد ـ هو افضل من صاحبه، كونه يستطيع حبك الحديث، ويجامل بالكلام، وبالتالي فحتى لهجته لم تعدو روح البساطة والمحبة والفقر التي يتحلى بها أبناء الريف.
ولان احمد كان قليل الكلام، فالمرء مخبوء بين طي لسانه، لربما كان هو الأفضل فهو إلى حد ما متزن أو بالأحرى متدين يمنعه دينه من اللغط والثرثرة الفارغة، لعله يرى حرمة ما في الحديث مع الأجنبية.. لكن ما إن أطالت النظر به، وجدته غارقا في هيامه، يسبح في لواعجه، لصاً خبيثا يختلس النظر إلى بنتها نداء.
بينما كانت نداء لا يبارح نظرها ظلمة الخارج، فهي تطل إلى لوحة رسمتها فرشاة مصور بديع، عتمة سكون ليل حزين اقر على نفسه بالانصياع لإرادة المشيئة، وان يجمع الأحبة تحت لحافه العريض.

سكرت نداء بصمت الأشياء، وما تحف بها من مخاطر الحياة الصاخبة التي تنتظرها، فتاة فاتنة يتيمة الأب، وحيدة متغربة، يورقها جفاء الأقارب، وتعذبها دناءة الأدعياء والأطماع، فتضحك كاتمة النشيج وحابسة الكهكهة عندما تجد في عيني هذين الرجلين حياء العاشقين وصمت الراجين على خلاف صوت القطار الذي يبوح بسره للحديد ليسمع القريب والبعيد، فانه عاشق الوصول وكاره المكوث والانكسار والذبول.

لم يرق منشد هذا المشهد الأخرس الصماء فصاح بصوت جهوري:

ـ رحم الله من قرأ الفاتحة:

انتبه الجميع وكانت بشرى أول متسائل:

ـ لمن.؟

ضحك احمد ضحكة انفرجت عن أساريره قائلا:

ـ إنها مزحة لكسر الصمت.

ـ توقعت إلى روح زوجي.

هكذا أطلقت الأم عنان الحديث.

فنظرتها نداء باستهجان، وكأنها تومئ إلى أمها بالقصد والتعمد، أطلقتها مع سبق الإصرار والترصد.

ولأن منشداً كان جالسا قبال الأم.. بدا يسألها عن وفاة زوجها متى وكيف؟ ومن يعيل العائلة حاليا.؟ وكم طفلا عندها..؟

كانت بشرى تجيبه بحذر مخافة ان يبدر منها ما يسيء الظن بها، خاصة ان هذا الشخص لم يتعد كونه راكباً يسايرها مسافة الطريق.

بينما كان احمد مغتماً وهو يرى نداء عابسة متجهمة مستاءة، غير راضية لتصرف والدتها الذي بدا هادئاً ومتحفظاً.. وتذكر وقتها ان لابد من المجازفة ـ فقد فاز في اللذات من كان جسورا

ـ لكن جرح (وهج الأمير) ما زال رطباً لم يجف بعد.. لكنه قوّى نفسه وجمد أعصابه، ولا بد من ان يثأر لنفسه فلا أحد بإمكانه ان يرد عليه كرامته سوى صوته وإصراره، فأدلى بدلوه متسائلاً:

ـ أراك متجهمة.!

عيناها للأرض:

ـ لا.. مجرد إعياء.

ـ سبب السفر.؟

ـ تقريباً.

ـ لربما تركتِ عزيزاً.؟

أحست نداء بما يروم الوصول إليه، ومما يقصده من خلال استجوابه وأحبت ان تقطع الخبر، ففكرت الامتناع عن مكالمته، وان كان إخلالاً باللياقة، وليس من العدل ان تبادر بالقطيعة دون يبدر منه ما يخل بأدب الحوار.

وبين صمتها البين، تدارك احمد الموقف، تلبية منه لنداء القلب:

ـ أنا أسف، لم اقصد الإساءة.

ـ لا باس عليك، أنا جد آسفة، فانا متعبة ومحبطة دون ان أجد سبباً لذلك.

ـ بإمكاني مساعدتك، إذا ما فضفضت بالحديث.

ـ هل تعتقد بالكلام تحل العقد.

ـ بلى وربي، حتى ان الله قال: ادعوني استجب لكم.. واسألوا الله من فضله.

انتبهت الأم لمعرض حديثه، فأصابها الذهول.. ونظرته بنظرة طويلة صامتة، بينما علقت نداء على قوله:

ـ أنت إسلامي.؟

ضحك احمد ضحكة مشوبة بالاستهزاء لسؤالها وهو يفرك بذقنه الذي حُبِب من حلاقة الموسى المستمرة، قائلا:
ـ أنا مسلم، محمدي الهوى، لست بالمتشدد المتطرف ولا بالمداهن المنافق.
أعجبها حديثة، لكنها تبحث عن مكامن صدقه، متسائلة:
ـ ما رأيك فيَّ..
يهز رأسه هزة خفيفة وكأنه يرد على سؤالها بسؤال يطالبها التحديد.
فأردفت قائلة:
ـ بملابسي، مكياجي، شكلي.؟
ـ إذا كنت تعنين ملابسك محتشمة أم فاضحة، فأقول لا غبار على ذوقك فملابسك جميلة بغض النظر عن كونها مقبولة دينياً أو خلافه، إما مكياجك، فأنت بنت ومن حقك ان تبرزي جمالك بشكل من الأشكال، إما شكلك فأنت ما شاء الله كان ولم يشأ يكن مبهرة.
فالتفتت إليه أمها بشرى التفاتة حنق وغيظ.. إلا انه استطرد كلامه:
ـ لكن أمك تفوقك حسناً وجمالا.
فهدأت بشرى هدوءاً حذراً، وكأنها سمعت ببشارة جيدة، بينما تراجعت نداء بظهرها على المقعد واسترخت قليلاً.
إلا منشد فهو الوحيد الذي راح يرمق صاحبه رمقة استهجان واستنكار، وهو يقول في نفسه: (ما افدحك من كاذب).

****

توقف القطار بدون محطة، انه العراء في الصحراء ما بين البصرة والناصرية، كان في ود احمد ان يتوقف لمدة سنة أو أكثر المهم انه بدا يلمس انجازاته، مدى تأثير كلامه المتأني.. وردود فعل فتاته الجميلة التي راحت تبرق بابتسامات عريضة ساخنة سخونة صيف البصرة وصحراء الناصرية.
علت ضجة هنا وهناك بعيون متسائلة، أصوات مستغربة: من أوقف القطار بهذه الصحراء القاحلة.؟ فلم يعهد الركاب سابقاً ـ خاصة المترددين منهم ـ ان توقف القطار في مثل هذا المكان؛ أنها حالة استثنائية.. أعاذنا الله من شر المفاجئات السيئة.
الأصوات لم تهدأ، وبدت تتزايد حتى من اسلم نفسه للنعاس، باغته إحساس خطير غشته لحظات مفترسة بالخوف واليأس.
خاصة ان حركة رجال الأمن الحثيثة بدت تزيد المخاوف على الرغم من تطمينهم للركاب بان الأمر مجرد خلل بسيط سيتم تلافيه بالسرعة الممكنة..
بين الركاب رجل خمسيني العمر كان بإزاء منشد لم يكترث لما حدث وهو ممدد قدميه على الكرسي الذي قباله، يجر أنفاساً طويلة من سيجارته وينفخ بدخانه على شكل دوائر غير منتظمة، يهز بيديه كأنه متحدّ ما يحدث، غير آبه بما ينتظره من خطر، خاصة بعد ازدياد الجلبة.. بدا الإجماع على التسليب.
ـ الإرهابيون يسلبون القطار.
ـ العصابات تنتهز الفرصة.
ـ البطالة ينتقمون من الحكومة.
كان الرجل يضحك بشدة وهو يسمع لهذا اللغط الممجوج، وهو يجيب عن تساؤلاتهم المتكررة.
ـ البطالة هم الفقراء، لو كان عندهم حظ لوفقوا في العمل.
بينما كان منشد يستمع له ضاحكاً:

ـ وهل الإرهابيون أغبياء ليتعرضوا لركاب قطار من الدرجة الثالثة، وانى للعصابات من الإمكانيات في التصادم مع ركاب قطار أعدادهم بالمئات، بما في ذلك الشرطة والأمن السري و..و..؟!
فرجع الرجل الى منشد وهو يجر بقدميه من الكرسي الأخر قائلاً:
ـ أخي العزيز، انه لا يزيد عن عطل، وهذا طالما يحدث.
منشد مستفسراً:
ـ الحق أني أول مرة اركب (الريل) فهل يعطل دائماً.
ـ عشرات المرات وقبل رحلتين، جئنا للمحطة فكان القطار مظلماً، ونادى المنادي ان أيها العير اركبوا، فاعترضنا بشدة، كيف نركب في حافلة عسعس بها الظلام وخيم عليها شبح الخوف، وطالبنا مسؤول المحطة بالمجيء والتفاهم معه، فقال المسكين: لا يوجد لدينا ما يكفي من الوقود ونحن مضطرون للمسير، فتحملوا الظلام لتصلوا الى أعمالكم.
فصرخ بوجهه رجل عجوز: لو أنها عربة كلاب، أو أغنام لاحتاجوا الى الإنارة والتبريد، فكيف بالبشر؛ وعمت الفوضى بالمحطة، فشغل الإنارة، واعتذر عن التبريد.
وثب احمد من مكانه قائلاً:
ـ أين إذن ما يدعيه وزير النقل والمواصلات عن قطار العمر.
الرجل ساخراً:
ـ انه ذات القطار الذي جاء بأسياده.
فنظر منشد الى احمد مازحاً، وبصوت خفيض:
ـ انه يمسنا بالكلام، أليس كذلك.؟
احمد بذات المزحة والابتسامة تعلو محياه:
ـ أكلْ عسل.. نحن جئنا على الحمير.

لم يشعروا إلا والقطار يتحرك لكن هذه المرة يتحرك للخلف
بشرى الام: الحمد لله واصل القطار مسيره.
نداء: ولكني أحس بان القطار يسير الى الخلف.
منشد هُزءاً بخوف:
ـ هل أصابه العمى يرجع للخلف.
احمد مؤكداً:
ـ فعلاً انه يسير للخلف، ثمة أمر مريب.
بشرى: تعني سيطر عليه الإرهاب.
الرجل: استهدي بالله يا امرأة الخير، يبدو ان إحدى العربات قد فلتت من القطار وسيلحق بها.
منشد، ضاحكاً باستمراء:
ـ عربة فلتت من القطار، هل حدث هذا سابقاً.
الرجل بهدوء:
ـ نعم حدث ذات مرة ان فلتت عربة ورجع وراءها القهقرى، وسحبها وانطلق يجر أذيال الخيبة.
احمد يهز بيده مستهزءاً:
ـ إذا كان حقاً ما تقول فقرت عينك وزير النقل.
إلا ان الرجل أكمل ما بدأه صاحبه، بقوله:
ـ إنها وزارات عارية بلا إزار يكسوها، فماذا عند وزير النقل، القطار وهذا شأنه وديدنه، والنقل البحري والنهري قرابة ألفي موظف بلا وظيفة، إما أسطولنا الجوي، فالحمد لله ما زال يحبو، فالمطارات تملا البلد بلا طائرات، ولو إني لم أتشرف بركوب الطائرة، لكني لا اعتقد بأنها أفضل حالاً من قطار الفلتة.

ضحك الجميع، حتى الذين كانوا بجواره وهم يستمعون إليه، وعندما فات أحد رجال الشرطة الذي كان يمسك بهراوته، مسكه منشد من ذراعه، فتوقف الشرطي متهكماً: ما بك.؟
منشد بنوع من المزاح المصطنع:
ـ لا تسألني ما بي، بل أخبرني ما بك.؟
الشرطي: القطار.؟
هز منشد رأسه بالإيجاب.
الشرطي: فلتت عربة.
فضحك الرجل ضحكة عالية ساخرة.
فنظر له الشرطي بازدراء وعبس:
ـ ما بك.؟
الرجل: لا شيء، سلامتك.
فانصرف الشرطي متذمراً يهذي مع نفسه ويلعن.
استرجع الكل قواه: منهم من استرخى، ومنهم من نام.. إلا احمد التفت الى شغله الشاغل، نداء وبصوت علته الحنية:
ـ هل أنت خائفة.؟
ـ الخوف شيء طبيعي في مثل هذه المواقف.
ـ أكيد، أصلاً ان السفر كيفما كان فهو منغمسٌ بالخوف من المفاجئات غير المحمودة.
توقفت نداء عن مواصلة الحديث معه بعدما طالته بنظرات فاحصة تنم عن ألف سؤال وسؤال.
لكن احمد سارع قبل ان يطبق فك الزمن المفترس ويلتهم الوقت الثمين.. مغيراً نمط الحديث الروتيني، إلى حديث أكثر جدية، بقوله: ها أنت طالبة.؟
اجابته بزفرة نافرة:
ـ هاربة منها ولاعبة.!

ـ غريب.. كيف ذاك.؟
بحكمة متطرفة:
ـ طالما أن المرأة مملوكة للرجل، فلا خير بكل ما تملك من شهادات وحصانة فكرية، وغير ذلك أن واقعنا لا يقيمنا على حساب ما نملكه من رصيد ثقافي، بمقدار ما تكون أنسابنا وصلاتنا بأحزاب الدولة.
كان منشد حيث هو يسترق السمع لصوتها المحبط، وأن كان على سيء من الصحة، فتداخل على خجل من صاحبه مخافة أن يفسد عليه الحديث:
ـ صدقيني أن الدراسة بكل مصاديقها هي ضمان لك من الفشل، وخطوة للرقي، وحظوة وجاه.
نداء بتذمر، وفرض رأي:
ـ آلاف المتخرجين سنوياً بلا أعمال، أو أنهم يمارسون أعمال دون المستوى، لا تساوي معشار ما بذلوه من جهد وتعب في التعليم.
أحمد في محاولة لرأب الصدع:
ـ هذا لا يعني الهروب من الدراسة، سيأتي الوقت الذي تنفرج به جل المشاكل العالقة، وللمتعلم النصيب الأوفر في النجاح منه لغيره.
ـ أنا ممن لا يروقها التبريرات الساذجة والآمال المسوفة والتعليلات المفبركة.
في محاولة ثانية للإفلات من هذا الحديث العقيم، دلف احمد في مدخل آخر بقوله:
ـ حسب علمي وخبرتي بالحياة، أجدك تعبرين عن نقص ما أو حرمان.

بمـاذا يتوقـع ان تجيبـه، بعـد ان صـرفت النظـر عنـه وتبعثـرت نظراتها بين صورة أمهـا المهشـمة الـروح، وبـين نافـذة الظـلام التي تطل على الخلاء.
فعاد الى نفسه لا يدري كيف يتدارك الوضع، فهو لا يملك سوى الاعتـذار ومـن بعـده الصـمت أو الاستسـلام الـى نـوم متذبـذب تصرخ به زئطة الحديد والعربات المفككة التي بدأت بالانفكاك، فعـدل عـن قـراره بالاعتـذار الـى سـؤال آخـر لربمـا هـو نهايـة البداية، فاقترب منها وبصوت هادئ:
ـ هل أنت مرتبطة.
علتها بسمة وضحكة فاترة، كشرت بها عـن أسـنانها المتراصـة البيضـاء.. وبعثرت سؤاله بنظرات لم يقو على ترجمانها بـالرغم من ادعائه الـدائم بـالخبرة الطويلـة، فوجـد نفسـه تائهـا فـي نفـق مسدود، وعلى الرغم مما تلقاه من ضربات موجعة، أحجـم عـن السكوت، وأصر على مواصلة المشوار رغـم مـا يعترضـه مـن مطبات وعراقيل.
بعد ان انتـزع الخـوف مـن نفسـه والخجـل، وهـو مـازال يتـذكر (وهج الأمير) وما سببته من الم، فهل سـيحظى بـنفس الضـربة، أو انه سيتصدى لها، ويكون هو الفـائز، لكـن هـل ثمـة اخـتلاف بين الفتاتين، لكنه لـم يـر مـا يمكـن ان يسـميه اختلافـاً، غيـر ان الأولى كانت قوية عابثة ابتغت الحديث تمضية لوقـت الطريـق، على خلاف الثانية التي كانت منكسرة صـامتة صـمت الضـعفاء الحاقدين.
فسارع احمد وكله أمل ان يلقي بشباكه الأخيرة لعله ينـال بعـض لألئ بحرها الصاخب بقوله:
ـ حدثيني عن نفسك.
وبنظرة كلها رحمة:

ـ لا أظنك تود سماع ما لا أطيق البوح به.!

****

الزئطـة متصـاعدة واحتكـاك الحديـد بـدا يجلـب الملـل.. منشـد يتساءل: هل كل قطارات العالم هكذا.؟
مـرّ علـى ذهنـه شـريط فلـم وثـائقي يصـور قطـارات بومبـاي، الواقف أكثر من الجالس، كل عشـر دقـائق ينطلـق قطـار، أكثـر من بضعة ألف عامل في محطـة سكك الحديـد، بالمقابـل قطـار واحد ينطلق من البصرة الى بغداد ومثله العكس دون ان يحظـى بأية عناية، قطار عفا عليه الدهر، مثل القطار في بلدي مثل كـل القرارات الجافة، مثل كل فقاعـة إعلاميـة يصـرح بهـا مسـؤول للاستهلاك المحلي والدعاية الانتخابية.
كان منشد يترحم على بومباي الهند وعلى مهندسيها المعمـاريين الذين صـاروا يضـاهون أفضـل معمـاري العـالم.. لأنهـم أرادوا لـبلادهم النهـوض ففـي نهـوض بلادهـم تشـمخ صـورهم وتعلـو سماؤهم على خلافنا ونحن نسعى لنحط من قيمة أنفسنا، بالسعي الدؤوب وراء مصالح شخصـية سـرعان مـا تـذوي وتنتهـي فـي ضياعها أو ضياع مكتسبها.
وهو يصرخ بداخله: الرحمة.. الرحمة.!
صـراخ يعلـو حسـيس الصـمت.. وتنفجـر بـوادره كلمـا أحـس الكبت، ورجع بنظره الى تلك المرأة الفاتنـة بشـرى الأم؛ لتسـبح في داخلـه نـوازع الإثـارة والشـكوك، بمـا فـي ذلـك مـن التـردد والاستغفار، فلوّح مفصحاً عما يعتريه ويعترك في داخلـه بكلمـة هي الفصل: مسكينة.. فعلاً أنها مسـكينة، وحقيـق علينـا ان نتـألم عليها.

هذا ما قاله مع نفسه في حوار وجدل مرير مع نزعة الرغبة وشبق المتعة والجنس.
وعاد ليقول: انه عبق الحقيقة، وما يصح إلا الصحيح.
وراح يبرر: انه لولا علم الله بالسرائر لقلت إنها مظلومة.. وان كنت أؤكد على ظلامتها، لكنها ظلامة البشر، حاشا لله من ان يظلم أحداً.. إننا من نظلم أنفسنا ونظلم الآخرين معنا.. واني إذ أقر بمظلوميتها، ما عليّ إلا ان اتركها، أطلق سراحها من سجني، اعتقها من أمانيها التي بدت تصطرع في داخلها، أنها الرغبة.. الأمنية، في ان تطول من ينقذها وان كانت لم تبكِ بحضرتي، ولم تتوسل بي، إلا إني أحس بتيهها، خاصة بعد ان أخبرتني بكل شيء.. حتى عنوانها.. كل تفاصيل حياتها.. قد تكون بسيطة، بل هي بسيطة وساذجة: ماذا عرفت مني، ادعائي بالدين والمثل العليا، مسبحتي، لحيتي البيضاء التي ما ان أصل الى وحدتي العسكرية حتى أكرتها بالموسى، واقضي على كل معالمها.. تذكيرها ببيض الأحاديث النبوية الشريفة ووصايا الأئمة الأطهار وأقوال السلف الصالح، كل ذلك لا يعني ان تعطني إعطاء الذليل، خاصة أنها لم تبقِ على كل صغيرة وكبيرة إلا قالتها.
كلامها لا ينبئ إلا بإحدى الحسنين إما الزواج أو العجاج - الزواج بالمقلوب -.
ان أكره ما اكرهه كلمة الزواج.. الزواج خيانة مشروعة ضد الزوجة الأولى التي ناضلت في كل ما تملك من اجل بناء هذه الأسرة.. تحملت الغربة، الفقر، الجوع، العرى، الحرمان بكل إشكاله، إلا أنها بقيت على عهدها.
وما ان تحس بالانفراج المادي، والانبساط الأسري وثمرة عناء السنين حتى أغادرها بمركب آخر، أبحر الى جزيرة لا أدري

ان كان بها وفرة الزرع والضرع.. أو بها الموت واليباب، لا أدري ما ينتظرني عليها من مخاوف وأشباح وان كشرت عن أساريرها.
لم ينفك منشد بين الفينة والفينة الأخرى ينظر لصاحبه الذي علاه غبار الهزيمة والانكسار، وبان عليه ذل السؤال، بعد ان استجدى الحب بيدين طويلتين، معصب العينين لا يرى نور الصواب.
حرك داخل منشد إحساسٌ بالنصر والغلبة، مع شعور بارد بالخوف فيما لو كانت معركته تجاوزت النهر إلى بحر فتاة علتها ملامح الطهر والصلابة، وجاشت به عواصف العواطف، لابد ان تكون البنت على سر أمها.. وراح يذوب جليد التباعد بتبريرات ناقمة منتقمة لكبرياء صاحبه المحطم.. لكن إمارات الفشل كانت تترصده فمن خاف المغبات آمن شرها.. فتحاشى الولوج في دهاليز مظلمة قد تولج به للهاوية.
ورجع الى بشرى يسألها ما بدا له، وكانت المرأة تجيب بلا توقف ولا تردد حتى صاحت بها ابنتها نداء:
ـ كفى.. ان كان يروقك الحديث عن نفسك وشبابك المفعم بالنشوة فلا تدخليني في حديثك.
الأم بهدوء واستحياء:
ـ انه مجرد حديث عابر.
ـ لا تنسي نفسك، فحديثك مع الأجانب غير لائق.
طأطأت الأم رأسها، شعرت بصحة مقولة ابنتها، وان كانت تقول مع نفسها، إنها لم ترتكب معصية، فضلا عن إنها فرصة لتعبر عن رغبة جامحة كادت تموت مع ما فات من العمر بالنضال والجهاد لأجل الآخرين.. قد تكون ابنتها كل شيء بالنسبة إليها كأم فهل ستكون الأم كل شيء بالنسبة لابنتها، طبعا

لا، وألف لا، فالبنت لها ارتباطات أخرى قد لا تتوافق إطلاقا مع ما تتمناه الأم.
الأم ضحت كسائر الأمهات حتى ما عاد بإمكانها ان تحظى بفرصة خلوة مع نفسها.. كل شيء عندنا قابل للتطبيع، لمراجعة النفس، للرجوع عن قراراته، ماعدا ما عكفت عليه أمهاتنا في الوقوف الى جانبنا حتى النهاية؛ على الرغم من إننا قد نرد لها النزر اليسير أو لا نرده أصلاً ناهيك إذا ما انقلبنا ضدها وهجرناها الى الأبد.

لكن.. ما الضير إذا ما قبلنا بقسمتنا، فالحكومة حكومة، والشعب شعب، والقناعة كنز لا ينفد، هذا ما اعتاد عليه السلف، وان تردد بعض الخلف بالاعتياد عليه، إلا انه أسلم لما مضى عليه الماضون.
فذا الكلاب تنبح والقطار يسير، ورغم مشقة السفر، وكثرة الارتجاجات التي يتعرض لها الراكب فإنها اقل بقليل مما يتعرض لها من صراعات يومية مع قسوة الحياة والمكان وتأرجح عدالة الإنسان.
شعر احمد بان الوقت بدا يسرقه، فحاول ان يتملص من النعاس، ان يقاوم فتكه، والإفلات من بطشه.. فراح يسير ذهابا وإياباً، محاولا بكل قواه ان يبدد خيوط الوسن.. متناسيا ان في الغفلة رحمة وفي النوم راحة.. ظل مكابرا بصراعه مع النفس، متمردا على الراحة، مرتجيا نيل الغنيمة.. مازال في ظنه ان يملك خيوط اللعبة وزمام الأمور.
لربما لو ان أمها نامت، لتمكن من الكلام معها بكل صراحة، سيعبر عن مدى حاجته إليها، لربما ستستجيب لانكساره ترحماً

بحالـه، وعطفـاً علـى أشـواقه المترامية صـوبها، الهادفـة علـى إنشـاء علاقـة متينـة لا يعكـر صـفوها مـرارة الأيـام، وتـرادف الإحزان.
فتذكر للحظة خلـت، كيـف كانـت تكلـم أمهـا بصـلابة وازدراء، لكنه علل ذلك بالتظاهر مرة وبالاحتيال تارة أخرى.
وأوعز الى نفسه ما اشتهر قوله فيزيائيا: كل شيء قابل للكسر.
لكـن علـى مـا يبـدو ان الأم لـم يؤاتيهـا النـوم علـى خـلاف حـال صاحبه الذي بدا يتثاءب استسلاما للنعاس أو إفلاتاً مـن الحـديث وتملصا من الوعود.. ورجع احمد مستغربا مـن صـاحبه منشـد فهو طالما كان يردد وباستمرار:(إني اكتفيـت بمـا رزقنـي ربـي فلا أجد في نساء العالم كله امرأة أفضل من امرأتي).
فهاهو اليوم يخالف ما اعتمده من أقواله التي مازالـت رطبـة لـم تجف بعد، طالما قال في أكثـر مـن محضـر، لربمـا لأنـه مجـرد قـول عـابر، فهـا هـو اليـوم تحـت التجربـة، وبالتـالي سيكشـف الوقت، ما إذا كانـت مجـرد مـزاعم باطلـة غيـر مدعومـة بتأييـد فعلـي، أو انـه ثابـت القـرار لا يتزعـزع مهمـا كانـت الظـروف متاحـة ومتيسـرة.. لربمـا انجذابـه للحـديث معهـا مجـرد تسـلية، تزجية وقت، حب اطلاع؛ كل شيء جائز.
ينظر أحمـد لمـن حولـه، العربـة بأكملهـا مستسلمة للنـوم، هنـا وهناك طراطيش كلام، شخير، دخان، بكاء طفل، كهكهة فاترة، همس، حكايات حب، ذكريات أيام خـوال.. لكـن الأغلـب الأعـم مـن كسـرَ الهـم، واسـتغفل الحيـاة، لينـام علـى أنغـام الضـجيج؛ متحديا الارتجاج والهزات.
بينما ظل احمد يتنقل بين فواصل العربات، كانت الضـجة هنـاك اكبر وأنشط وأكثر دويا وتعرضا لهيجـان الرمـال، فرجـع وجـد الكل نائما، ما عدا بشرى فهي على ما تبدو بشـرة بفـرح اللقـاء،

ومتعة الحديث، وأمل الوفاء.. كان في وده ان يرى الأم نائمة والبنت مستيقظة لينفث عن سموم لواعجه وما يدب بخاطره بلا تلكأ أو تردد، لكن المشهد بدا مؤسفا اعترض أمانيه وما يصبو له.. وفكر هذه المرة جاداً، ماذا لو خاض ما يرجوه مع الأم، فهي ابلغ وارزن كما أنها لا تقل جمالا عن ابنتها هذا إذا ما كانت أجمل منها.. جلس وقد غلبته الحيرة، وهو يطيل النظر بنداء التي تلفع وجهها بشعرها الأسود المتناثر.. وكانت قد مددت رجليها بالقرب منه، فاستحى ان يطخ رجليها مخافة ان يعد ذلك تصرفا أهوج.. فترفع عن أسلوب المراهقين، والطائشين من العامة السوقية.

فكلمته بشرى بهدوء:

ـ عسى ألا تكون قد تضايقت من ابنتي.

تهلل وجهه فرحا:

ـ لا، دعيها على راحتها.

ـ أنها لم تعتد على السفر، ولكن الظروف تجبرنا على ذلك.

شعر احمد بالفرح، وحاول ان يتماسك ويبدو على شيء من الثبات، لكن ليس بمقدوره ذلك فثب متسائلا:

ـ أنتم من بغداد.؟!

ـ نعم

ـ أجئتم للنزهة، أم للتجارة، أم لتأدية واجب ما.

بشرى تفرك جلدة وجهها التي علاها حرارة الجو ودهن المساحيق قائلة:

ـ لا هذا ولا ذاك.

ـ إذاً.؟

بشرى سندت ظهرها على الأريكة وهي تتنفس الصعداء:

ـ قصتنا طويلة وشائكة..

ثبت نداء من نومها صارخة بها، مقاطعة لحديثها:
ـ قلت لك اسكتي، لم لا تنامي، وتتركي اللغو.
فصدت الأم بوجهها عنها بعد ان رمقتها بغضب واستياء وأغمضت عينيها، وكذا فعلت نداء فقد سحبت رجليها الى مقعدها واستدارت الى ظلام النافذة المطلة على العراء.
استهجن احمد أسلوب نداء وحمقها، وعدم احترامها للام حتى انه ظن أنها امرأة أبيها وليست أمها، غير ذلك استياءه الكبير في مقاطعتهم، بعد ان شعر بان النصر آتٍ، وهو الرجل الذي لا يهزم، فتبددت كل أمانيه وباءت كل محاولاته بالفشل.. لكنه استدرك للحظة الأخيرة فكرة نجاة من الغرق، فاقتطع جذاذة من ورقة في جيبه وكتب أرقام هاتفه، ودسها بيد الأم خلسة.

المنطقة الخضراء والوجه الحسن

في عبق يوم جميل بجوه الهادئ المنعش، بعيداً عن غبرة الجنوب ورطوبة البحر والاهوار المتصاعدة بخمة الأبخرة وغلالة الأدخنة والأتربة، بغداد هادئة ساكنة رغم ما فيها من تيارات متناحرة ونزعات متكالبة لأطماع وأحقاد دفينة تسعى جاهدة في إفشال حكومة الوحدة الوطنية وتركيبة التجربة الديمقراطية.

وصل الصديقان الى وحدتهما العسكرية المرابطة في المنطقة الخضراء والماسكة لبواباتها الست الرئيسية.

دخلا من بوابة التخطيط، الساعة لم تتجاوز الثامنة صباحا بعد.. حيث دأب العمالة والموظفون، عسكريون ومدنيون وأجمل ما في ذلك الموظفات اللاتي يعملن في أكثر من محفل جميلات بالشكل، المصنّع بالمكياج وتسريحة الشعر الموشى بالأصباغ الفضية والكستنائية، والألبسة الفاخرة آخر التقليعات، بما ما فيها العطورات الفواحة الهياجة، وان كان معظمهن من بنات الكرادة داخل وخارج وكرادة مريم، وهذه المنطقة ذات طابع حضاري منفتح على جميع شرائح المجتمع، ويضم مختلف الأطياف.. كان احمد ينظرهن كالمجنون على خلاف صاحبه منشد الذي كان ينظر بعين ويجهل بقلب، فحاول إيقاظه من غفلته، وحذره مغبة هذه الخفة، وأوصاه برباطة الجأش.

لكن احمد كان في عالم آخر، عالم مليء بالحب منتشيا بعبق أريج عطور فواحة.. برشاقة أجسادهن قمصانهن القصيرة التي تكشف عن خصور مخيفة مصقولة، مشدودة، وزنود مترعة

وأبـواب صـدور مشـرعة، أصـوات كزقزقـة عصـافير تبشـر بشروق شمس صافية، ضحكاتهن قاتلة، بسماتهن ساحرة، خرج احمد من طوره، وزحف عن يمينه مبتعداً عن صديقه ليصطف معهن، دنـا مـنهن وهـو يهـذرم لوحـده فـي محاولـة لإسـماعهن، بقوله:

ـ الماء والخضراء والوجه الحسن، أي شاعر قال هذا؛ الأحـرى به ان يقول: المنطقة الخضراء والوجه الحسن.

بدر من بعضهن ضحكات أشبه بـالهمس، ممـا شـجعه علـى ان يواصـل حديثـه، هـذه المـرة أشـبه بمـن ينشـد شـعراً أو يطـرب لموال، بصوته الأبح:

ـ يا بنات الحي، أما منكن من ترضاني حبيباً.

أجبنه بضحكة هادئـة بعـدما علـت البسـمة محيـاهن.. بينمـا كـان منشد على الجانب الآخر، سار حثيثاً ليبتعد عن صاحبه، مخافـة ان يوقعه في ورطة، غيـر ذلـك مخافـة ان يـراه مـن لا يسـكت، فيشـيع خبـره عنـد مـن لا يـرحم، فمـا تـوانى ولا تراجـع بعـدما صارت خطوته بخطوتين.

إلا احمد فهو يصيح مترنماً:

ـ أنـت أيتهـا الفاتنـة (وهـو يـومئ لإحـداهن) صـاحبة القمـيص الأصفر، أما آن الأوان ان تحبيني.؟

كانـت صـاحبة القمـيص أكثـرهن مرحـاً وخفـة دم وان لـم تكـن بأجملهن لكنها كانت أشدهن رشاقة ونعومة ولدانة، فصاحت به:

ـ أنت عجوز بقلب طفل.

احمد متمادياً:

ـ قسماً بجلال عزة الله، أعجبك.

الفتاة ضاحكة، رفعت يدها اليسـرى كشـفت عـن خـاتم الـزواج، وهي تقول: اعذرني، مرتبطة.

فسكت مستحياً، ثم قال:
ـ ألا توجد غيرك، من يهمها أمري وأمر الحب، أنتِ صاحبة القميص البنفسجي.. أنتِ أم البنطلون الكحلي، أنتِ، أنتِ.؟!
فأعرضن عنه، ودلفن الى وزارة الدفاع، إلا أن واحدة منهن صاحت به:
ـ أنت يا صاحب القلب الضعيف، عليك مراجعة الطبيب.
فحاول عندئذ الالتحاق بصاحبه، لكنه قد أبتعد عنه عشرات الأمتار، فصاح به:
ـ انتظر عبود ـ كناية شتم واستهزاء.
فالتفت منشد إليه ضاحكاً: خلك بمغامراتك الغرامية الفاشلة.

****

(ما كل شيء يباع ويشترى) هذا ما كان يردده منشد دائماً، إلا اليوم فهو يعني إسماع صاحبه احمد، وان كان قد اسمعه مراراً.. بينما كان احمد يخالفه الرأي.
فكل شيء له سعر، بالمادة تجلب كل ما تريد بدون استثناء، بإمكانك ان تشتري القلوب، وتحكم العقول، وتشتري الحب، وتكسر المبادئ، وتخرم الحياة، وتهزم الممات، الواقع يشهد لصحة مقولة احمد، هو ذات الواقع المعاشي بالمغلوط.. بينما كانت مثالية منشد لا ترقى سلالم التحديات العصيبة التي تعصف بالمجتمعات اليوم من ضربات عنيفة وانكسارات مستمرة.. منشد يدرك انه على حق ومقولته هي الصواب لكنه يستبعد ان يصدقها الآخرون المتمادون بالغيّ وسفاسف الأحلام.

شرد منشد بأفكاره بعيداً، وان كانت صورة بشرى لا تفارق مخيلته بعد ان استمع لشجي حديثها وصحبته بشيء من آلامها، فليس إنسانا من لم يتألم لأخيه الإنسان، وكيف وهي امرأة منكسرة كما حكت له قصتها الطويلة المريرة، إنها أرملة، نذرت عمرها لخدمة ابنتها ترسم لمستقبل الجيل بخطتها الخمسية.. دون ان يحس الجيل بمعاناتها أو يبذل ما في وسعه بذله.

للام كل الإجلال والتقديس الراعية منذ التأسيس والتفقيس الى ما لا نهاية.

ربت احمد على كتف صاحبه، يستنهضه من شروده، وظلال أفكاره ولواعجه، بقوله:

ـ حدثني الى أين ذهبت..؟

منشد لم يكترث لسؤاله إلا برفع حاجبيه واتساع عينيه وكأنه يعزف عن إجابته ويحجم عن الخوض معه في أي حديث.. لكن احمد لم يتركه في شأنه فاستطرد قائلاً:

ـ سحرتك الرحلة وحديث الأم الشجي.

فاعرض منشد بوجهه إلى الجانب الآخر، دون إن ينبس ببنت شفة.

تصنع احمد المسكنة:

ـ أنا مازلت صديقك المقرب، فهل يستوجب ان تخفي عني ما أود سماعه.

منشد بازدراء:

ـ إذا كنت تريد معرفة حكاية المرأة وابنتها، فهاك رقم نقالها، واتصل بها.

ـ أحقاً أعطتك رقم هاتفها.؟

فتناول منشد هاتفه وبدأ يبحث عن اسمها ووضعه بيد صاحبه.

ارتسمت على وجه احمد الدهشة والإعجاب:
ـ اسمها بشرى.؟
ـ نعم وبنتها نداء.
يهز احمد رأسه إعجاباً:
ـ ما أجملها من فتاة وأجمله من اسم، وكأن صورتها ما زالت تنادي عليَّ.
منشد يرمقه بعين غاضبة:
ـ أية فتاة تعني.؟
ـ نداء.
منشد ضاحكاً بسخرية: نداء امرأة مطلقة.
ثب احمد من مكانه واقفاً:
ـ مطلقة.! لكنها صغيرة.
استدار منشد بوجهه معرضاً عن صاحبه، ممتداً على فراشه.
احمد متوسلاً:
ـ أرجوك، أخبرني المزيد، لعلي أوقعها في شِباك حبي.
منشد صارخاً به:
ـ بابا، الى متى هذا التصابي، أنت رجل رشيد، أنت ابن حزب إسلامي عريق، هل تريد ان تضيّع كل تعبك وجهادك بالركض وراء امرأة، تركض وراءها لعنة الحياة.
احمد بهدوئه المصطنع:
ـ من قال إني انوي الشر، فأنت تعرفني جيداً، إني اطمح بالزواج من امرأة ثانية.
فقاطعه منشد:
ـ وما ذنب زوجتك.
ـ سأعدل قدر الممكن.
منشد ضاحكاً باستهزاء: وأيهما تبتغي البنت أم أمها.؟

ـ طبعاً البنت أفضل، حتى أنها أكثر اتزانا من أمها الثرثارة.
ـ لكنك تنسى أنها مطلقة، على العكس من أمها، فهي امرأة أرملة، وزوجة شهيد.
احمد يهز رأسه بروية:
ـ كلها (يك) حساب.
منشد ناصحاً:
ـ ان اشد ما أخاف منه عليك، أفكارك الطيشى، فأنت يوم بعد يوم تزداد طيشاً وتهوراً، وتسعى بلا هدف ورشد، أنك تهدر حياتك وقواك بحثاً وراء ألم، لا ينفك عنك، وقد يصاحبك حتى الموت.
احمد لا يعتني بخطاب صاحبه، ونصائحه البليغة، بقوله:
ـ أنت رجل عاطل، استوقفتك حياتك العادية فلا تقوى على تخطيها ولو بخطوة واحدة.. أنت ممن يؤمن بان الزيادة كالنقصان، وهذه نظريات يمقتها علم الاجتماع، فليس كل ما يقال في الفيزياء ينطبق على المجتمع البشري، الذي يعيش على ديمومة الصراع.
منشد متهكماً:
ـ إذا كنت على هذه الدرجة من البلاغة والقدرة على الإقناع، فاعمد الى هاتفك وحاول الحظوة بأيهن شئت.

لا يأس مع الإرادة

داعـب احمـد إحسـاسٌ بالنشـوة، وثمـة شـعور بتباشـير الفـرح والغبطة ترتفع في نفسه، تبان على محيـاه، يضـغط علـى أزرار نقاله بيد ترتجف طرباً، انه يرجو الكثير.. إذا لم يحظ بالبنت فـلا شـك بحظوتـه بـالأم.. امـرأة متعطشـة للحـب، متوقـدة بالوجـد، جسـمها الشـمعي ذائـب بنـار الرغبـة، مكهربـة بجاذبيـة رجـل ينتشلها من غرق محتم في بحر من الهموم.

جرس الهاتف الآخر يرن، انه يوشك الـدخول لعـالم طالمـا كـان يتمناه ويسعى وراءه.. وإذا بصوت ناعم يدغدغ مسامعه:

ـ ألو.

ـ ما أجمل هذا الـ (ألو).. هذا الصوت الملائكي.

هكذا ثب احمد لها مجيباً بروح أثيرية شفافة.

ـ احمد أليس كذلك.؟

لم يستغرب احمد سماع اسمه، فقد سبق ان أعطاها رقمه واسمه الثلاثي وعمله، فأجابها:
ـ هو بشحمه ولحمه.
ـ إذن ما المطلوب.؟
ـ لا اعرف بالضبط.!
تقاطعه بشرى:
ـ لا تعرف، إذاً لِمَ تتصل.؟
احمد فزعاً: اعذريني، فانا اشعر بالارتباك، ولا اعرف كيف هي البداية.؟ لكن أود التعارف.
بشرى بموقف صلب:
ـ اعتقد أننا بالغون، والتعارف شكل من أشكال المراهقة؛ ما رأيك.؟
ـ مهما كان عندي من رأي، فهو لا يعلو على رأيك، أنت وما ترتأين.
بينما كانت نداء تستمع لامها، وتراقب حركاتها الطائشة، وهي ممسكة بعمود أرجوحة في بيتها تأرجح كرسيه فصاحت بها من باب الفضول: افتحي المايكروفون.
الأم كانت أذكى من ان تستجيب لطلب ابنتها مخافة ان يبدر منه بعض ما لا يحمد عقباه.. إلا نداء بدت تحوم على والدتها وتدنو بإذنها نحو صوت النقال، ما اضطر الأم لفتح المايك.
ـ أخبرني ما تريد بالضبط.؟
هكذا تكون بشرى قد وضعت النقاط على الحروف.. احمد بأسلوب لم يعتد عليه مع نفسه، لكنه بدا يتصنع ويتكلم بروية فهو غير قادر على ضياع مثل هذه الفرصة، فتحزم لها بحزامين، قائلاً:
ـ لا أريد إلا الخير، لكن ماذا يمكن ان تعطي المرأة للرجل.

ـ المرأة الصادقة، تعطي الكثير من الحب والألفة لكن بما يرضي الله.
ـ تعنين الارتباط مثلاً.
ـ ولا شيء غيره.
حار احمد، فالمناورة باتت ضيقة أمامه وليس هناك متسع من الفراغ ليعوم فيه، وكان في نيته ان يسألها ما إذا كانت ترغب بالارتباط الدائمي أو الوقتي، فخاف من مغبة الجواب، ان أسوأ ما يمكن فعله هو غلق الهاتف، وبالتالي يطوي صفحة طالما طوي مثلها من صفحات.. فاستنجد بالغيب وهو يعصر صدغيه، بعدما طال سكوته، قائلاً:
ـ ولكن أليس من المفروض ان نعرف بعضنا الآخر.
ـ نو بروبلم، بلا مشكلة.
انفتحت أفاق ما كان ليعهدها وبهذه السرعة التي يتمناها.
ـ فسألها برجاء: ولكن كيف سنلتقي.
ـ لا أسمعك.. ماذا تقول.؟
انقطع الخط، فصرخ احمد متجهما: العن هذه الشبكة المتعبة.. دائماً ما تتكرر هذه الحالة خاصة في هذه المنطقة؛ إنها أجمل ساعاتي، فعاد الاتصال على الفور:
ـ اعذريني، ان شبكة الاتصالات ضعيفة.
ـ لا باس عليك.. ماذا كنت تقول.؟
احمد بهدوء يتصنع المسكنة والبساطة:
ـ لابد من اللقاء، لنتعارف أكثر.
بشرى تهز رأسها بالامتناع، بينما كانت نداء تنظرها بمكر وهي ترطب شفتيها بلسانها المبلل.. احمد استطال سكوتها:
ـ لمَ أنت ساكتة؟

ـ أرى أن الهاتف خير وسيلة لتذليل الصعاب، وتعميق أواصر المعرفة والمحبة.
ـ لكنه غير كافٍ.
ـ لا، فهو كافٍ ويفي بالغرض المنشود، فسل ما بدالك تجدني مجيبة بكل صراحة.
لم يقتنع احمد بهذه الفكرة، ولم يحبذها فمثله كمثل من يشتري سمكاً بالشط، وبدا يستفهم مع نفسه: (هل هي صادقة بما تزعمه من الصراحة)، فهل يصدمها بسؤال كان يدور في مخيلته عن الزواج المنقطع زواج المتعة، وبدت فكرته الأصلية تطفح على سطح عالمه الفائض بالأماني؛ فانه ما طرق الباب ليحظى بالأم، وهو يرجو البنت.
فنادت عليه بشرى:
ـ إلى أين وصلت.؟
احمد، متلكئاً:
ـ سهوت عن نفسي.
ـ بم.؟
ـ بكِ وابنتك.. كم أتمنى ان اسعد بقربكن.
ـ بي وبابنتي.
أمسكت الأم بخيوط اللعبة، وانهالت عليه بالسؤال:
ـ طبعاً أنت متزوج.
ـ بالتأكيد، ولكن لا أجد بداً من الزواج بثانية.
ـ وما الشروط والمزايا التي ترغبها بالزوجة الثانية؟
بذل احمد أقصى جهده بعدم إهدار الوقت، فهو موقف لا يحمد عليه، وان بلغ شأوه، إلا ان الدقة والتركيز أمران مطلوبان في السيطرة على مجرى الحديث، فلم يجد إلا ان يفتعل اقتطاع الخط بلعبة الصدى، حيث بدا يكرر الكلمة أكثر من مرة: لم

أسمعك.. لم أسمعك.. الخط مشوش.. الخط مشوش؛ وأغلق الهاتف.. اطرق مع نفسه، استوقفته المزايا التي يطمح بها الرجل في المرأة الثانية، خاصة إذا كانت زوجته لم ينقصها شيءٌ من الحسن والثقافة والشرف.

فكر بان يستشار صاحبه منشداً، لكن الأمر لم يستحق المشورة خاصة إذا كان بهذه الخصوصية، لكنه لم ييأس من وجود حلول مناسبة، وان كان ثمة هاجس يشعره بان هذا الأمر إقحام للنفس.. لكنه ما عاد يستمع لصوت العقل.. وهو يتأرجح بحبال الود.. أراجيح الهوى التي باتت تطير نحو عوالم أخرى، حتى استفزه منشد من أحلامه اليقظة:

ـ أنت في صراع نفسي، لا تقوى على مصارحة نفسك فيما يعتريك من اختلاجات وأحاسيس، فكيف تصارح بها امرأة لم يمضَ على معرفتك أربع وعشرون ساعة.. احمد يصغي، ويعزف عما يسمع، وفي نيته ان يستمد قوى أخرى لكنه ما ان يضع منشداً نصب عينيه، فيغير رأيه، وان كان منشد اعرف بالبئر وغطائه ـ كما يقولون.

وفكر ان يوجه اللعبة بشكلها الصحيحة، فالبنت هي المراد، صغيرة وجميلة، ولكثر ما أعجبه ما عليها من كبرياء واتزان.. وراح يتساءل:(لِمَ طلقها زوجها إذا هي تملك كل هذه المقومات الراقية) ثم رجع لنفسه ملياً واطرق ساكتاً حد الإخفاق، وهو يحدث نفسه، وينكب ذماً عليها: آلامَ تريدين الوصول، فما من انفصال إلا لسبب ـ ومثل ما يقع من اللوم على المرأة فالرجل عنه غير بعيد، لربما من تصرفاته أو من أهله، أو.. أو..

الإقدام على خطوة شجاعة

انساب احمد مع أفكاره، أوهامه، إرهاصات ماضيه، ورسومات حاضره ومستقبله، لكنه اسلم بعد اخذ وعطاء للإقدام على خطوة شجاعة.. سارع لتقليب نقاله الذي لم ينفك يتقلب بين يديه يميناً وشمالا. اخرج الرقم، أتصل بها.. فتح الخط من الطرف الأخر: ألو.

احمد بصوت شجي: مرحباً.

ـ ألف مرحبا.

ـ اعذريني ان الشبكة ضعيفة عندنا في المنطقة الخضراء بسبب التشويش المستمر من قبل الأمريكان.

ـ أتمنى ان لا يؤثر سلبا على أفكارك.

ـ تقصدين إني مشوش.

ـ لا اقصد.. بل ثمة إحساس يختلجني في ذلك، وأنا امرأة لا اكذب أحاسيسي.
باحتيال أو مراوغة:
ـ وبماذا تحسين بعد.؟
ـ بأشياء كثيرة، لكن أهمها أنك غير مستقر شعورياً..
ـ كأنك تسبيني.؟
ـ العفو. لست بالمستوى الدنيء، لأتصرف بأسلوب سوقي.
بدا على احمد الارتباك والتلكؤ:
ـ وانأ لا أعني ذلك طبعا.
بشرى تناور:
ـ اخبرني ما بحوزتك.. بالعربي الفصيح، ماذا تريد بالضبط.؟
وصل احمد للمنعطف الخطير، إلى لبة ما يريد قوله، لكنه يخاف ان يكون في العجالة الندامة.. فسبح بهواجس حيرى، يتكلم أم يسكت. يقول الحقيقة أم يتلاعب.؟
حتى رجع الى ما عزم عليه من الإقدام بخطوة شجاعة، وان تطلب الأمر بعض التأني والحكمة، لكن سرعان ما يعترضه تساؤل قاتل: الى متى؟!
فقال مع نفسه: (بسم الله) ثم تكلم:
ـ طبعا لا أخفي عليك إني مرتبط ولدي زوجة وأطفال، وبصراحة أنا أريد ارتباطاً حقيقياً، كوني محتاجا للمرأة بحكم طبيعة عملي.
ابتشرت بشرى خيرا وداعبتها الأماني، وثملت بسماع ما تمنته من امتداد أيادي الرحمة والنجدة.. وحاولت ان لا تكون مستعجلة في القرار، وعهدت على الشراء دون البيع.. فهي مستمعة جيدة، صاغية لكل كلمة وخلجة يطرف بها ولو اضطرها ذلك لقطع أنفاسها دون المقاطعة.

راودت احمد ذات الفكرة وكان بوده ان يكون المستمع دون المتكلم، لكن عدل عن هذه الفكرة التي شبهها بحوار الطرشان.. اللعبة بحاجة إلى لباقة، المتكلم هو من يمسك رأس العصا فهو ممسك بلجام الحديث، وان كان خائفا الى حد ما من الزلل والخطل، والوقوع في لغو باطل يسفه شخصه.

فخدجته بصوتها السحري:

ـ إلى متى نبقى ساكتين.

عاد احمد إلى رشده، ورباطة جأشه بقوله:

ـ لَكَم هوّن السكوت مصائباً.

ـ أعاذنا الله وإياك من شر المصائب والبلايا.

اخذ الحديث منحى أخر، حاول احمد ان يمسك الدفة ويبحر في عباب الموج، بقوله الذي بدا متطفلا:

ـ هل من عائق يعيقك من الارتباط إذا ما تقدم لك شاب مثل مواصفاتي.

ـ قبل ان أقرر أي قرار بهذا الصدد علينا ان نتكاشف.

وبخ احمد نفسه توبيخا جافا.. كيف لرجل عاقل ان يقدم على قضية حتمية مثل الزواج، وهو لا يعرف بمن يرتبط فلا يعرف الأصل ولا الفصل، ولا يدري مع من يتكلم في حقيقة الأمر، أنها امرأة التقاها مصادفة، لا يعرف صدقها من كذبها.. ان كانت شريفة أو عاهرة، ممتدة من سلالة طيبة أو سلالة داعرة.. أخيراً استدرك نفسه قائلا:

ـ لو سمحت لنا الظروف بالتقارب، فهل ثمة عوائق وعوارض تعيق مسيرنا.

ـ حتما هناك الكثير.

ـ نداء مثلا.

نـداء كانـت علـى الطـرف الأخـر وهـي تسـتمتع لكـل مجريـات الحديث؛ فرمقت أمها التـي بـدت مطرقـة الـى الأرض.. وكانـت تنـدس أمهـا، بـأن واصـلي الحـديث ولا تتـرددي.. الأم نظـرت بعيني ابنتها التي غشاها مزيج من الانكسار والشغب قائلة:
ـ نداء هي كل تفكيري، وجل مصائبي ومعاضلي.
بسرعة كالبرق، اختطف الرد:
ـ زوجيها إذن.
سقط النقال من يدها، وهـي لا تـدري بـم تجيـب، وكيـف تشـرح الأمر.. فسارعت نداء وأخذت النقال ومسحته مـن نجيـل الباحـة الأخضر الذي يزين حديقة البيت الأمامية، وأعطتـه لامهـا التـي بـدا عليهـا التـردد والانهيـار، وهـي تؤشـر علـى ابنتهـا متسـائلة بصوت خفيض:
ـ بمــاذا أحدثــه.؟ وهــي ممســكة بفـروة رأســها.. فأخـذت نـداء الهاتف؛ بعد ما عجزت الأم عن إيجاد ردٍ مناسب قائلة:
ـ هل لك زوج لها.؟
ما ان سمع احمد صوتها، حتى جن جنونـه، وثـار فرحـا طربـاً، يثب من مكانه صوب صاحبه، ويرجع.. فأجابها ثملا:
ـ أنت نداء.. حتما أنت نداء، صوتك هو ذاته الـذي مـا زال يـرن في مسامعي، انه يمازج نبضي ويسري مع دمي.
ففاجأته نداء بقولها:
ـ أنت متذبذب، متقلب، تواً تتغزل بوالدتي، والآن عرجت علي.
لم يصدمه كلامها، واعتقده رد فعل طبيعـي، وبالتـالي فهـي لـم تكذب عليه ولم تنتعه إلا بما سمعت منه.. وهذا التذبذب والتقلـب هو كذلك معادلة طبيعية لظرف ما وها هو الظرف.
فصاحت به نداء بعد ما كان يبرر الردود بالتعليلات الواهية:
ـ أين أنت.؟

احمد بلهفة وولـه:
ـ أنا حيث أنـا، منكب علـى هـوى، عـاكف فـي حضـرة الحـب المقدس، صامت أكابر كالمقابر أتحدى الجميع
ـ وأنت شاعر.؟!
بـل ثمـل بالمشـاعر، أنـا كلـي أحاسـيس فياضـة، سـباقة بالحـب جياشة.
وقفت نداء صامتة، تدب في داخلها هواجس متناحرة متسائلة ما إذا كان هذا الرجل مجنوناً أم عاقلاً، سكراناً أم جاهلاً، صادقاً أم كاذباً.؟
بينما كانـت الأم قـد جلسـت علـى الأريكـة المتأرجحـة، منطويـة على نفسها مطرقة إلى الأرض، لا تدري إذا كانـت هـي حزينـة أم فرحة، مرتاحة أم مهتاجة.؟
ما ان استطال احمد السكوت حتى عاد متبجحاً:
ـ أين أنت يا نجمة في سمائي.؟
لم يشعر إلا وانقطـاع الصـوت وإذا بالمجيـب الآلـي يـردد علـى سمعه: رصيد حسابك غير كافٍ لأجـراء هـذه المكالمـة، يرجـى تعبئة الرصيد.

أبطال على الأغلفة

غط أحمد بصراع مستديم، يعبر عن أحاسيس مكبوتة، يتنفس تراكمات الماضي ومشاهدات الحاضر المخيف: شائكة هي الحياة بكل ما فيها.. حتى في سعادتها غصة، وألم، وصراع.. نحن نبني للخراب، فيما يمضي من وقت هو نهاية حتمية لبان. كل شيء بإمكانك تعويضه واسترجاعه إلا العمر، وما ان تبكي على إطلال في مكان ما، هذا لأنك سترص مثله في علبة الماضي وهوامش التاريخ.

الأبطال الحقيقيون الذين ما زلنا نسعى وراءهم ونتكلم بأمجادهم، لم يكونوا يوماً سوى أبطال على غلاف.

في الروحيات تنسى ألم الفوت، تغض النظر عما ضاع وتستعد للموت، حرصاً منك على آخرة دائمة باقية، وافرة الجزاء.

على خلاف ما طلع علينا من أبطال قتل وبطش وإجرام.. احمد يشاهد الإعلانات المدفوعة الثمن التي تعرضها القنوات

العراقيـة وبعـض القنـوات التجاريـة الأكثـر رواجـاً.. فأضـحكه مقولة تتصدر قائمـة الإعلانـات: القاعـدة لـيس لهـم فـي العـراق قاعدة.
وتساءل ضاحكاً: أين هم إذن.؟ انه زحـف لآلـة تخريـب دوليـة، نبشت حتى قبور الموتى لتمثـل بجثمـانهم، ان عـدائهم تـأريخي، عمره طويل، وغرضه لئيم، جعلونا نبكـي علـى مـدار السـاعة.. ما زلنا نئن من دائرة القتل وعلى مسميات أيام الأسبوع، وعلـى مدى أربع وعشرين ساعة يومياً: سـيارة مفخخـة، عبـوة ناسـفة، عبوة لاصقة، ومتفجرات حديثة، تنم عن دعـم رهيـب وتخطـيط وتكنيك من قبل إستراتيجية عالمية، دينا ميـت (TNT)، (C4)، مصانع بلا عـدد، أكثـر مـن مصـانع الكـاهي والشـامية. ضـحك منشد لهذا التعبير المجازي، وهو يعلم علم اليقين بان صاحبه ما تحدث بهذا الحديث، وما خاض كل هذه التسـاؤلات إلا انـه يمـر بضـائقة، أو مشـكلة مـا تعتريـه؛ وبالتـالي فهـو لـم يخـالف رأي صـاحبه، بـل كـان يسـانده، بـأن مـا عملـه المخربـون فـي البلـد يضاهي كـل التفجيـرات.. ذلـك الخـراب المتعمـد، الـذي يعتمـده أصحاب الحرفة من مهندسين وأطباء وأقلام مـأجورة تـزج بـك في دروب الضلال.
فسأله منشد تنفيساً خبيثاً: ماذا صنعت مع الأم وبنتها؟
رمقه باتساع حدقة عينيه، ينظره بنظـرة سـريعة، دون أن يأبـه لسؤاله.
فعاد منشد متسائلاً بأسلوب استفزازي:
ـ أنك لم تقل شيئاً عن السياسة ما لم تصب بمصيبة أو نكبة أو نكسة، فهل أخفقت مجدداً.؟
أجابه من دون اكتراث به:
ـ نحن في قمة الإخفاق وقلبنا يخفق.

ـ صحيح.. لأنها قلوب مريضة، السعي وراء النساء عندها فريضة.
احمد مستهزئاً:
ـ أنت رجل خواف، لذلك تبرر، ساحتك بالأعذار الساذجة.
احمد كغارق يتشبث بقشة، فأنه يعدُّ ما قدم عليه على انه انجاز، ونصر كبير، قفزة نوعية في الإنتاج.
في حين هو غارق في خياله، سابح بأحلامه، اقتطع عليه الجندي سائق القسم بعد ان أدى التحية، وبلهجة عالية، أخبره:
ـ سيدي العزيز بدأت دوريتك الليلية.
ـ هيء السيارة سآتي حالاً.
ما كان في وده ان يتزحزح من مكانه، انه متعب، عقله مليء بالأفكار والخيلاء، لكنه لا يقدر ان يفّوت الواجب، كونه يدرك أهميته البالغة بالحفاظ على المنطقة الدولية.. وبين التردد والتباطؤ صاح به منشد:
ـ لو ان هاتفك رن، لبقيت ساهراً حتى الصباح، لكن الواجب يبدأ بالتثاقل والتكاسل.
تركه احمد دون ان يجيبه، فهو قد اعتاد على أسلوب صاحبه ومكره، ويتمنى عمداً ان يشعل جذوة الجدل لمجرد التنفيس والضحك.
ركب سيارته الـ (فورد) ليستطلع نقاطع التفتيش في مداخل ومخارج المنطقة الخضراء، ولسان حاله يردد: (ما ذنبنا، متعبون، ونحرس السكارى).؟

بلد المثلثات

أجواء بغداد جميلة جداً، دار المحبة والسلام، نعم اختيار أبي جعفر المنصور لها: عاصمة الامم.. ما أجمل نسيم صيف لياليها، وشتاء الحب فيها والغزل.
تجول احمد بالعجلة (الفورد) وهو يستطلع معالم المنطقة الدولية قصر المؤتمرات المهجور الذي دكته الطائرات.. وينطلق بين قبة بيت المقدس الوهمية، مروراً بقصر عدنان الذي ما زال يحمل نفس الاسم، يفتش نقطة البوابة حيث تستقر قيادة عمليات بغداد.. لم يتسنَ له الدخول إلى داخله، فاغلب القصور موزعة بين قيادات وقياديين القوات المشتركة، ومن ثم نصب الجندي المجهول المزين بإنارة كأطياف قوس قزح، وساحة الاحتفالات إلى ساعة بغداد التي تتك بأميال حمراء ليزرية باهرة، تبشر ان بغداد ما زالت بخير.. ان الزمن والوقت يمضي على كل شيء

فيغير الدنيا من حال إلى حال.. نهاية بقصر الازدهار، وبوابة الحارثية.
لم يرق لأحمد ثوب التبجح والعنفوان بمقدار ما يفضل دور الهادئ البسيط المتفهم.. رغم ما تعلم في دورات مكثفة من عدم الاختلاط مع الجندي بشكل مباشر، ولا بد من وضع حدود فاصلة بينه وبينه.. كان يعتقدها نكتة ماسخة، فالجندي هو الأخ والصديق والنسيب والقريب، ويسفه هذه الأقوال رغم اعتقاد الكثير بصحتها، بما حكيّ لهم من قبل زملائهم الذين أكدوا مراراً وتكراراً: ان الجندي لا يصادق الضابط إلا لمصلحة ما، ما أن تنتهي هذه المصلحة، تنتهي معها روابط الصداقة، وان كانت على درجة من الوثاقة والقوة.
كانت نقطة التفتيش في بوابة الحارثية تعتبر مجموعة نقاط متفرقة.. استقبله الجنود في أول نقطة بالسلام والتحايا الحارة لما عرف عن تواضعه، والاستماع لشكواهم ومجاملتهم الى حد كبير..لكنه كان يستنكر عليهم عدم ارتدائهم تجهيزاتهم الكاملة، ولا يحبذ ان يجد أحداً خارج النقطة، معللاً ذلك بمجيء دورية أخرى وأخرى، وأشدها دورية المكتب المتشددة كثيراً والتي لم تقبل السهو بالعمل، فكيف بالخطأ والخطأ المقصود، عناية منها بأداء رسالتها على أتم وجه، وان تطول عقوبتها الجندي المخالف، بما فيه الضابط الموجود وآمر السرية.
عندما اطلع على حال النقطة وسأل عن الضابط الموجود فوجد ان هناك تبديلاً كاملاً في السرايا وان نقطة جسر المعلق هي ما جاءت بدل الحارثية وهكذا العكس.
وعندما استقصى الخبر، أخبره أحد الجنود: انه المثلث...! فعج جميع من في النقطة من الضباط والمراتب بالضحك، وضحك

احمد تماشياً معهم، فلا يجب ان يكون كالأبله بينهم.. لكنه راح يستفسر عن نوع المثلث وقياس أضلاعه الثلاثة.!
أخبروه باستياء بالغ ان زوجة أحد المسؤولين (فلان الفلاني) هي من كانت السبب في نقلهم من مكانهم، لا لسبب إلا لأنهم استوقفوها، وهي تتكلم بجهازها النقال واعلموها بممنوعية الاتصالات داخل النقطة كإجراء احترازي لسلامة الجميع، ها هي سياقات العمل في البوابات الرئيسية للمنطقة الخضراء، إلا ان الوجه الحسن لا يروقها هذا الكلام، فهي زوجة الحكومة كما ادعت، وأخبرتهم بأنها قادرة على زحزحتهم من مكانهم؛ وبالفعل تحقق وعدها.
أعرب الكثير من الجنود عن استيائهم، كيف يمكن لامرأة ان تلعب بهم هذه اللعبة وتقلعهم من جذورهم.. أماكنهم الذين اعتادوا عليها.
بينما كان ضباط النقطة، أكثر استياءً وانزعاجاً مما حصل لهم، فهم قد اعتادوا العمل في مواقعهم الأولى، وعرفوا الكثير، ومن الصعب جداً ان تتغير بهم الأماكن، وكذلك الوسائل، وتتقطع بهم السبل، لكنه حال الجيش لا استقرار فيه أبداً.
فما كان من احمد إلا ان يبدي رأياً وجيهاً كونه ضابط ركن، يتمتع بالبديهية وحسم القرارات مبرراً هذا الانتقال، بأنه انتقال صحيح لا بد من العمل به مخافة وجود ثغرات أو توطيد علاقات مع إرهابيين أو مجرمين، لذا ان قرار (المافوق) بتبديل طواقم البوابات، يعد قراراً سليماً مئة بالمئة.
لا أحد يستطيع ان يجادله، كونه أقدم الموجودين، فضلاً عن اقتناع بعضهم، خاصة الضباط من الرتب الدنية.. إلا ان أحد الجنود بدا ساخراً لقوله: لو ان التبديل جاء قبل هذه الحادثة،

لكان أمراً طبيعياً، إما ان يأتي التغيير من قبل امرأة؛ هنا الطامة الكبرى.
احمد يصرخ به: كأنك تقلل من قيمة المرأة.
لم يجبه أحد، وطأطئوا رؤوسهم الى الأرض.. حتى الضباط الآخرين، ما كانوا ليقدروا في ملاحاته، احتراماً للرتبة والسن والصدق، فأردف قائلاً:
ـ ان الدنيا صنعتها امرأة، أمنا حواء.
فاستدار أحد الجنود المنهكين وجهه باصقاً:
ـ تف عليها من صنيعة.
فضحك جميع الجنود ماعدا الضباط وقد سأله أحدهم:
ـ أتعرف ما قيمتك وأنت بلا امرأة، لا تسوى فلساً.
ببجاحة فجة:
ـ هي أحوج ما تكون للرجل.
احمد يهز بيده مستهزءاً:
ـ عدنا للبيضة والدجاجة.
فقاطعه الجندي ذاته:
ـ عفواً سيدي.. ان المثلث بلا أضلاع لم يعد مثلثاً، وما ان يدخل عليه المستقيم يجعل منه مثلثين.
ضحك بعض الجند، وتسمر آخرون.. فصاح به احمد غاضباً:
ـ أنت تتكلم عن المرأة وكأنك خرجت من شق الحائط.. بابا.. ان المرأة أقدس المخلوقات.. ابني العزيز إذا كان هناك ما يشعرك بنقص ما، أو بكرهٍ، فإنما هذه مشكلتك.. لا تحاول فرضها على الآخرين.
احمر وجه الجندي وبانت عليه علامات الغضب والاحتقان:
ـ أنا لست ناقصاً.
فقاطعه احمد بصوت عالٍ:

ـ ولست زائداً.
فتمتم الجندي أراد ان يتكلم.
فنبهه احمد، وهو يومئ إليه بسبابته بدون كلام: اذهب الى واجبك.
والتفت الى الجميع، فصاح بهم: كلاً الى واجبه.
نسى أنهم في واجبهم، وهم ماكثون في مواقعهم، ما عدا الضباط هم الوحيدين من يمكنهم التنقل من مكان لأخر.. سايره أحد الضباط المرابطين من أبناء دورته، وراحا يمشيان بعيداً عن الجنود.. لحقهما اثنان من الضباط آمري القوة.. بينما كان نقيب سعد الضابط الزميل وهو بنفس الرتبة بدا ضاحكاً:
ـ لم أرك عصبياً من قبل.
احمد: أكره من يتمادى بالباطل.
نقيب سعد: أنهم جنود، متعبون، أنت تعرف واجباتهم ثقيلة.
ـ أنا اعرف كل شيء، وحقهم علينا ان ننصحهم، هذا الجيل لم يفهم بعد ما تعني له المرأة.. كون هناك حالة من الابتذال وحالات من التدني والانحطاط.. فقد ساهمت وسائل النقال والانترنيت وفضائيات المجون في تلويث صورة المرأة وجعلت منها وعاء إفراغ.
يقاطعه سعد:
ـ اسمح لي نقيب احمد عزيزي.. أنهم يومياً يرون عشرات النساء، بل المئات ممن يدخلن الى المنطقة الدولية، أكثرهن موظفات في شركات، وتابعات لبعض الوزارات ومترجمات، وعلاقات مع أصحاب الشأن.. قلما تجد من بينهن المحجبات، حتى أن بعضهن ممن تجيء متلفعة بالعباءة والحجاب الإسلامي، ما ان تدخل المنطقة إلا وخلعت ثوبها وأبقت على بنطلونها الداخلي والقميص الفاضح، (التي شيرت) فوق السرة،

البدي يكشف عن زندين مترعين، ونهدين منفجرين متملصين من إحكام الإزار والسحاب، والشعر الموشى بخيوط فضية وكستنائية، وعدسات لاصقة، ورموش قائمة وتثخين شفاه، وتكبير نهود وإرداف؛ ماذا تراه صانعاً هذا الجندي المسكين القابع تحت كل هذه الويلات، وهو يعيش متغرباً بعيداً عن أهله، وزوجته، وأطفاله.. وغيرهم العزاب.!

فقطع احمد إسهاب صاحبه وإطنابه بالحديث بقوله:

ـ هذا هو حال الشارع، بمقدار ما يوجد تفسخ يوجد المحافظ والرصين، وان اغلب هذه الأزياء التي نعتها بالفاضحة والعارية، هي موضة اغلب الشعوب الإسلامية.. ونعجب بهن إعجاب حب ورغبة، ونشير لهن بالبنان، عندما ترتدي المرأة المصرية واللبنانية مثلاً البنطلون والقميص، وننكر على العراقيات لبس هذه الأزياء؛ مع العلم ان الكثير منهن محافظة ومتزنة.

نقيب سعد لم يرقه هذه الديباجة المنمقة، خاصة وانه غير متأكد ما إذا كانت المرأة السافرة المتبجحة أحسن من غيرها أو أتعس.. ولربما ما قاله احمد بحقها ضرب من ضروب المديح.. لكن لم يجد ما يبادله الحديث به فلزم الصمت، متحاشياً الخوض في نقاش عقيم.

ولأن احمد حريص بطبعه على الصمت، وانْ لا يبدأ حديثاً ما لم يبد محدثه بذلك.. فودعه وركب سيارته انطلاقاً لنقطة الجسر المعلق.

نقيب احمد لم يتعايش مع الأبواب بشكل دائمي، ماعدا الضباط من زملائه، فكان أكثر الجنود لم يعرفوه معرفة معاشرة، لذا يكنون له الاحترام ما لم يبدر منه أية بادرة سيئة.. نزل على

جسر المعلق.. سلم على نقطة الخروج الأولى.. سألهم عن أهم مشاكلهم والمعاضل التي يعانون منها، وعن جل احتياجاتهم.
الجندي بطبعه ميال للطلبات كون ان كل وحدة فيها ما فيها من النواقص، غير انه أكثر ما يميل الى الضحك والفرفشة، خاصة أولئك الذين يريدون لفت الانتباه صوبهم؛ فقال أحدهم:
ـ سيدي العزيز، نحن أبناء الدولة، ونحمي الحكومة، لكن لا يوجد من يسندنا، يعني تصور..
قاطعه احمد على الفور وببداهة:
ـ لا تحدثني عن المثلث وأشكاله الهندسية الأخرى.
ضحك الجندي.. التحق أحد الضباط في النقطة.. ملازم قيس.. أدى التحية العسكرية، وسلم على نقيب احمد، وأردف:
ـ أسمعكم تتكلمون عن الإشكال الهندسية ودورها في بناء الدولة.
ضحك نقيب احمد ضحكة فاترة، على سبيل المجاملة ليس إلا.
فقال الجندي المتكلم:
ـ هل يأتي زمان تكون فيه للرجل كلمة لا تستثنى من قبل امرأة.
نقيب احمد بصوت عال:
ـ ما عداؤكم مع المرأة.
الجندي بلا تروٍ:
ـ أنها أفسدت علينا الحياة.
جندي آخر:
ـ تحشر نفسها فيما لا يعنيها.
ملازم قيس:
ـ لا نستطيع الاستقرار هنا، ونساء المسؤولين تتلاعب بمصائرنا.
وقال جندي آخر:

ـ كأنها مثلث برمودا الذي يمتص السفن والأساطيل ويسقط الطائرات.
نقيب احمد استدار ظهره، وهو ينظر للأفق البعيد، وبصوت كالهمس مع نفسه المغمورة باللواعج والاختلاجات، وإرهاصات الحياة الروتينية المملة متسائلاً: هل كلهم على باطل وهو على حق.. هل لامرأة المسؤول الحق في تغيير رقعة الشطرنج بقتل جندي وكبس وزير.. ان مشكلة النساء قائمة، ما لم تكن هناك قوانين ثابتة، وأخرى رادعة لكل تصرف طائش مناف للقانون.
وإذا بنداء عبر جهاز اللاسلكي: ملازم قيس كيف تسمعني أجب.؟
ملازم قيس: جيد أجب.
المنادي: يرجى حضورك عند النقطة الأمامية.
ـ استلمت.. إيضاح الموقف، أرسل.
ركبوا عجلة نقيب احمد وذهبا الى النقطة الأمامية.
المنادي: ثلاث نساء سكارى اصطدمن بالحاجز الكونكريتي.
قيس: وضح، نوع العجلة.؟ والمكان تحديداً.؟
الصوت: العجلة نيسان باترول، المكان أمام النقطة تحديداً.. والآن تم إخراجهن من العجلة.
قيس، بمهنية: ابتعدوا عن العجلة، وليذهب صاحب جهاز IDE كشف المتفجرات بفحصها.
المنادي: جاري التنفيذ.
وصلا الى النقطة.. ترجل نقيب احمد وملازم قيس، وهو ينظر الى ثلاث فتيات يترنحن سكارى حد الثمالة، عليهن من الحسن والملابس ما تدغدغ المشاعر وتهتك الأعصاب.
استقبلهم أحد الجنود بعد السلام وتأدية التحية:

ـ تم فحص العجلة وكانت سليمة، أجراءتكم سيدي.
تمعن احمد بهن، لما عليهن من الحسن والجمال الأخاذ، تمنى تلك الساعة لو ان يختلي بهن بعيداً عن أنظار الرقيب، كما سال لعاب جميع المتواجدين، خاصة وهن يثرثرن بلا شعور.
ملازم قيس، صرخ بالجنود: الانتباه والحيطة لربما وراءهن مكيدة ما، ونبه بجهاز اللاسلكي على الأبراج، وباقي النقاط القريبة باتخاذ أقصى تدابير الحيطة والحذر.
فشجعه نقيب احمد على ذلك، وأخبره بأن يبلغ الرئيسية ـ مقر الفوج ـ في ذلك وإرسال الاستخبارات لتتبنى القضية، كما التفت الى الجنود المتواجدين بالقرب منهن بالابتعاد وعدم الكلام معهن مخافة ان يتهمن الجنود بالاعتداء أو ما شابه ذلك..
فأوصى ملازم قيس الجنود بعدم الكلام معهن بأية كلمة حسب قوله: العفيفات يرتكبن علينا فكيف بالـ ..
فصرخت به أحداهن وهي تتمايل يمنة وشمالاً: نحن أشرف منكم قوادون.
فهز قيس يده دون ان ينبس بكلمة، والتفت الى نقيب احمد بقوله: سيدي اسمع، نحن طيلة النهار نمر بمثل هذه الإشكال.
لا يدري احمد بما يجيب وان كان في داخله رفضٌ لقوله الشائن بالتعميم وان كان مجازياً للكثرة، أو كثرة المشاكل التي تعترضهم، إلا ان أجابه:
ـ ان هذا واجبنا، وعلينا ان نتحمل.
ـ سيدي اعذرني، نحن نضحك على أنفسنا، نوهم أنفسنا بقدسية الواجب، متناسين حجم الاهانة التي نتلقاها يومياً.
احمد يغالط نفسه: ان الحكومة وثقت بنا فلا بد ان نكون عند حسن ظنها.

لم يستطع قيس ان يتجاوز أكثر، كونه وصل الى نفق مسدود، فأصبح الأمر بنطاق الوطنيات، وهذا ما لا يمكن تجاوزه، خاصة مع ضابط أعلى من رتبته، والمعروف عنه بميوله الإسلامية وهو أحد بطانة الحكومة المخلصين.. لكن ملازم قيس لم يفته التنفيس عن همومه بشكل ساخر: لكَم دمر هذا المثلث بشراً، وتاهت به بشر.. ولو أمسكت به ليلة لصيرته مستطيلا.

ضحك احمد بهدوء، بينما تعالت كركرات الجنود، كرر احمد القول: لقد دمر الكثير فهو الغازي الخطير.. ونظل ضحايا المثلثات، بالأمس أخذونا بتهمة الانتماء الطبيعي لمثلث الشين، واليوم يستوقفنا مثلث الموت المزعوم بمثلث السين.. ولطالما كان هناك الكثير من الضحايا في المثلث الحقير.

شروع في جريمة حب

نهض احمد من نومه منزعجاً على صوت رنين نقاله، وهو ما زال يشعر بنعاس وصداع ارق طويل قضاه في دورية البارحة.. نظر لشاشة النقال.. أنها بشرى.. كاد يرمي النقال بعيدا لولا خوفه من الكسر، متأففاً: ماذا تريد مني هذه المرأة؛ يا للابتذال والرخص.

أنا أريد (وهج) أية وهج.. أعني نداء.. اشعر بها تنادي على قلبي.. انقطع صوت الرنين.. تغيرت نيته، شعر بالأسف.. لماذا ضّيع الفرصة، أنها المتصلة، لا بد ان أمراً ما وراءها.. الساعة العاشرة صباحاً.. الشمس ارتفعت في ربوع السماء.. الكل في عمله.. عاد منشد من واجبه.. استطلع صاحبه، وجده راكناً في زاوية الغرفة على سرير حديدي، مسندا رأسه على يده اليسرى، وهو يقلب أرقام هاتفه.

تكلم منشد بدون مقدمة: أصبحنا وأصبح الملك لله، اتصالات على الريق ـ ما كاد يكمل كلامه إلا ورن هاتفه ـ ضحك احمد ضحكة استعباطية ممجوجة.. بيد كان منشد ينظره باستغراب ويهز يده امتعاضاً من هذا التصرف المستقبح، وبيده الثانية يخرج نقاله من جيب بنطلونه ويكشف عن الرقم.. أنها زوجته؛ ولأنها مكالمة عائلية اضطره الأمر لإغلاق الهاتف الى وقت أخر، وهو ما زال يهز بيده مستنكرا ضحكة صاحبه الماجنة ـ على حد تسميته.

لم يمض الوقت طويلا بقصار الكلام بين شتم وضحك، حتى رن هاتفه مجددا، فأخبره احمد: اجب عائلتك، لا تستحي مني،

ماذا تريد منك غير أنها ستسألك عن الراتب والمخصصات.. ضحك منشد وأغلق الهاتف لئلا تتصل به مجددا، فقد كان قول احمد صائباً، لأنه لكثرما تكرر مثل هذه التساؤلات بحكم اطلاعه الدائم عليه.

لحظات ما كادت تنقضي حتى رن هاتف احمد.. انها بشرى مجددا هذه المرة لم يتريث لحظة واحدة، فقد سارع في فتح الخط مبتدأها بالتصبيح والترحيب.

بصوت طفولي طغت عليه سحنة التصنع:

ـ اعذرني على الإزعاج

قاطعها بتذلل:

ـ أنا بخدمتك، أمريني.

ـ لا.. العفو.. لكني أريد رقم منشد.

تراجع للوراء، تغير لون وجهه.. كان يردد في داخله: عاهرة.. أنا من قتل نفسه عليك، وأنت تريدين منشدا.. (ناس تتعب وناس تأخذها على الصافي بدون تعب ودوخة رأس)، كان صوتها يخرج من الموبايل غير مفهوم، كونه ابعد الجهاز عن إذنه.. منشد ينظر مستغرباً لحركاته اللاشعورية العابثة، وكأنه صُعق لخبر ما، ولكنه ما زال حياً يتنفس ويتكلم، لكن حركاته لا تختلف كثيرا عن أي خبر صادفه.. إلى إن صاح به: ما بك.؟

عاد احمد لرشده، رفع النقال لإذنه وهو يسمعها: أين أنتَ.؟

احمد بهدوء، وتعقل: أنا حيث إنا.

ـ لم تخبرني عن رقم هاتف منشد.

احمد تعمد المماطلة:

ـ في الحقيقة، عليّ أن أخبره أولاً، وبالتالي سأخبرك فيما إذا وافق على ذلك أم لا؛ لكن هل يحق لي أن أتدخل ولو من باب الفضول وأسألك.

ـ لم لا.. لا مانع أبداً.
ـ ماذا تريدين منه، ما يمكن أن يصنعه لك ولم أستطع أنا ذلك.؟
بفن وذوق وخبرة إجابته:
ـ فيك الخير والبركة.. ولكنني كلمته عن زوج ابنتي، الذي قطع النفقة عنها وعن ابنها.
هدأ احمد، لكن الانبهار فضحه، وما كاد يدري ما يقول، وكيف يديم النقاش، بعدما اعترضهُ أكثر من سؤال:
ـ ابنتك نداء، عندها طفل.!
ـ نعم.
ـ ولكنها صغيرة، إنها حتى لم تتمتع بطفولتها.
غلب على الأم صمت الجروح، لوعات الزمن، مطاردة البؤس، فنبست عن لوعة وشجن: ومن منا تمتع بحياته.
كاد احمد أن يبكي لولا أن تماسك، وقال في نفسه: أنها اصدق كلمة.. إن هذه المرأة اصدق نساء الخلق.. وحار بعدما طارت الأجوبة، فلم يجد من الكلام ما يكفي للتعبير عن صدق مشاعره.. سوى قوله:
ـ اقبل قدميك على هذه الكلمة، رجال ونساء ضائعون، في بلد لا مكان للمساكين فيه، الغلبة للمحتال، انه آخر الأزمنة، وأسوأ الأمكنة أن نعيش بلا حنان.
كلامه هذا لاقى إطراءً كبيراً من صاحبه الذي استغرب عذوبة كلامه فهو أقرب ما يكون إلى تفكيره ورأيه.
غير ما لقيه من استحسان وإطراء كبيرين من نداء التي كانت تستمع إليه عبر المايك وشعرت ان في هذا الرجل من الحنية ما لم تلحظه بأي رجل أخر، وبدا يراودها إحساس خطير، كشروع بحب.

بينما كان يعتقد احمد نفسه بان كلامه هذا نفث من نفثات الشيطان، ولو انه لطالما كان مبدعاً وفناناً في رسم لوحة المأساة، وموسيقى الحزانى، وحديث الثكالى والحرمان.
تناوشت نداء الهاتف من يد أمها.. وكلمته على الفور من دون مقدمات:
ـ نحن نتكل عليك في قضيتي.
أفرحه الصوت حتى بانت أساريره، وبسرعة محاطة بحذر:
ـ ها.. نداء.. كيف الصحة.؟
ـ أهلاً بك، سيادة النقيب.
ـ إذا كان كذلك الحديث، فيمكنني ان اسميك سيادة الحبيب.
ـ إياك والعجالة.
ـ أما ترين ان الزمن بدا يتخطف الأعمار، فلم الانتظار.؟
أخرجها عن موضوعها الأساسي، لم يطق صبراً، بأن يماطل ويسوّف، انه يعاني أزمة تأني، لا يحبذ تلك البدايات المنمقة، أنه جامح لا يمكنه السكون، يجد العبث كل العبث في المقدمات.. لكثرما كره الجيش كره الروتين، الرتابة المنظمة تزعجه، تفقده صوابه.. انه عاشق مجنون، يبحث عن عبوة ناسفة تفجر أحاسيسه، هكذا كان يسمى الفتاة الجميلة التي تلتحق في رياض قلبه الكسير.
كان صوتها يعبر الأثير، تكلمه دون ان يصيخ السمع لها، فقد اشغله الالتفات إلى صدى نبضه المهووس، إحساسه المكبوت.. ثمة أمل يدب الحياة في ربوع وجدانه، يشعر بفأس من حديد تنقض على أصنام هواجسه الميتة، تكسر براثن الموت والحرمان.
عاد الاستماع لصوتها، بعد إن سمعها تلعن الشبكة، لم ينقطع الصوت، معتقدةً بانقطاع الخط.. فلج لها صارخاً:

ـ هل تسمعيني.؟
ـ نعم، نعم أسمعك، ما بال هذه الشبكة.؟
ـ اتركي عنك الشبكة، ودعينا في شباك واحدة.. أخبريني ما تريدينه بالضبط.؟
ـ أن أمي أعطت جميع التفاصيل إلى صاحبك منشد.
ـ الأمر يتعلق بنفقة الطفل.
ـ نعم ونفقة الرضاعة.
بلؤم وخباثة ونوايا مبيتة:
ـ هل ترضعينه حقاً.؟
صمتت لم تعرف ما يرمي إليه من سؤاله، ففهم صمتها بقوله:
ـ قد نعطي أرواحنا، ولا نعطي ثمار أجسادنا.
ضحكت بمكر، وكأنها أدركت مقاصده قائلة:
ـ من يعطي الروح لا يبخل بالجسد.
بلعانة وتباهٍ:
ـ إلا الجسد، وأي جسد ملائكي هو جسدك.
حاولت أن تضع حدود وفواصل، رغم شعورها بالضعف والخواء إمام تيار عاتٍ، من رجل بدا يشعرها بكيانها المنعدم، وقف بكل ثقله ليستدرجها إلى أحضان قلبه الواسع.. فباءت بفشل الصد، وانهارت كل حصونها الحصينة، لكن لا غرو من التصنع بقولها:
ـ حسبك تجاوز الحدود.
لم يكترث لتهديدها المهزوز، بدأ يشعر بضعضعةِ قواها، من ذبول صوتها، وتراجعها عن كثير من مواقفها العتيدة، وبتعقل واستدراك أعاد سير الحديث:
ـ ماذا لو دفعت لكِ قيمة النفقة.
باستياء بالغ وبصوت غلبت عليه العصبية والقهر:

ـ بأي عنوان.؟
ـ أي العناوين التي ترغبينها.
ـ أظنك تجاوزت حدودك، وهذه نهاية المطاف.
قاطعها بسرعة: لحظة رجاءاً.. صدقيني أني لم اقصد الإساءة.. ولكن تأكدي بصدق نيتي، وأنا مشتريك، إحساسها يتفاعل مع أحاسيسه لا مجال للكذب، إنها تصدق حتى أنفاسه، غمرها شعور دافئ بالحنان، انه الرجل الذي تمنته، أو على الأقل هو من ترجوه في تعويضها عن كل ما فقدته، لكنها ما زلت تستفهم: (هل يريدها لشيء أخر، للتسلية، أو لساعة الظمأ).. فكل ما يختلجها من نزعات ما كان ليؤكده إلا سؤالها المدعوم بأجوبته الدقيقة، وبين صراعاتها الخرسى، وأمانيها الحبلى تعلق رجائها، بقولها:
ـ ولكنا لم نعرف بعضنا الأخر.
جاءه هذا السؤال أشبه برحمة الإفراج، التي تنهال على المحبوسين قائلاً:
ـ إذن فلنتعارف، ما المانع بان نتعارف أكثر فأكثر.. فما مات من أحب.؟

دائرة الحق

هناك حالة من التذمر والانزعاج بدت على الجنود، صدى داخلهم يصدو: إلى متى نحرس السكارى.؟ منشد يلاحظ اختلاجاتهم تقاسيم وجوههم، تعابير كلامهم، طريقة تعاملهم مع الآخرين، ما كان ليغيب عنه هذا الاستياء البالغ الذي يتعاملون به مع الموظفين والمسؤولين الذين يدلفون إلى المنطقة الخضراء.. هو يدرك عبء المسؤولية، وضخامة الواجب المناط بعاتقهم، كما يدرك جيداً الخدمات الجليلة التي يقدمها الجند في حراسة هذه المنطقة، خاصة أن الجندي في مداخل المنطقة على خلاف غيره من الجنود في المناطق الأخرى.
فهو مسؤول تمام المسؤولية عن أي اختراق للمنطقة، لذلك تراه أكثر حذراً وانتباهاً، وان كان واجبه يمتد الى ست ساعات مقابل مثلها من الاستراحة، مما تراه مرهقاً ومنهك القوى، لهذا تعنى إرشادات (المافوق) من ضباط آمري فصائل وسرايا وضباط مرابطين إلى دوريات من مختلف وحدات اللواء إلى مكتب القائد العام تقوم بشحذ الهمم، وان كانت لا تكفي إذا ما

كانت المخصصات المادية هي الحافز الرئيس في ذلك، وعلى الرغم من هذا العطاء المتذبذب الذي تتبعه صيحات مناهضة، وتلفحه قرارات مسمومة بمنعه، إذا لم يشمل العطاء باقي الحمايات.

مازال منشد يستمع لأضغان وإحن، تلعن هؤلاء الذين يقدمون بكل ما أوتوا من قوة ونفوذ لتذليل حركات ما يصب بصالحهم وإعاقة كل ما سواه.

وتذكر قول أحمد وتعاظم ازدرائه من أن كل مسؤول يحظى بأفواج حماية، خاصة أولئك الذين انتهت صلاحية خدمتهم، كرئيسي الوزراء السابقين، ورئيس مجلس النواب الذي أحيل على التقاعد.. وتكمن المشكلة بمن يدعم هولاء، ولماذا تتجاهل الحكومة ذلك وهي تغض النظر عنهم، في حين من الأولى أن تضع الضوابط والقيود اللازمة في تحديد ذلك، وإلا يعد تواطئاً ضد مصلحة الشعب وعلى حساب المال العام الذي أحوج ما يكون الشعب بحاجة إليه.. وكأن الكل يسعى لوضع اللمسات الأخيرة، والأساسات العريضة لما بعد السقوط، حفاظاً منه على ديمومة الأبهة، التي ما كان يفكر في يوم من الأيام أن يتنازل عنها، بقدر ما لم يكن يتوقعها، أو تخطر له على بال.

فاستفزه صوت أحد الجنود، وهو يتنفس الصعداء، بقوله: سيدي.. هل نأمل الحصول على المخصصات، أو أنها باتت صفحة من الماضي.؟

منشد: ليكن املك بالله كبيراً.

الجندي ضاحكاً: والنعم بالله.. لكن ليس بالنواب.

رأى منشد أن الصمت أولى من إجابته.

جندي أخر بتمادي: الحسد يا عيني على الحسد.. النائب يستلم عشرات الملايين ويعترض على ستمائة وخمسة وعشرين ألف دينار، مقابل إتعابنا والخطورة.
قاطعه جندي أخر أكثر جرأة وجسارة: لا.. ونحرس السكارى، وكذلك كلابهم.
منشد، بحزم: أنت وأنت (وهو يومئ للاثنين) بلا قلة أدب.
سكت كل من سمع صوته، وانصرف البعض إلى بضعة أمتار بعيداً عن شرر غضبه المتطاير وأردف قائلاً: أن هؤلاء أشرف من أدعياء البعث.
فضحك أحد الضباط برتبة ملازم ضحكة فاترة وهمس بإذنه: لا تسب البعث.. وصمت هنيهة وأردف: أن فيهم الكثير من البعثيين.
فأخذت منشد العزة والتفاخر بانتمائه ـ الذي كان كثيراً ما يسميها احمد (نعرة المعدان) قائلاً:
ـ ((أنعل أبو البعث يا بو الدك أساسه)).
فانصرف الملازم بدون أن ينبس ببنت شفة أو يطلق كلمة واحدة ولو على سبيل الاعتذار، فصرخ به منشد: أنت.!
فالتفت ملازم (سليم) وهو يهز يده وقد علت وجهه سحنة الازدراء قائلاً: أنا ضابط، ولا اسمح لك ان تقول لي أنت مستهزئاً.
منشد أكثر عنفواناً وهو يومئ له بسبابته: عندما تنصرف من عند ضابط أعلى، تؤدي التحية وتنصرف بأدب.
الملازم وجد نفسه بين فكي رحى طاحنتين، لم يجد إلا أن يؤد التحية وينصرف مهذباً، يحمل في داخله صرخات الرفض والغضب الذي لا ينفسه إلا الانتقام وبكل وسيلة ممكنة.

ما ان رأى الجند هذا الموقف من أمر السرية مع أحد الضباط المقربين منه، حتى شعروا بان عقوبة ما، ستطولهم عاجلاً كان أم أجلاً؛ ولان منشداً ما زال مستاء من تمادي الجند ومن ذلك الضابط الذي وصفه بالركاكة والهشاشة، لكونه صغير السن ومن الدورات المتخرجة حديثا.. ورجع مستذكرا أيام الحرب، وجيش النظام السابق ومدى التزامه وانضباطه على الرغم من مواقع الموت.. وان ضابط الصف مهما كانت رتبته دنية كان قويا لا تكسر له كلمة، يجعجع بالرعيل أنى شاء وان ولج به إلى جبهات القتال.. يقولون: انه (بخت صدام) الحقيقة لربما للبخت والحظ دور في هذا الأمر، لكن لمَ لم يكن لهؤلاء القوم من حظ.؟! هيهات، فان أكثر من في الدولة اليوم هم من علية وإشراف القوم.. ولا أظن أن الأمر يعتمد على الحظ بمقدار ما يعتمد على التنظيم.. ورجع إلى ابعد من ذلك، إلى الفتوحات الإسلامية، فلم ينتصر المسلمون الأوائل إلا بالتنظيم والعزيمة والصدق، فهن مقومات النصر.. فماذا ترانا نفتقد اليوم.؟

آب إلى نفسه المتوهجة بقوله: أظننا نفتقد كل شيء.. كان صدام يعمل لبناء دولة، إما اليوم فنحن نعمل لبناء كتلة.!

عَصَر جانبي رأسه، شبك يديه على هامته، كاد يصرخ، تنبه مجددا وجد نفسه بين رعيته، هو الراعي، هو من أتمنته الدولة بالحفاظ على كيانها، فجمع من الجنود من كان بالقرب منه وخطب بهم: أن الدولة أمانة في أعناقنا، علينا أن نحافظ عليها بأرواحنا، انتم قد تدركون أو لا تدركون إن تجربة الديمقراطية تجربة يتيمة بالمنطقة ولا بد لها من ضحايا، لا بد لها من عيون ساهرة لحمايتها وحماية العملية السياسية؛ لكن دوليا وإقليميا ومحليا يريدون إسقاط العملية السياسية، لكن ذلك لا يتحقق، بفضل الشرفاء منكم والغيارى على حياض الوطن، نعم أنت

متعب ومنهك، وربما مهان في بعض الأحيان ممن يتعمد الإساءة لك، ذلك لإضعاف موقفك، ولزعزعتك عن مبادئك، لا يريدك أن تؤمن بقيم راقية متحضرة، إلا بقيمه الخاوية المتزعزعة، يوسوس لك كما يوسوس الشيطان ، بأنك الخاسر الوحيد، مثلما قال أحدكم: (نحن نحرس السكارى، النيام للظهر) هذا عملنا، واجبنا، لم يجبرنا احد بالتطوع في هذا المجال، سوى البحث وراء أرزاقنا وأرزاق عوائلنا، وكأنكم نسيتم أنفسكم بأنكم المزكون من قبل أحزابكم وانتماءاتكم للدولة الجديدة، حكومة القانون والتعددية الثقافية.

بدا على الجنود تباين واضح بردود الأفعال، وان كان معظمهم من صاخ السمع، ووجدوا في كلامه لغة الوجدان والدين.. إلا أن السؤال الأكثر إلحاحا ظل قائما: هل انقطعت المخصصات المالية والتي اعتاد عليها جنود لواء بغداد لأكثر من سنتين تقريبا وبنوا مشاريعهم المستقبلية وفق هذا الدخل المادي الذي أصبح بعداد المنسيين.

****

ما أن انصرف نقيب منشد إلى منامه، إذ بدت الأنفاس تهدر شقشقتها المكبوتة:

جندي متشائماً: لا أحد يبقى في هذه الوحدة إذا ما انقطعت المخصصات.

أخر أكثر تجهماً: نجاح صدام بتحصين حمايته وإغداقه بالعطاء عليهم، ونحن حماية المنطقة الدولية يبخلون علينا بمخصصات زهيدة، مقابل ما يأخذونه.

جندي ساخراً بصاحبه: أين هو الآن.؟

العريف الذي كان متنحياً جانباً متبجحاً، بعد أن وجد نفسه مجبراً على التدخل:
ـ تمتع بنا خمس وثلاثين سنة، إلا يكفي هذا.؟
الجندي الساخر: لكن نهايته أن ذهب إلى مزابل التاريخ ولعنة الأجيال.
العريف ضاحكا: هو في مزبلة التاريخ، ونحن في مزبلة الحياة.
الجندي الخصم ساخراً وبشراسة هذه المرة: إذا كان هذا شعورك فهذه مشكلتك.
العريف بشطارة: ومشكلتك كذلك، لكنك تتجمل باللامبالاة.
بدا الحوار ساخنا ونحا منحى أخر، بعدما صاح أحد الجنود الذين يعملون ضمن عناصر الاستخبارات المتخفين على العريف، بقوله:
ـ طلع الرأس اللعين، البعثيون بانوا على حقائقهم.
العريف لم يجد ما يمكن ان يرد المتكلم به، مخافة ان يطول الحديث ويعرض وقد يؤخذ هذا الاتهام بعين الاعتبار مما لا ينتهي التحقيق منه.
وعاد الجندي، لكن هذه المرة بدأ مخاطبا الكل: من يرغب بالاعتراض على الحكومة، فليرجع إلى حكومة النظام السابق، يبحث عنها في المزابل أو المحارق ويستعان بها، ومن اسمعه يمس الحكومة بكلمة سوء، سأجعل منه عبرة لمن يعتبر.
سكت الجميع وكأن فوق رؤوسهم الطير، وسار عنصر الاستخبارات، ممسكاً بيد ذلك الجندي الذي كان يعترض آراءهم، وتوجها صوب ثكنة منام الضباط.. مما أربك البعض وشعروا بالخوف، فما أن يجري تحقيقاً بهذا الأمر، فقد يطوقون بجريمة التحريض، أو التمرد، أو الخيانة، إذا لم تكن محاسبة انضباطية مهينة.!

****

علا لغط بلا رشد، واحتدم جدال أخر بين من بقي من الجنود.. كانت الإشارات تطول، عنصر الاستخبارات الذي امتدحه البعض لأخلاقه العالية وما عرف به من الحصافة والاتزان.

غير إن البعض أنكر عليه تخفيه، وتصرفه غير اللائق أن يندس بينهم ويطّلع على إسرارهم.. بدا الكل يتذكر ماذا قال عنده، وهل سبق وان سب أحزاب الحكومة، أو انه سب احد الضباط.. بدا الشعور بالخوف طاغياً على أحاسيسهم، خاصة إن عنصر الاستخبارات قد توجه صوب نقيب منشد.. وان لا شك بتطور الأمر.. لا احد يستطيع أن يبرئ ساحته، أكثرهم من سب في ساعة غضب.. لربما سب احد المسؤولين أو تصرف بسوء.. عنصر الاستخبارات كان على الاطلاع في كل صغيرة وكبيرة فقد عاش بينهم فترة طويلة، تطلع على إسرارهم وتكشفت له سرائرهم.

تكلم أحد الجنود في محاولة منه لكسر الخوف: ما بكم خائفين.؟ فلينقلونا إلى أية وحدة شاءوا.

أخر بصورة تجاذبيه: فليصنعوا ما شاءوا.. ما بالنا وجلون؟

العريف وكأنه قد عاد لرشده: بإمكانهم أن يفعلوا كل شيء.. ولكن قولوا يا ستار استرنا.

عاود الجندي الأول قوله: ((سكت دهرا ونطق كفرا)).

حدجه بازورار عينيه، وهو يهز يديه.

فأجابه الجندي: لا تزعل من قولي، لأني أقول الحق، وأنك على دراية بما يمكن فعله، فلماذا قلت ما قلت.؟

العريف، مهادناً: انجذبت للحوار، وأحببت أن اعبر عن رأيي؛ ولا أظن هنا من يؤاخذني على مجرد رأي ارتأيته.

الجندي: هذا القول لا يشفع لك، أن رأيك يعبر عن نيتك.
العريف مقاطعا: ولا أظن إن القانون يحاسب على النيات.
الجندي: بل يؤخِذ على الظنة، ويفتك على التهمة.
العريف: لا أظنه إلا قانون معاوية.
الجندي سكت وهو ينظر بالوجوه لئلا يكون هناك من يعترض عليه، وسرعان ما دب الخوف إلى نفسه، مخافة أن يكون هناك عنصر استخبارات آخر.. فلزم الصمت وهو يفرك بشحمة انفه الأيمن.

****

عنصر الاستخبارات وصاحبه دلفا إلى ثكنة نقيب منشد، وجداه نائماً، حاول عنصر الاستخبارات إيقاظه، لكن صاحبه عاب عليه ذلك، وامسك بيده وأخرجه من الثكنة، ثم انه اقسم عليه بان لا يصل الأمر لهذا المستوى، فالضابط بدوره يبدأ بتشكيل مجلس تحقيقي، ويجرجر الجميع، الكل تكلم حتى أن بعضهم من كان صمته ناطقاً، يعيب على الحكومة قطع المخصصات، وكيف لا وهو يجد نفسه ابن الحكومة وحامي حماها، وهي تبخل عليه بهذا المبلغ الزهيد، وإنما كان الانقطاع بسبب بعض النواب الذين عارضوا بشدة، أن يكون هناك امتيازات تخص هذا اللواء دون غيره، وإلا فأن المخصصات لا تشمل رئاسة الوزراء وحدها،بل تشمل أفواج الحماية الأخرى.
وصلا بمسيرهما إلى نقطة البوابة، حيث يوجد الجنود المتناحرين بالجدل العقيم، سكت الجميع، عنصر الاستخبارات جاء من جهة، وملازم سليم من الجهة الأخرى، وهو لم يكن ليدري ما حدث من وراءه من جدال مستفيض الصخب

والمـرارة، وكـدوره بأنـه الضـابط الوحيـد المتواجـد حاليـاً فـي النقطة، اخذ بتوجيه الجنود وتوزيعهم على المواقـع، إلا عنصـر الاستخبارات أبى عليه ذلك، ولم يرغب بـالتزحزح عـن مكانـه، في محاولة منه لإبراز عضلات الترائي والظهور ليس إلا.
ملازم سليم لم يستغرب هذا التصرف الأهوج، وعزاه علـى انـه سبب طبيعي، لما رأى الجنـدي مـن تصـرف النقيـب منشـد أمـر السرية بإضعاف موقفه وكسر شوكته، فقال متصنعاً:
ـ لا باس عليك، ألزم أي المواقـع شـئت، انـه جـيش آخـر زمـن، جيش الدمج.
فأغاظه ما سمع، وثب عنصر الاسـتخبارات، وكـاد أن يضـرب الضابط، لولا إن اعترضـه العريـف وبـاقي الجنـود، وبـدا يهـدد ويتوعد.
إلا إن مـلازم سـليم لـم يقـف مكتـوف الأيـدي، فهـو بـدا يزمجـر بصوته، ويسب خصمه، ويلعن نفسـه اشـد لعانـة، لمـا أودت بـه إلى الحياة العسكرية الصاخبة بقسرية الاختلاط وعدم الاحترام.
واجتهـد المخـابر للاتصـال بنقيـب منشـد عبـر جهـاز اللاسـلكي المحمـول ـ قصـير المـدى بـــ للاتصـالات الداخليـة عبـر نقـاط البوابة الواحدة.
بدوره نهض نقيب منشد مـن نومـه، وعلـى عجالـة سـارع إلـى البوابـــة، وقبـــل أن يحكـــم لأحـــد، أراد أن يـــتكلم عنصـــر الاستخبارات، فأومأ له بالسكوت.. أشار للضابط، أن يتكلم.
ملازم سليم بانكسار: تصور جندي يتجاوز على ضـابط ـ وكـان يشير برأسه إلى عنصر الاستخبارات.
عنصر الاستخبارات، بدون إذن: أنا من تجـاوز أم أنـت؟ التفـت إلى نقيب منشد، واستطرد قائلاً: انه يتجاوز على ضباط الدمج.

نقيب منشد: نشكر حرصك علينا، لكنه أيضاً ضابط، وان ساء إلى زميل له فقد ساء إلى نفسه، وبالتالي لم أجد في أسلوبك إلا كمن يطفئ النار بالزيت.
طأطئ الجندي رأسه، وشعر بالاهانة المهذبة، ولم يجد من الكلمات ما يسعفه في الدفاع عن نفسه، فاستطرد منشد قائلاً: تعال صافحه واعتذر منه، ولا أريد أن اسمع عنك أو عن غيرك، بالتجاوز على ضابط أو حتى ضابط صف.
وجد عنصر الاستخبارات نفسه في زاوية ضيقة فصافحه وما كاد يفعل.. بيد كان موقف ملازم سليم موقفاً ضعيفاً، خاصة بعدما اشتكاه عنصر الاستخبارات، وفضح مقولته أمام أمر سريته، فحاول أن يبرر ساحته، بقوله: سيدي..
فقاطعه منشد حفاظاً على ماء وجهه بقوله:
ـ عذرك مقبول.. ثم التفت إلى الجميع، قائلاً: إذا ما بلغني أن أحدكم وشى بصاحبه، فسأنزل عليه اشد غضبي، فمن لم ترضوا حديثه، قولوا بوجهه انك على خطأ بما فيه أنا، فقد ولى زمن الوشايات والسعايات والنمائم، انتم اكبر من ذلك واجل قدراً من أن تتابعوا كل زلة، كلنا خطاؤون وأفضلنا التوابون، ثم إننا ضباط الدمج، لم نأت من الشارع أو نأتي من فراغ، ان أكثرنا من لازم المهاجر، ورابط في الاهوار، وقبع في المعاقل والمحاجر، وفوق كل هذا أننا لسنا أنبياء أو أوصياء، نحن إخوانكم من نفس مناطقكم وأجوائكم ومذاهبكم، إذا ما حرصنا على شيء فإنما نحرص على سلامتكم، كوننا أكثر خبرةً منكم في الحياة، مثلما انتم تتمنون المخصصات نحن نتمناها وندعو الله ليلاً ونهاراً في ديمومتها، غير إننا نستعجل الخير ونأمله، على خلافكم فقد ركبكم التشاؤم فما عدتم ترون ما ينفعكم مما يضركم، وأحدكم يقول: (أن زمن صدام أفضل) لكن عندما

تسـأله مـا الأفضـلية بـه، لا يـدري بمـا يجيـب، انـه يثرثـر حـد الهذيان، لا يعـرف كيـف ينفس عـن غضـبه، إذا مـا كـان قولـه يرضي الله أو يسـخطه.. يـا إخـواني أنهـا دائـرة الحـق، بـالأمس نحن المستضعفون المشردون في أصقاع الأرض، أما اليوم فقد انقلب السحر على الساحر، أصبحت حياتهم فوضى بعدما ظنـوا كل الظـن أن لا نهايـة، وان حصـونهم مـانعتهم، هـا نحـن اليـوم نسكن حصونهم.. وأشار إلى قصر المؤتمرات قائلاً: ألـيس هـذه قصور صدام.؟ أين هو اليوم مـن قصـوره.؟ حتـى أولئـك الـذين يطبلـون ويزمـرون باسـمه، أنهـم لا يتبـاكون إلا علـى مـواقعهم ومصالحهم التي ذهبت أدراج الرياح.

علا الوجوه راحـة ورضـاً، خاصـة إن مثـل هـذا الضـابط الـذي يتكلم بالمثل العليا والقيم النبيلة، بالكـاد انـه يتسـامى عـن البحـث والتدقيق، وراء تقـارير يرفعهـا عنصـر الاسـتخبارات، لا يأمـل منها الإصلاح بمقدار ما يأمل من علو شأنه ومنصبه.

لصوص بلا حدود

وردت أكثر من رسالة نصية إلى احمد، تخبره بالإسراع في تزويد بياناته الشخصية لشركة زين للاتصالات، ودونها تقطع خدمة المكالمات الصادرة، غير إن حقه لا يتعدى باستلام المكالمات الواردة إليه، هذا إذا ما تمادى في الإهمال فأن الخط سيُعلق بالكامل.

ولا يتذكر احمد أن سبق وتعامل مع شركة زين البتة، وانه قد سبق وأن اشترى خط أثير مثله مثل أغلبية أبناء مناطق الجنوب، وكان قد سلم بياناته الرسمية كاملة، إما اليوم فهو مهدد بقطع الخط، لا لسبب معروف غير إن زين ضمت لها شركة أثير وشركة عراقنا للاتصالات المحمولة، إذن المشكلة مشكلة زين وليست مشكلة المواطن.. لكن رجع أحمد ليقول وبملء الفم: من يسمع لصوت المواطن، مازال الكل يشتري ويبيع فيه.!

لو كان احمد في تلك الساعة يملك القدرة على نسف شركة الاتصالات لما توانى لحظة واحدة، انه بأمس الحاجة لسماع نداءٍ من نداء.. انه قد وصل في أخر محاولاته الميمونة معها إلى نتيجة ممتازة، فقد استطاع أن يستدرجها إليه ويترك أثراً بالغاً في نفسها.. حاول أن يكسر النقال.. جهاز الموبايل لا يعني سوى مذياع أو كاميرا بدون خط اتصال.

وصل منشد إليه.. كان هو الأخر في لوعة ما مر به من نزاع مع معيته.. الناس تتكلم عليهم ضباط الدمج، تستهان بهم، وتسميهم أحياناً بالرفاق الجدد، لكن كل هذه الأصوات المناوئة

لا تغير من أهدافه وصموده، انه يحس بان هذا حقه بل واقل من حقه، انه لم يأخذ سوى النزر اليسير، اللمم، أو ما يسمى بـ (الطشار)، على خلاف ما أخذه الآخرون، فهم اخذوا الكعكة بكاملها بما فيها المقبلات، وهم لا يرضون بعد، على الرغم مما احتوشوه من حصصهم وما حاصصوا به الآخرين.. لكنها أرزاق.!

مازال الاثنان أجساداً في مكان وقلوباً في هيام.. رأى احمد أن يستخدم نقال صاحبه، لكن من العسير إقناعه بمكان.. لكن ماذا لو افتعل الأعذار، وادعى بأنه يريد الاتصال بعائلته.. وجده عذراً مناسباً ومقبولاً.. لكنه لا يشك إطلاقاً برفض منشد، وبنوع من التصنع والتحاذق قائلاً:

ـ أغلقوا خطي.. انتهينا من الأثير وأفعالهم الممقوتة، تسلمتنا زين، ولا أدري ما الزين فيها.؟!

لم يجبه منشد إلا بكلمة واحدة لا تتجاوز التوبيخ: مستحق.

احمد مازال بتصنعه حد الاستكانة:

ـ اشكر شعورك.. هذا مثل ما تقول هاك نقالي واتصل بعائلتك.

منشد هازئاً: أخبرتك عشرات المرات أن تزودهم بمستمسكاتك، فهذا نظام شركة جديدة لابد من التعامل معهم بشفافية.

احمد متهكما: أية شفافية، وأنك تقف بطابور طوله ثلاثة أيام، حتى تصل لدكة التسجيل، وبالتالي فأن الشركة دخلت مع مساهم آخر، فما ذنب المواطن في ذلك.؟

يتكئ منشد بكل جسده على كرسي بلاستيكي، وهو يشد يديه فوق هامته:

ـ لا أدري إذا كنت أنت على حق أم هم.؟ لكن الأفضل أن تمتثل للتعليمات، وإلا فأنت الخاسر، الشركة تضم كذا مليون مشترك، لا يهمها أنت ومن سار على غرارك.

أحمد يدع التصنع جانباً إلى التبجح والتباهي، بقوله: هه.. عندما تضيق بك الأجوبة لا تجد إلا الإذعان والخنوع سبيلاً ومخرجاً.
يضحك منشد وهو يقول: هذا ما تعبر به عن لسان حالك.
احمد بذات التبجح:
ـ والله لا أجدني إلا أحسن حالاً من حالك.
منشد بسرعة غشاه الغضب كرد فعل:
ـ أظنها بانتصاراتك المزعومة على المسكينة نداء، لكن أين أنت من وهج.؟
سكت احمد وبنوع من الاستدراك، ضحك بلطف في محاولة منه لتغيير الموضوع، فانه يشعر بأنه قد لح في موضوع تافه لا جدوى منه، قائلاً:
ـ أعطني النقال.
منشد بظرافة: إذا كنت تود الاتصال بأهلك فلا بأس، أما إن كان للمغازلات والمعاكسات فاعذرني.
أحمد لم ينتظر حصول الأذن، سحب النقال من صاحبه عن طريق الفحوى، واندفع للخارج مسرعاً.

****

كان عصراً صيفياً جميلاً، لم يجد أحمد مكاناً شاغراً، ينفرد به لمكالمة عشيقته غير مشغول، فكل الأمكنة مشغولة بعشاق متغربين، جنود يكلمون عوائلهم، عشيقاتهم، ضباط لا يختلفون كثيراً عن مرؤوسيهم، كل واحد فيهم يرتكن زاوية في العراء.. لم تكن هناك سوى ساحة العرض، عجلات (هامفي) تابعة لقوة الإسناد موزعة في الساحة.. المكان ضيق لا يتسع لغزل العشاق، فرحة العاشق بالانطلاق والحرية.. أدخل رقم هاتف

نـداء فـي نقـال صـاحبه، وضـغط زر الاتصـال.. علـى الجانـب الآخـر بشـرى الأم، رن هاتفهـا، عرضـت الشاشـة أسـم منشـد، فتحت الخط بسرعة: أهلاً.. أين أنت يا رجل..؟
أستغرب أحمد، بعد أن فهم من سؤالها أنها تعنـي منشـداً، فتعمـد تصنع صوت صاحبه مصحوب ببحة وكحة: أهلاً بشرى.
بشرى مستفهمة:
ـ ما بك.؟ أنفلونزا.!
أحمد تنحنح:
ـ مجرد.. حم.. حم.. وعكة.. أظنها أنفلونزا الخنازير.!
بشرى بتحاذق:
ـ كفاك الله الشر.
لا يجد احمد ما يستدرجها به، فهو لا يعرف أيما كـلام دار بينهـا وبين منشد، وما لعله فاعل فيما إذا اكتشـف أمـره، وكيـف يبـرر ذلك.. بالتالي قال لنفسه: (إني أريـد البنـت، لا أجـد فـي الأم، مـا أرغب فيه وأتمنى).. فواتته فكرة سريعة، قائلاً:
ـ ما أخبار نداء.؟
تندفع بشرى على سجيتها:
ـ أخبارها جيدة، ولا أظنهـا تمـانع أو تعتـرض علـى مشـروعنا، واعتقد أنك تعرف ما حدث من تطورات.
احمد، مستفهماً:
ـ ماذا.؟
بشرى:
ـ ثمة تطور ملحوظ لبداية علاقة جديدة مع صاحبك احمد.
احمد بمواربة ودهاء:
ـ احمد صاحبي، ما نوع العلاقة.؟

غلب على بشرى السكوت فهي لا تدري بالضبط ما نوع العلاقة، وإلامَ تشير.؟ فثمة فارق كبير بالسن والعادات والطبائع، وحارت فيم تجيب وبدت مستفهمة، من باب الحرص، بقولها:
ـ أصدقني القول، ما رأيك بأحمد.؟
ـ بم تحديداً.؟
ـ بكل شيء.
احمد يحك فروة رأسه، وعاد يتنحنح، لكن هذه المرة بشدة وحيرة، لا يدري فيما يجيبها، كيف يمتدح نفسه إليها، شعر بقشعريرة في بدنه لعنف ما مُني به من امتحان، هو يدرك انه عاشق متفان بالطيش ثمل بالجمال، سكران بثنايا امرأة فاتنة، مترنح بنهدين ناهدين متباعدين افلتا من صدرية قميص ضيق.. كل ما في نداء قاتل وفتاك.
استفزته بشرى بصوتها: أنت معي.
احمد، منتبهاً: نعم.. نعم.
ـ إذا كنت تشعر بحرج من إجابتي فلا باس عليك بإبلاغه.
ـ بم.؟
بشرى بدفءٍ وحنية:
ـ إن نداء رقيقة ومهضومة وجادة في علاقتها معه، فإذا كان..
قاطعها احمد وعلى وجهه بانت بشائر النصر والخير والانفتاح؛ أخيراً تبسم له القدر، وحالفه الحظ بقوله: لا تكملي فانه أكثر تشبثاً بها، وهو ارق قلباً واشد حباً..
قاطعته بشرى بقولها: لكنه متزوج.
استغرب احمد لتفاهة هذا القول، متسائلاً مع نفسه: فماذا كانت تظن عندما تعرفت عليّ.؟ وما الذي يجعلني أعزب وقد بلغت

نيفاً وأربعين عاماً.؟ وهل رأي نداء بان اترك زوجتي لأحظى بحبها وقلبها الطفولي.؟ ما هذا الجنون.؟
وظل حذراً مخافة أن ينهي ما بناه، خاصة بعدما اغتنم غنيمته الكبرى من هذه المكالمة بالذات، بالتالي هو قد فاز بما تمناه.. للحظة تذكر بأنها لوهلة أخبرته ثمة مشروع بينها وبين منشد، رأى أن يعرف ما دار بينهما من حديث، فهل إن منشداً وعدها بشيء؛ فلم يجد سوى أن يقول لها:
ـ أخبريني عنك.؟
بشرى مستسلمة كلياً:
ـ أنت لم تجبني بعد.!
ـ عم تسألين.؟
ـ الم نتفق.؟ أنسيت ذلك.؟
لا يدري احمد ما يفعل فهو يشعر بالتطفل على خصوصيات صاحبه، خاصة انه قلما أخفى سراً عنه، فما نوع هذا الاتفاق المبرم، الذي لم يتطرق له، هل هو الزواج.؟ احمد يرمي ذلك وراء ظهره فهو يعرفه جيدا هو من أشد الناس حرصاً على حياته الزوجية، ولا شيء يمكن أن يثنيه عن عزمه بالعزوف عن الزواج ورفض كل قضايا العشق التي دائماً ما يسميها بالمراهقة المتأخرة، وسوء العاقبة، وتذكر ما حدثته آنفاً بخصوص ما أوصت به منشد بشأن الطفل والنفقة، فسرعان ما صرف الموضوع عن ذهنه، مخافة أن تعيد سيرته، ويفتح عليه باب لا يسد، وانْ غلب على تصوره أن هناك أمراً أكبر من حفيدها ونفقته.
استطالت بشرى صمته، وبشيء من الحياء:

ـ إذا كنت ما زلت مصراً على رأيك، فانا موافقة، ولو أني ما زلت أفضل ما قلت لك.. صدقني ستجد سعادة قلما سمعت بها أو رايتها ولو بالأحلام.
احمد أطبق عليه السكوت؟، خيم عليه الانشداه، فغر فاه، إذناه كانت مفتوحتان حد الجمجمة، وكأنه يسمع ما يدور في الأفاق النائية.. إلى أن سمع صوت منشد ينادي عليه من نافذة حجرة المنام، بعد أن استبطأه طويلاً.. فأغلق الخط، ومشى نحوه بخطى مسرعة وهو يجمجم بكلام لا يفهمه أحد، حتى نفسه المخبوءة بين جنبيه، بدت منزعجة منه لكثرة ما يردد من كلمة ابن كلب.. وعلى الفور مسح المكالمة من سجل المكالمات، ودلف للداخل.

****

دخل احمد الحجرة، وجد ثلاثة ضباط من زملائه الذين جاءوا لزيارته اثنان منهم من أبناء دورته دورة أبناء العراق، والآخر من الدورات الجديدة برتبة ملازم، عانقهم بحرارة وهو يقدم أحر تحاياه الطيبة لهم بالترحاب والأشواق.. كما بادلوه التحية بنفس الحرارة.
جلس بينهم وقلبه متعلق بأمر آخر، وهو يرمق منشداً بغضب شديد متصنعاً البسمة وان كانت أشبه بتكشيرة حانق.. ما كان في وده أن يتكلم بكلمة واحدة، يفضل الخلوة مع نفسه، الانفراد بصاحبه ولو للحظة واحدة، كان في وده أن يعرف ما يدور بينهما من وراء ظهره، وجد نفسه ساذجاً بل بليداً وتافهاً فهو لا يخفي سراً عن صاحبه، إلا إن أصحابه أشبه بالبحور اللجية.

صاح به ملازم أول جسام أحد الحاضرين: هه سيدي، انه العشق من جديد.
منشد يلتفت إليه، ويرجع ينظر إلى نفسه، هندامه الرتيب على شكله الكئيب: أشكالنا لا توحي إلا بالبؤس والتعاسة.
جسام يهز برأسه إيجاباً: هذا هو حال المحبين.
ثب عليه منشد: لا تهيج عليه المواجع، انه ارق من نسمة الجنوب.
احمد لم يطق صبراً وانتظاراً حتى نفث ما في صدره: الخيانة هي وجعي واشد آلامي.
اصفر وجه منشد فهو لم يعهد مثل هذه اللغة من صاحبه في حضرة آخرين وان كانوا مقربين منه، ودخلته نوبة من الغضب والحمق الأرعن، ما عاد قادراً على كظمها، وكاد أن ينفجر به لولا أن تماسك قليلاً، لكنه ما زال يرتعد بقوله:
ـ تخوّن من.؟ يا..
بعد ما أوصل احمد الفكرة، وجد نفسه مرتاحاً فعرّج قائلاً: يا، ماذا.؟
ثب نقيب حسان الضيف من مكانه، ملاطفاً بقوله: يا عاشق.. ماذا تراه يقصد غير كلمة عاشق ومفتون، وإذا ما اشتد الحديث، وعلا صوت الغزل يستبدلها بكلمة مجنون وللحديث بقية وشجون.
ارتسمت على الوجوه بسمة رحبة وضحكة فاترة، وتلألأت ومضة التنفيس والطرافة.. هدأ منشد إلى حد بعيد، واسترخى وهو يستغفر ويردد: لعنة الله على الشيطان.. لعنة الله على الشيطان.
في هذه الإثناء دخل الجندي (صبيح) أكثر الجنود ثرثرة ولغطاً وطرافة، فهو يحظى بشعبية كبيرة بين الكثير من الجنود

والضباط، كونه متملقاً جيداً ومتكلماً بليغاً.. كان احمد كثيراً ما يقربه إليه خاصة في واجباته الليلية (الدوريات) للاستمتاع لأحاديثه حيث يتمتع بفن الأحدوثة ودائماً ما ينعته بقولة مشهورة: (ما أجمله من كاذب).
كلمات منشد ولعناته تزامنت مع دخول صبيح، فقال نقيب حسان المشهور بظرافته: ها هو الشيطان قد أتى.
ما كانت هذه الكلمة لتزعج صبيح فقد اعتاد على أكثر من ذلك، وهو دائماً ما يعيد ويصقل مقولة: (من يمازح يناطح، ومثلما ينطح يُنطح).. قام بتوزيع علب (البيبسي) وعندما وصل إلى نقيب حسان، قال وهو ضاحكاً: خذ بيد الشيطان، وقم إلى جهنم. فضحكوا ضحكة طويلة.
ثم سأله ملازم عبد الستار: ما هي أحدث الأخبار.
تربع صبيح وجلس بعدما لم يسمع منهم كلمة تفضل قائلاً: اسمحوا لي بالجلوس.
هز منشد يده قائلاً فعل ما يريد ثم استأذن.
صبيح بتذاكٍ: (أنها الميانة، أو كما يسميها نقيب احمد: أنها (السيانة).
نقيب احمد: اجب القوم.. يا مفتي المدن الغابرة.
صبيح: اعذرني سيدي ملازم عبد الستار، فانا اليوم لا أحظى بأي احترام، النقباء كلهم ضدي، ولا أظن بأن شفاعة الملازمين تنفعني.
ملازم عبد الستار: ستنفعك شفاعتنا إذا ما أطربتنا بحديثك الشيق.. أخبارك الفسنجونية.
صبيح يردد كلمة: أخباري الفسنجونية أو الفستقية.. سمعت إن هناك سلفة تقدر بثلاثين مليون دينار إلى الضباط الكبار، وقطعة أرض تكبر مع حجم الرتبة والمنصب.

ملازم عبد الستار عن خبث ومكاء: أي ضباط تحديداً.
صبيح: من عميد فما فوق، ها.. وإذا كنت تسال عن الأدنى، فهم إلى ما شاء الله.
ملازم أول حسام متذمراً: مطروقة.. أخبرنا بجديد ما عندك.؟
نقيب حسان يعرج على كلام صبيح بازدراء بالغ: فعلاً إن هناك مشكلة وخللاً ما.. فمن رتبة عقيد فما أعلى، هم من القياديين البارزين في الحكومة السابقة، الذين قد تسلموا أكثر من قطعة ارض وبيت وسلفة عقار وكذا سيارة وكذا منحة دعماً للولاء، وها هم اليوم يحظون بنفس الامتيازات؛ ولربما أكثر، أليس من الأفضل أن يبدأون بالجندي فما صاعد.؟
صبيح نزلت عليه هذه الكلمة كالماء الزلال، وبرضاً وإعجاب:
ـ الله يرحم أبويك، ويسلمك وزارة الدفاع.
منشد هو الوحيد الذي يجد ضرورة الدفاع عن الحكومة وعن مخططاتها المستقبلية.. رأى من الحكمة إن يتصدى لهذا المد الجارف للبنة الأساس في بناء الدولة الحديثة بقوله: الحكومة لم تنسَ رعيتها، ولكنها تحذو بسياسة المراحل/ خطوة خطوة في البناء والعطاء.
صبيح متداخلاً: لو سمحت لي سيدي العزيز، إن والدي موظف حكومي عمره المهني أكثر من ثلاثين عاماً، وهو لم يملك حتى هذه الساعة قطعة ارض، بل لم يملك شبراً واحداً.
منشد متعجلاً: إن أباك هذا إما غبيٌ إلى درجة انه لم يستطع أن يدبر نفسه وإما انه ربيب كَيَفٍ ومزاج.
صبيح مدافعاً: صدقني سيدي، لا هذا ولا ذاك، لكن لا هذه الحكومة أنصفتنا ولا تلك.
يصادق حسان قوله: الحق ما تقول، فلا مكان للفقير بدولة الأغنياء، كما لا مكان للحملان في غابة الذئبان.

منشد بانكسار: أنها دولتنا.. حكومتنا..
قاطعه جسام: نحن لم ندافع عن دولة بعينها، بل دافعنا عن قضية، وهاهي اليوم تتكرر بنفس المآسي، فلكل شيء حدود، والظاهر إن هناك تجاوزاً بيناً لكل الحدود.
احمد طعناً بصاحبه منشد: إن أكثر ما انتشر اليوم هو منظمات بلا حدود، مراسلون بلا حدود، أطباء بلا حدود، مثقفون بلا حدود.. واشد ما نراه لصوصاً بلا حدود.
منشد يحك بشيبة جانبه الأيمن، وهو يقول: لا أدري ما عساني أن أقول لكم سوى أنكم تنظرون من منظار ضيق.
حسان باستياء: عزيزي أننا نخادع أنفسنا، إذا ما أغفلنا عن حقيقة مفادها أننا فاشلون.
بينما كان لجسام رأي آخر: لا نستعجل القرار، ولكننا نقول إذا لم نعمل وفق ما يتطلبه الواقع اليوم سنفشل في كسب ثقة الجماهير.
ملازم عبد الستار مغرضاً: لا أظن إن هناك متسعاً من الوقت لتصليح أخطائنا.
جسام يدافع عن قراره: مازال أمامنا الكثير، فبيت الله لم يبنَ بليلة وضحاها.
صبيح ضاحكاً: وحكومتنا لم تلبث ليلة وضحاها بل هي سبعة أعوام.
كان في ود منشد أن يطرده إذا ما كان يفضل أن يلكمه على فمه، لكنه يجد في ذلك اهانة لنفسه، لما يتمتع به من ذكاء وخلق ودين، فصاح به:
ـ سبعة أعوام لا تكفي لبناء خمسة وثلاثين عاماً من الخراب.
حسان: هذا إذا ما أضفت سبعة أعوام على خمسة وثلاثين عاماً خراب بخراب.

ـ إن أعداءنا كثيرون، وهذه تداعيات الديمقراطية.
هكذا أجابهم منشد.
بينما جابهه ملازم عبد الستار بقوله: فليأخذوا الديمقراطية، ويعطوننا ابسط لوازم الحياة، الأمن، الاستقرار، التمتع بحقوقنا وثرواتنا.
منشد محارباً يذود عن معتقده وما آمن به: ها هي الديمقراطية.
لم يستطع ملازم عبد الستار أن يجيبه كونه مقتنعاً أيما قناعة بالدفاع عن حكومته، خاصة وانه ينتمي لذات الحزب الحاكم.
حاول صبيح أن يقلب الموازين بمكر ودهاء: نحن لا نريد سوى أشياء بسيطة قد لا تكلف الدولة الكثير، نريد فرصة عمل، وقطعة سكن، وكهرباء وكل ما سواها فهي أمور ثانوية.
هذه المطالب حظيت بقبول الجميع.. ووجدها نقيب احمد من الأمور الكفيلة باستتباب الأمن واستطباب النفس العراقية الجريحة بقوله:
ـ والله أنها لمطالب صحيحة، ولا أظنها البتة تتعارض مع الديمقراطية.
وأثنى عليها ملازم أول جسام بقوله: والله أنها ما أن تتحقق ستكون بمثابة قفزة نوعية، ومكسب انتخابي كبير سيغير الموازين.
بينما ذهب ملازم عبد الستار مذهباً آخر في الذم والتقريع: وهل الحكومة غافلة عن ذلك، وهي تسمع لمثل هذه المطالب تتكرر لآلاف المرات يومياً.. لكنها التفت إلى مصالحها كبادئ بدء، ومازالت واقفة عند هذا الحد، ولا أظنها ستتقدم خطوة واحدة إذا لم تخط عشر خطوات مثلها لنفسها (الزكية).
انقسم الجميع لقسمين، القسم الأول: أشد امتعاضاً وطرباً بهذا الحديث والذي يعبر عما في مكنون أنفسهم وخزينهم المتقرح،

بينما كان القسم الثاني: اشد امتعاضاً لاعتقاده بـان هنـاك عمليـة نسف لكل ما قدمتـه الدولـة مـن تضـحيات.. فتوصـل منشـد إلـى قول: إنكم لا تريدون أن تعترفوا بمنجزات الحكومة الحاليـة، إلا إن تستلموا صكاً لا يعدو أن يكون إلا أشبه بصـك الغفـران، فيـه الجنة والنعيم والمال والغلمان.

بينما اعترضه احمد بقوله: الحق أننا نريد (حرامياً) شريفاً.!

ضحكوا بسخرية متسائلين كيف يكون هذا اللص الشريف.؟

احمد يجيب على استغرابهم: هـذا النـوع هـو الماركـة المسـجلة المرغوبة حالياً، لصٌ شريف مثلما يأخذ يعطي.

لحظات الجموح

حار أحمد حيرة كبيرة، إذ لم يكن من قبل ضال الهدى.. هاتفه النقال ما عاد يفيده بشيء.. صاحبه منشد يخفي عليه أمراً كبيراً يفوق تصوراته.. وهو يدرك أن الخيط والمخيط بيد صاحبه، لكن أنى له أن يفاتحه بذلك، وقد سبق أن انتحل شخصه، وأنها بالكاد جريرة لا تغتفر، مهما كان ما يربطهما من الصداقة وصلات التقارب، فليس من المسموح لأحد إطلاقاً بتجاوز الخصوصيات، لما للأمر من أهمية بالغة وقيمة كبيرة؛ لما أخفى منشد ما أخفى.. لربما هي مفتاح شخصه، وسر اعتقاده.

وأن بدا أحمد يؤكد أن الأمر أشبه ما يشبه الإخلال بالقيم.. وعاد بتفكيره إلى الوراء، القطار وما دار فيه، وبدت تراوده الأسئلة، وتساوره الشكوك: هل اختليا الاثنان ـ منشد وبشرى ـ لفترة طويلة.؟

وهل كان بالإمكان اقتراف وزر لحظة ما يعادل اقترافه بعام.. أن لحظة الإجرام طويلة مثلها لحظة العقوبة.. أنه لا يتذكر شيئاً بالتحديد ملفت للنظر، ما عدا أن الاثنين كانا منسجمينِ للآخر.. لربما أدلت له بالكثير من إفادة المغرمين، لربما ثرثرت كثيراً ثرثرة المعوزين، لا شك أنها ولولت عنده ولولة المحرومين.!

عاد أحمد ينظِم شذرات عقله المبعثرة بقوله: فليكن ما دار بينهما ما دار.. لا يهمني سوى نداء.. أنها تحبني.. هذا ما أكدته أمها.. لربما تعتقدني فارس أحلامها، الذي لم يمتطِ صهوة جواده بعد.. لربما تعتقدني رسول حب، بُعث لإنقاذها من التيه.. إنها فتاة ضالة، ضيعها زوج قاسٍ لم يعرف قيمة امرأة ابتاعت

حياتها إليه.. وافترشت أنوثتها لنهمه المتوحش، أخذ منها كل شيء دون يعطيها لحظة شعور بالأمن، أو أحساس بالسعادة.. في لحظات الجموح كلاهما ينزل وهاد الرغبة، لشعورهما العاري بالنشوة.. فما أن تنجلي هذه اللحظات، إذ يلتفتان إلى نفسيهما المبعثرتين في مرآة الصحو.. أين كانا نائمين، أفي غيبوبة العقل، أم في عقلية التنامي.؟

رنَّ جرس نقاله، صاح فرحاً: زه.. زه، يا رب رن المنقذ الغالي.. ثب إلى نقاله دون معرفة من يكون المتكلم، أسماه المنقذ تيمناً بالإفراج له من كوابيس وساوسه وشياطينه.. نظر لشاشة النقال بحذر، فصاح جذلاً: إنها هي.

وقبل أن يفتح الخط، راح يتساءل:(ماذا لو كانت بشرى هي المتكلمة).. ورجع ليوبخ نفسه ويؤنبها، بقوله: فلتكن من تكون.. وضغط على زر فتح الخط: ألو ـ قالها بصوت دافئ.

أجابته نداء: مساء الخير.

ما أن سمع صوتها، إذ ثب من سريره، وأخذ يدور في عرض الحجرة، ماداً يده باستقامة، محاذاة جسده، وكأنه يريد الطيران، وقد أشرف وجهه بابتسامة كبيرة وفرحة عارمة، قائلاً: مساء النور، يا أجمل صوت وصورة وإحساس.

نداء بغنج صارخ: لمَ لم نسمع صوتك.؟

تلبك قليلاً، ثم قال: حقكِ عليّ، لكن صدقيني فقد غدر بي هاتفي.

ـ هل هو عاطل.؟

ـ كلا.. أعني أغلقوا خطي.

نداء غامزة: اشتر خطاً آخر.

لم تنم أفعال أحمد عن تصرفات سوية، بعد أن بان عليه الارتباك والحرج، ولا يدري بم يجيبها، غير أنه قال:

ـ الحقيقة لم تكن هناك فرصة للخروج للسوق..

قاطعته وبنفس الغنج، إلا أنها زيدت عليه بفرض الحلول، بقولها: أبعث من يشتري لك غيره، فهو السبيل الوحيد للتواصل.
أحمد بشيء من الانكسار: سأفعل.
لكن ثمة تصورات انتابته فجأة، عن مدى حرصها على رصيد هاتفها، فهي لا تريد أن تخسر، أنها تريد كل شيء جاهز.. الرجل هو من يتصل، وهو من يقدم الهدايا وهو.. وهو.! لكنه هز رأسه من هذا التداخل الغريب، وأحس بضرورة اغتنام الفرصة لتبادل أحاديث العشق، أنها أحاديث المساء.. السمر.. الحب الذي تغني له الدنيا، وبفضله تنعم بالبقاء.
نداء كسرت حسيس هواجسه الشاردة، بقولها:
ـ إذا لم يكن بإمكانك الخروج للسوق، فكيف سنلتقي إذن.؟
أحمد صدم بما سمع، أنها تنشد الخروج، اللقاء، أجمل الأماني التي ما كانت تفارق ذهنه، فأجابها بعجالة: سآتي إليك ولو عبرت البحور، أو ركبت المخاطر.
نداء بهدوء تام، تدس أهم أسئلتها: هل أنت جاد.؟
أحمد متقصداً المماطلة: بعبور البحار وركب المخاطر، أم بم.؟
بصوت اشد هدوءاً كالهمس: أنت تدرك ما ارمي إليه، لكنك تعبث.
أحمد، متعذراً: أنا جاد بكل شيء، ويهمني أن أسألك ذات السؤال، فهل أنت جادة على أن تجيبي بصراحة.؟
غلب عليها السكوت، أحست بالهزيمة، فما من أحد في هذا الكون كله قادر على أن يجيب عن كل الأسئلة بصراحة، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بالمستقبل.
ما أن استبطأها احمد، حتى سألها هذه المرة بحكمة وتفهم:

ـ لطالما يصعب على المرء أن يكون صريحاً، لكن لك حق التحفظ بعلامة ترك لكل سؤال لا تجدينه مناسباً.. ومن ثم فطن إلى أنها المتصلة، وهذا ما قد يؤثر على رصيدها، فاستطرد قوله:

ـ لا تنسي تذكيري بأن لك عليّ رصيداً ـ بطاقة تعبئة ـ.

نداء ضاحكة:

ـ لا تفكر في هذا الأمر، فليس مهماً، وعليك بالأهم؛ هات ما عندك.

فبدأها أحمد بأسئلته التي لم يسبق أن أعدها إعداداً جيداً، ولم تؤاتيه الفرصة لتشذيبها بشكل مناسب، فالسؤال نصف العقل ـ كما يقال ـ فهل هو يدرك مدى اللعبة، خاصة إذا ما بانت شطحات غير محمودة العواقب في دائر حديثه، وعرج على ذلك الحس الذي يختلجه بالتلويح، أنها الفرصة لابد من الإسراع باغتنامها، ما يتحتم عليه من تكثيف كل طاقته، ومساعيه في معرفة أكثر ما يود معرفته عاشق بمعشوقته، قائلاً:

ـ هل تحبين زوجك.؟

أجابته ببداهة مطلقة:

ـ أنا غير متزوجة.

حملق بعينيه مستغرباً: ها.. ثم تدارك: أعني طليقك.

بدقة متناهية وتأكيد:

ـ طبعاً لا، وما تزوجته عن حب؛ أنها زيجة أقارب، نظام عشائري عتيد.

ـ أهو أبن عمك.؟

ـ غير بعيد، أشبه بذلك، أبن خالي.

عاد احمد إلى جوهر مقصده، بقوله:

ـ هل بالإمكان الرجوع إليه، لأجل طفلكما.؟

بشيء من المقت والعناد:
ـ لا.. ولا لأجل الدنيا برمتها.
ارتاح أحمد لإغلاقه صفحة كاملة، دائماً ما تعيق درب المحبين، خاصة إذا ما قدموا على الزواج، ودخول العش الذهبي، بيد قد صُعب عليه الانتقال إلى سؤال آخر، فسارع للولوج في صلب الموضوع:
ـ ما نسبة حبك لي.
طرح سؤاله ثم قال في نفسه: ((قد سبق السيف العذل)) ما كان من الضروري أن أتعجل بمثل هذا السؤال، كان من الأفضل أن استدرجها أكثر، أن أعرف مقاصدها.. من هي.. عملها.. تحصيلها الدراسي.. أهلها.. عشيرتها.. ديانتها؟! ورجع للقول إن الحب يذلل المسافات.. بينما لم يسمع جواباً بعد طول انتظار، فصاح بها: أين أنتِ.؟
نداء بهدوء غلب عليه التّروي والحصافة، قائلةً: علامة ترك.
أستغرب أحمد أكثر، لماذا لم تجبه بشيء، لكنه سرعان ما أستحسن الجواب، وعاد الكرة من جديد بسؤال أكثر جدوى: ما تحصيلك العلمي.؟
ـ معهد المعلمات.
أحمد يثني على شهادتها العلمية بقوله: نعم الاختيار ما اخترت.. وأردف: وبالطبع أنت موظفة حالياً.
ـ كيف عرفت.؟
أحمد يتصنع المفهومية والدراية بقوله: لأن لذوي الشهداء الأولوية خاصة في وزارة الصحة والتربية.
نداء تؤيد قوله وتدعم صحته: أصبت.
هز رأسه تبجحاً، ومن ثم سألها عدة أسئلة، تتعلق بالعشيرة والسكن وعرج على بعض التفاصيل المهمة، ما يتعلق

بمنطقتها، أقاربها المتواجدين بالقرب منهم، ومن ذا الذي مـازال على تواصل معهم، معتقداً نفسـه بأنـه المسـؤول الأول والأخيـر عنهم، وما إذا كانت تلاقي بعـض المضـايقات مـن زملائهـا، أو معاكسات من قبل أبناء المحلة وأفراد الجيران، بعد أن تمثل لهـا بدور البطل الذي يذود عن حرمة الحبيب.

وكانت تجيبه بانسيابية وشفافية وكأنهـا تعـرف مـا يرمـي إليـه.. بينما رجع يجمع شتات أفكاره المبعثرة، بسؤال يعتقده صـميمياً، بقوله: ما هي المواصفات التي تتمنيها بفارس الأحلام.؟

كانـت أذكـى مـن أن تضـيع الوقـت بتفاصـيل طويلـة عريضـة بقولها الوافي:

ـ أظن أن كل ما فيك، يؤهلك لتكون الفارس المطلوب.

أفرحته كثيرا هذه الكلمة على الرغم من اختصارها، والتهـرب من الوقوع فـي مطبـات لا تحمـد عقباهـا، ومـن ثـم واتتـه فكـرة كانت قـد اعتصـرت مخيلتـه، طيلـة السـاعات القليلـة الماضـية، بقوله:

ـ هل هناك ثمة أتفاق بين أمك وصديقي منشد؟

نداء مستغربة مع شرود ذهن، لا تجد ما يـدعو لـذلك، وأن كـان من شيء فلابد أن تكون أعلم الناس به، فمـا كانـت أمهـا لتخفـي عنها سراً مهما كان شأنه، فعادت على السؤال بسـؤال: مـا نـوع هذا الاتفاق.؟

وقع أحمد في فخ دون أن يشعر:

ـ لا أدري، ولكني أتساءل.!

بطريقة واعية للاستدراج، بعدما علا شبح الشك عالمها: هل هو تخمين.. أو هناك ما يثبت ذلك.؟

لم يفق أحمد بعد من كبوته الخطيرة.. وهـو يعبـث بلغتـه العـاثرة الضيقة:

ـ أظن أني سمعت أمك تقول شيئاً من هذا القبيل.
بشدة وعجالة: هل تعني نفقة الطفل والرضاعة وما شابه ذلك؟
أحمد بغباوة غير مسبوقة: لا..لا.. أنا أتذكر سبق وأن تحدثنا بهذا الأمر.
لحظات ويستدرك نفسه، أنه في ورطة، بل مأزق كبير، متسائلاً: ماذا صنعت.؟ فعاد لرشده سريعاً مستطرداً قوله:
ـ أعتقد أن الأمر كذلك.. أنها النفقة، وأن زوجك عسكري، ترومون معرفة عنوان وحدته، عن طريق الحاسبة المركزية في الوزارة.

هل أنتِ جادة.؟

الليل أطبق بظلامه الدامس، وروحه الحالكة في جو من الكآبة والحرارة، وانقطاع التيار الكهربائي المستمر، وتلاعب أصحاب المولدات على الرغم من وارداتهم المالية الجيدة، وراء مصائب العالم، حقاً ان مصائب قوم عند قوم فوائد ـ كما قال المتنبي.

إلا هذه العائلة المسكينة التي تشعر بظلامين: ظلامة ظلام الكهرباء والوحدة، وظلامة من لا يرحم الوحدانيات.. نداء يراودها شعور بالإحباط مما يحاط بها.. الكل يتحين الفرصة، زملاء العمل، الجيران، المعارف الآخرين.. حتى من يتقدم لها لا يفتأ تفكيره في مرتبها الشهري.. غير ان ثمة شعور أكبر، بدا ينتابها مؤخراً، بعدما سمعته من احمد بصدد اتفاق بين أمها ومنشد، ما هو نوعه، وألامَ يصب هذا النوع من الاتفاقات المريبة.؟ ورجعت إلى كلام احمد، بعد ان أدلى بدلوه؛ وبعدها فضّل الانسحاب، لكن بعد فوات الأوان.. وعلى الرغم من كونها امرأة عاقلة ومتنورة.. هزها هذا النبأ الخطير، متسائلة: ماذا تريد هذه المرأة ـ الأم ـ بعد كل هذه السنوات من رجل صادفته برحلة عابرة.. متناسية إنها ذات الرحلة وذات الساعات التي جمعتها مع احمد وهي اليوم تكن له كل المودة، بل قد شغفها حباً، وما زالت تصارع كل الأفكار السوداوية التي تعيق تقدم هذا الحب وتناميه.

بشرى الأم تلاعب الطفل (وعد) حفيدها الوحيد الذي لم يتجاوز عامه الأول بعد، تزجية للوقت، وكسراً لطوق الأفكار

والشكوك، وبين الفينة والفينة الأخرى، تصوب بنظرها صوب ابنتها نداء التي يزداد وجهها اكفهراراً وحنقاً.
كانت الأم أذكى من ان تخوض حديثاً دون جدوى، وان كانت الأسئلة تترا عليها لكنها لا ترى فائدة ترجى من وراءها، أسمته بالحديث العقيم، إنهما حتى هذه الساعة، لم يتوصلا إلى اتفاق مرضي بينهما وبين رجلين التقيتا بهما مصادفة، وقد تنتهي بهما هذه المصادفة إلى نفق مسدود.
ما كانت نداء لتقوى على الصمت، أنها ما زالت مصدومة ومتكهربة مما سمعت، فلا جدوى من الصمت وانتظار ما يظهره الغيب غداً.. تحاول جاهدةً ان تتكشف الأمر، وتطلع على خبايا ونوايا الأم، لربما بمكانها إسعافها في وقت مبكر قبل ان يستأسد الخطر، ويخرج من عرين الصمت ويفترس.
فعمدت إلى لعبة الاستدراج، حيث كان اقتدارها في هذا الفن كبيراً، وكالعادة سلكت طريقاً ملتوياً بقولها: أتدرين إننا تعجلنا بالانجذاب إليهما، وكأننا نرمي نفسينا عليهما.
لا يفوت الأم ما ترمي إليه ابنتها من التلاعب والاستدراج، بقولها الذي بدا على شيء من الفتور: اسألي نفسك، فاهتمامك بصاحبك بدا يرقى أعلى المستويات.
نداء، باحتيال: هذا ما أقوله أنا، وسأعمل للحد من هذه التصرفات الطائشة.
بيد كانت تقول مع نفسها: (أنا امرأة ناضجة).. لكن لا شيء من تصرفاتها يوحي بذلك.
الأم تفرك شحمة إذنها قائلة: أنت تعترفين بالخطأ، لكنك غير قادرة على تخطيه.
نداء بانكسار واضح: أنا لم أعش حياة الحب، لذلك أراني متشبثة بهذا الرجل.

الأم: ولمـاذا هـذا الرجـل دون سـواه.؟ هـل عرفـت وضـعه الاجتمـاعي.؟ هـل تـدركين نوايـاه.؟ مـاذا لـو كانـت خـلاف تصوراتك.؟
نـداء بصـوت عـلاه النشـيج: مجـرد إحسـاس، انـه هـو الرجـل المطلوب، أظنه بحاجة إليّ لا تقل عن حاجتي إليه.
الأم، هازئة: ماذا لو كان إحساسك كاذبـاً.؟ مـاذا لـو خـذلتك تلـك الأماني المزعومة.؟
نـداء، باسـترخاء: لـيس جديـداً علـي، فهـذا ابـن خـالي بـاع بـي واشترى.
الأم، جازمة: أظنك ستصابين بصدمة لا تقل عن الصعقة.
نداء تقلب الموضوع رأسـاً علـى عقـب بقولهـا: أراك لـم تجـدي غيري مرمى لسهامك، أخبريني ماذا عنك.؟
الأم بصلابة مصنعة: ها أنا صامدة وصلبة مع أعتى موجة تمـر بي.
نـداء تهـز برأسـها مبتسـمة ابتسـامة تنكيـل، قائلـة: ألـم تكـوني بالأمس تثبين من مكان لآخر بالاستماع إلى منشد.؟
الأم ترمقها بتجهم واستياء: الم يكن لأجلك، واجل ابنك.؟
نداء بنفس التلويحة الساخرة: الم يكن لغيره.؟ كأن يكون الحـب، أو اقله الإعجاب والاستحسان.
الأم بتراخٍ: أبداً، وصمتت هنيهة، ثم استطردت قولها: وان كـان ذلك، فهل في الأمر ثمة حرج.؟
نداء ضاحكة بضحكة فاترة، وكأنها مسكت بأول الخـيط: تعنـين في الحب، أم الإعجاب، أم كلاهما، وان كنت أظن انه أكثـر مـن ذلك.
اهتزت الأم لسماع هـذه الكلمـة، وشـعرت بـالتجريح، مستفسـرة لتوكيد المقاصد، بقولها: ماذا تعنين.؟

نداء بصراحة: أعني مشروع زواج.. أو..
تقاطعها الأم صارخة بها: أو ماذا.؟ قولي.
نداء بابتسامة عريضة: ما بك.؟ لم هذه العصبية.؟ ألم تقولي منذ قليل ان ليس في الأمر ثمة حرج.؟ وبالتالي فهذا حقك.. ليس من حقي ان أنغص عليك حياتك.. أنت امرأة واعية وقد مرت بك كثير من تجارب الحياة القاسية؛ فلا بد ان تكوني قد تعلمت الكثير.
بالرغم مما بدا على الأم من الارتياح، إلا ان خوفاً لم يبارح مخيلتها، لا تعرف أصل مصدره، إلا أنها تعزي ذلك إلى الخوف من الوقوع في الخطأ، الخطأ لا يغتفر بالنسبة للمرأة بكل ما فيها من حسن وفتنة وسحر أخاذ لا يعد ويحتسب، إذا ما فقدت الشرف؛ تصبح امرأة وضيعة لا قيمه لها بأي الأوزان.
وما ان استطالت نداء صمت أمها، إذ ربتت على كتفها، بقولها: أظن منشداً جديراً بالاهتمام والثقة.
الأم نظرتها باعوجاج رأسها: لا أظن ان هناك من يستحق اهتمامنا، وان نوليه الثقة.
نداء تتلاعب وتتحاذق على أمها المسكينة بقولها: لولا شعوري باهتمامك البالغ بمنشد، لكنت سابقت الى عشقه واحتضانه، أجده أكثر تعقلاً واشد حرصاً وتديناً.
الأم: كيف عرفت ذلك، وأنت لم تكلميه حتى.؟
نداء: قلت مجرد إحساس.
الأم متهكمة: هل أنت جادة بما تقولين.؟ انه إحساس والإحساس له دوافعه، وهو يخطئ ويصيب.
نداء: لربما أنت على صح، ولكن اصدقيني القول، ما هو إحساسك اتجاهه.؟

الأم أكثر ذكاءً وشطارة: لا أصدق الإحساس، بمقدار ما أصدق الوقائع.
نداء بشيء من التصنع: نبئيني أيتها إلام العزيزة، ما تقول الوقائع.؟
الأم تكلم نفسها بصمت، وهي صارفة الوجه: الوقائع تقول من حقي أن أحب وأتمتع بحياتي التي أنهيتها انتظاراً بانتظار.. ورجعت إلى نفسها المنكسرة بقولها:(ماذا لو أخبرتها بحقيقة ما يدور.. أنا الأم وليس من حقها أن تقف بطريقي..لا.. لا.. لابد من التأني والتريث، "لكل مقام مقال" ولكن إلى متى أخفي عنها ما عزمت عليه، أنها أبنتي ـ ورجعت إلى فحوى الحديث بقولها: ماذا لو عارضت.. ولربما استهانت بي، فانا لا احمد سلوكها الذميم.. لربما تتصرف معي بأكثر غباءً، قد تشتمني وتقرعني، ولربما لم تنفك عن ذمي واهانتي إلى أمد غير قصير.
نداء تقاطع سلسلة الأفكار والاختلاجات التي راحت الأم سارحة بها، بقولها:
ـ إذا كان الأمر يتعلق بالزواج، فأخبرك مذ اللحظة أني موافقة وابصم لك بالعشرة.
الأم لا تجد في قولها ما يبعث للاطمئنان، ما ان تعترف لها بخبايا نفسها وما تضمره سراً، ولزمت الصمت كحلٍّ وجيه لإنهاء هذا الحوار.
لكن نداء لا يسرها هذا الصمت، بيد زادت من تخوفاتها، ان أخشى ما تخشاه ان تكون الأم قد تنازلت عن جل قيمها ومبادئها بالحفاظ على شرفها وكرامة العائلة، فصاحت بأمها صمتك هذا لا يسر، فأنك ما أن تقدمي على عمل ما بدون النظر لعواقبه، ستفتكين بأسرة كاملة.. الأم لا يسعها إلا الصراخ:

ـ كفى.. كفاك هذياناً، أنت وصية عليّ.؟
نداء بصوت عال: أنا لست وصية عليك، ولكني لا اسمح لك..
تقاطعها ألام بصراخ: أنا من لم تسمح لك، ولا لغيرك بالتطاول، أنها وقاحة.
نداء بنفور واشمئزاز بعد ان وصلت إلى طريق مسدود قائلة: أذن أخبريني ما نوع الاتفاق الذي تتحدثين به مع منشد.
الأم شعرت بالصدمة.. ان صاعقة ما، قد نزلت على أم رأسها، أنها الكارثة.. الطامة الكبرى ان تكون البنت قد عرفت الاتفاق، حتى أنها لا تقوى الدفاع عن نفسها، شعرت بان أوراقها كلها تكشفت أنها الفضيحة، الخزي.
ماذا لو اعترفت لابنتها منذ البداية، تناقشت الموضوع بتعقل فقد باتت اليوم ضعيفة، مهزوزة، لا تقوى حتى على النظر في وجه ابنتها، شعور من الأخيرة بالاستياء من التطاول وقذف أمها بتهمة قد تكون باطلة أو مجرد تكهنات.
بالتالي تظل الأم هي الأم، تلك المرأة التي ناضلت وجاهدت على تربية ابنتها على الرغم من ان هناك الكثير من تقدم لخطبتها، على حد علمها ورفضت ان تفرط بابنتها وتأتي بزوج أم قد لا يرحم، فرجعت للقول: ماما لربما بالغت بخوفي عليك، ولكنني احبك وأخاف عليك، فانا طفلة، ما زالت حتى بضعة أشهر تحت رجل مهووس واشعر اليوم بالحاجة إليه.. انه عطش الرغبة.. فكيف بك وأنت ممن فقدت الزوج لأكثر من عشرين عاما.؟
الأم تطأطئ رأسها، وهي تقول بنشيج ثكلى: أكثر من عشرين عاماً من الانتظار، ما زال أبوك مفقوداً، انقطعت أخباره، وأنت ما زلت مرضعة، لم يرك وأنت تكبرين.. انتهت الحرب وقتها، وتأملت خيراً بعودته الميمونة لأراضي الوطن لا.. بل إلى

ارضـــي الســـخية، المتعطشـــة للنـــدى ورذاذ المطـــر، وعـــادت الوساوس، ولم يعد ولـو فـي الأحـلام، مـا عـدت أرى صـورته، غاب كلياً، سـألت الاسـارى العائـدين عنـه.. لا أحـد يعرفـه.. إلا واحد قال: أنه موجود على خلاف الكثيرين الذين قـالوا استشـهد فـي معركـة تحريـر الفـاو.. الأراضـي العراقيـة كلهـا طهـرت وتحررت، إلا ارضي كـان يحتلهـا الخـوف والوحـدة، ومازلـت أوعد نفسي بعودته، انه عاهدني بان يعود ومعه بشـائر النصـر، كان طائشاً في قتاله غير آبهٍ ولا خائف مما ينتظـره، كـان يقـول دائماً: (لا بـد أن نضـحي للـوطن) ونسـي هـذا الـوطن، الزوجـة الذي تتيه مع ابنة صغيرة، حتـى والديـه لـم يمكثـا طـويلاً بعـده، فالأم أثقلها الانتظار فخطفها الرحال للغـرب بعيـداً عـن عالمنـا، أبوه فقد بصره وهو لكثرما قال: لطالما دعوت وتمنيت ان أراك وأنت تكبر، أنا مـن تسـبب بهلاكـه، أنـا مـن أرسـله إلـى حتفـه ـ وأحجم عن الكلام، واضرب عن الطعام؛ ومات.

ما كادت نداء لتذرف دمعة على الدنيا بأكملهـا فهـي تجـد نفسـها أكثر المتضـررين، وهـي أحـق مـن تبكـي عليهـا النـاس لكثرمـا تعرضت لمضايقات وانتكاسات، لكنهـا صـمدت إلـى أن جاءهـا ابن خالها (ستار) العسكري الذي يبذل نصف راتبه مقابل إجازة شهرية يقضيها في البيت والحانات مـع العـاطلين، بمـا فـي ذلـك اتكاله على مرتـب والـده، وانتهـى بـه المطـاف ليمـد يـده بجيـب زوجته ويشاركها كل فلـس تجنيه،شـاءت أم أبـت ذلـك، متعـذراً بالظروف السيئة المتفشية في البلـد، فأتعبهـا وهـو ينظـر لجيبهـا أكثر مما ينظر لنهديها الممتلئين، انه لا يحبهـا بمقـدار مـا يحـب راتبها، ويجلس ينتظره يوماً بعد يوم هذا إذا ما سـبقه بـالقروض لحـين راتـب زوجتـه، فهـو يـدخن السـيكاير، ويشـرب الشيشـة، وأحياناً الجعة، بما في ذلك مطارداتـه العبثيـة وراء البنـات.. مـا

كان ليسعدها ان تلوذ بزوج هاربٍ من نفسه، متملصـاً مـن ذاتـه عارٍ من كل قيم ومبادئ، مجرد من كل إحساس بالمسؤولية.
احتضنت أمها وشـهقت بعبـرات طويلـة وزفـرات أليمـة، وهـي تقول لربما ابتسم لنا الحظ أخيراً.

مجرد عيون

عصرية صاخبة بالأحداث.. الجو حار، لكنه لم يكن بأشد حرارة وسخونة من قلب ينبض بالحب.. شوارع بغداد الرشيد مزدحمة بالعجلات، مكتظة بالصبات الكونكريتية على الرغم من انه يوم عطلة.. يوم الجمعة.. العوائل تنفس عن أنفسها بالخروج للمتنزهات والحدائق العامة، يقضي العشية بأجواء مفتوحة بعيداً عن ضيقة البيت ليخرج الى اختناقات الشارع ومضايقات الشباب الفارغة للمعاكسات والمغازلات الطيشى.

ما اسعد احمد في هذا اليوم الذي يعتبره يوم السعد.. يوم لقائه الأول، بفاتنة القلب أنها (نداء) دائماً ما ينعتها بأنها اسم على مسمى فهي تنادي على الروح قبل ان تنادي على كل شيء.. القلب يدق ويخفق ويرعد ويبرق.. انه اليوم الذي انتظره العمر كله.. لم يكن ليعد العدة لهذا اللقاء.. الآن بطريقة ما بدا يستدرج (صبيح) الجندي الأكثر ثرثرة، حتى استفاد منه بمعلومات تفصيلية عن ملتقى العشاق أنها حديقة الزوراء الأكثر روعة وانسجاماً لكل من هب ودب في البحث عن متعة وشبه عشق، وعاشق يروم الخلوة عن عين الرقيب.. كان يشك بمجيئها ويعتقدها مجرد لعبة، وضرباً من ضروب جس النبض، بعد ان ضربت له الموعد زماناً ومكاناً.

توقف قبال باب حديقة الزوراء نزل من سيارة التاكسي، علا بصره الى الجانب الأخر أنها هي نداء.. قامت من جلوسها على مصطبة في موقف الباصات، لوحت له ولوح لها.. ما ان عبر الشارع وإذا بعجلة سريعة يضغط على المكابح بعد ان كادت

تدهسه.. السائق لم يجد غير السب، جابهه احمد بالاعتذار، وحمد الله، وعرج على حبيبته التي بان على وجهها الخوف والارتباك، وهي تلوم قائلة: كان من المفروض ان تنتبه وأنت تعبر الشارع.
أجابها وقد اشبك يده بيدها وهو يقول: وان قلت لك ان عيني لم تر سواك، فقد اختفت أمام ناظري كل الصور.
علا وجهها ابتسامة عريضة، وحاول ان يدخل بها من الباب، فاعترضه الشرطي متعمداً:
ـ الرجال من جانب والنساء من جانب.
احمد ضاحكاً: ولكني لا أقوى على التفريط بها، سندخل معاً ولو للسجن.
ما كان يروق للشرطي ان يجامله، لسبب نفسي أكثر منه مهني، وكأنه يتساءل مع نفسه: (ماذا تصنع هذه الحورية مع سمك القرش).؟ حتى صاح به: أخي أنها التعليمات.
فأرادت نداء ان تمتثل للأوامر، لكنه أبى ذلك، فهي اليوم مع رجل يمثل القانون والدولة، فاخرج هويته العسكرية ووضعها أمام عين الشرطي، فنظرها بازدراء وكاد ان يطبق عليه التعليمات لولا ان الشرطي الآخر استنقذ الموقف:
ـ تفضل سيدي العزيز.
ما ان دلفا الى داخل الحديقة شاهد جمال الحياة.. الشباب اللطفاء الظراف والشابات اللاتي يرتدين آخر صيحة، أنها تقليعة الانفلات من الأمر.. الأغلب الأعم منهن من يرتدين البنطلون المضياق، (البوت) الطويل و(البدي) اللاصق على الجسد إذا ما رفعت يدها كشفت عن سرتها وضمور خصرها.. إنهن الأجمل لقصات شعرهن وإصباغهن بالفضي والذهبي وألوان أخرى أقرب لاشتقاقات الذهبي منها لأي لون آخر.. أن أكثر ما يدعو

للاستغراب ما أن تختلي فتاة بنفسها إلا والموبايل ثانيها.. إما تتكلم أو تبعث بمسجات أو أنها تتصنع ذلك وهذه قلما تحدث والتي كثيراً ما يمارسها الشباب دون الشابات وذلك بفضل خدمات أجهزة النقال من دردشة متواصلة (فري) أربع وعشرون ساعة يومياً.

لم يسبق لأحمد ان دخل في مثل هذه الأماكن إلا اللهم للتسلية وتلهية الأطفال.. أما اليوم فهو في فرحة عارمة ليس مثلها فرحة، ما زال يشبك يده في يدها.. إلى إن حضنها من خصرها في الجانب الأخر، دون ان يجد أي ممانعة، فهي لا تقل عنه فرحاً، وهي تنظر العشاق المغمورين في نشوة اللقاء، كأن بغداد كلها طلعت تباركهما، على الرغم من ان الكثير من العيون كانت تطوله وكأنها توحي له: ماذا يصنع هذا المجنون بنفسه، هذا إذا ما كانت تصيح: ما بالها هذه المجنونة تركت كل الشباب لتتمسك بعشيق أنهكته الحياة.

كان مظهره عاديا، غير ان مظهرها كان جميلا قريبا للتحفظ منه للمظاهر الأخرى.. كان في وده ان يصرخ أمام العالم بأجمعه: أنها عشيقتي، افتحوا لي الأبواب.. رفئوني بزوجتي الجديدة، التي لم تربطني بها أي عقد شرعي بعد، سوى عقد الحب.!

كانت حديقة الزوراء من أكبر الحدائق مساحة تقريباً، عن بقية الحدائق والمتنزهات في عموم البلد، وفيها أكثر من مكان ومكان للمتعة والترويح عن النفس، فأشارت أليه بحديقة الحيوانات وان كان لم يستحسن هذا المكان، إلا انه لبى دعوتها، بقوله: حباً وكرامة.

دخل حديقة الحيوانات وقرب شباك التذاكر، سلمهم ورقة نقدية فئة ألف دينار قائلا: نفرين.

فاخذ الجابي المبلغ، واقتطع تذكرة واحدة وقصها ورماها في سلة النفايات، فنظر احمد مستغربا من هذا التصرف العلني الفج، سرقة بوضح النهار وبدا داخله يصرخ: أين أنت يا أمين العاصمة.؟ أين أنت أيها المسؤول.؟

فحدقت نداء بوجهه وهي ترى تعابيره الملونة، وقسماته المتغيرة، فصاحت به: ما بك.؟

هز يده وبان على وجهه الضجر: لصوص بهذا العلن وبهذه الوقاحة.

نداء ضاحكة بهدوء مشرب بالسخرية: لا عليك.. لا عليك، أنما هذا غيظ من فيض.

ولأنه وجدها محقة، سكت كاظماً غيظه وتحامله عليه.. فقالت بنية التخفيف عن غضبه، ومخافة من تحامقه: هيا بنا للطيور.

ما كان ليفوّت هذه الفرصة بدون ملاحة وطرافة قائلا: أنت أجمل طيور الأرض قاطبة؛ لكنك داجنة، وساكنة في قفص من إضلاعي، تتوسدين دفء قلبي نبضي وتشاهدين انفعالاتي.. جنوني.. وهذياني.

كانت تطرب لسماع ما ينشده، فقد بدا كالمجنون الذي يتخبط تخبط شعواء في تيه بلا حدود، وقفت به عند أقفاص الطيور البراهين والطواويس الجميلة السابحة في أطياف من الألوان الزاهية تكشف عن سجادة ربانية أحيكت بدقة، لتعبر عن إبداع غير متناهي، كان احمد يقابل هذه الطيور الجميلة بالإجحاف بقوله: الدنيا بكل جمالها لا تضارع جمالك.. وهو ينشر شعرها الكستنائي، ويمسك بها من زند اشد نعومة من الحرير وأطرى من النسيم.. بدا يفقد توازنه.. الكياسة والحصافة اللذان كان ينشدهما، لا مكان لهما اليوم في قاموس تعامله، حتى ان رجع لنفسه قليلا، فترك زندها وأطلق حريتها، وعاب نفسه على هذا

التصرف المستقبح المجنون، وحاول ان يتصنع الرزانة، لكنه سرعان ما تخلص من المثالية، لا مجال الساعة في داخله إلا الحب.. اليوم يوم القلب، لا داعي لكسر الروابط: فليعذبني الرب.. هكذا كان ينفث لواعجه. في حين كانت نداء اشد ذكاء وفطنة فهي كالذئب المتربص بعين تنظر العالم وعين تنظره، فالابتسامة المرحة غلبت على وجهه.. الارتياح يشع من عينه، ما كان يهمه بمكان تبختر الطاووس مثلما يهمه غنج الحبيبة ودلعها.. ومشت به الى مكان تواجد الدببة، فصاح له: ها انه الدب الفاسق، هذه حبيبتي فأين حبيبتك.

فكانت (نداء) تبادله الفرحة وتضحك لكل صغيرة وكبيرة.. جيدة أو تافهة، أنها تشعر بما أصيب به من ارتياح، هزات ولا الكرسي الهزاز يمكن أن يصنعها برجل سوي.. الى ان التفت أليها وكانت يده ترتجف: أنها كهرباء الحب.!

وبضحكة لطيفة تسأله: إلى أين نذهب.؟ أعني إلى أية حيوانات ترغب.؟

احمد مستمعا بروح وجوارح وأحاسيس: خذيني الى الغزلان.

ـ لِمَ الغزلان.؟

بهدوء واتساع صدر: لأحطم قلبها.. لأكسر تعاليها.. أمرغ انفها بالوحل.. هذه حبيبتي أيها الناس، فانظروا إليها.. معشر الغزلان اسجدوا عند قدميها.

فصاحت به فتاة كانت بالقرب منه، فارعة القوام بارعة الجمال:

ـ فماذا تقول عني.؟

نظرها ملياً، وحاول ان يقابلها بروح رياضية، لكنه لم يقدر فقد استقبح تدخلها وتبجحها بنفسها، فأجابها: أنت جميلة الشكل لكنك بلا روح.

فكان عشيقها على مقربة منه، قد ساءه ما سمع فثار لها: وأنت بلا عقل.
ما كان ليتركه يمضي لولا ان نداء ألحت عليه.. فأحس بان لا جدوى من تضييع هذا الوقت بالصراعات والخلافات مع الآخرين؛ بيد أن الكل جاءت للمتعة والتنفيس عن نفسها، بعيداً عن أجواء مشحونة بالقهر والاستلاب.. وحسبه درسا لا بد من الاستفادة منه، فلكثرما يجد المتطفلين في كل مكان عليه ان يتجنبهم ونحا بها هذه المرة صوب الغزلان، مرورا بالكلاب، نظر الكلب منفردا من نوع (السلوقي) كان ينظر بوجوه الزائرين بعطف وحنية، وكأنه ينشد التعارف مع بني البشر لما فطر عليه من الحرص والألفة، فخاطبه احمد بقوله: والله أنك لا تختلف بكثير من ذاك اللعين الذي يسمع بالحديث ((واستتروا بالمعاصي)) ويكابر عناداً بالباطل.
استمر بالمشي بين قفص الغزلان وبينما هما كذالك أذا بفتاة على وجهها البثور قد نزعت مشبك شعرها الحديدية، فتناثرت خصلات شعرها على وجهها وهي تزج بها خصلة بعد أخرى، وأمسكت بجذع شجرة الكالبتوس الضارعة، وأخذت تخط عليها ذكرى مثلها مثل سائر الشباب الذين ينحتون ذكرياتهم في كل مكان.. كان احمد ينظرها بعمق، وأشار على نداء بالنظر لها.
فعلقت نداء على ذالك:
ـ أنها مجرد مراهقة، تخط ذكرى لا أكثر.
احمد راح بتصور أخر حيث قال: لا أنها تترك رقم نقالها، لعل يتصل بها عاشق ما يحررها من أصفاد الوحدة، بينما كان اثنان من الشباب يرمقانها بتركيز، وبنظرات معمقة، ما أن تنتهي من الكتابة حتى يعرفا ما وراءها، فلمحهما احمد قائلاً: انظري

لهذين الشابين اللذين ينظرانها للحظوة برقمها أو أية دلالة تدل على معلومة تفيدهم بالتعارف.
لم تر نداء بضرورة إجابته، ما أدى لأسفه فانه ليس من المفروض ان يتطفل على الآخرين، تجنباً لتطفل الآخرين عليه.
رأى الغزلان، فخطرت على باله أسمائهن، لكنه لم يعرف إلا القليل كالرشا والرنا والضبي والمها وان كانت الأسماء لا تقل حلاوة على المسمى.. لكنها بكل ما أوتيت من جمال لا تعادل عشر ما كانت عليه حبيبته ـ على حد تصوره ـ فصاح بغزالة محملقة به:
ـ فعلاً أنت جميلة، ومن الإسفاف إن أنكر ذلك، لكنك أمام حبيبتي تنحسرين، ومنها تزدادين ومضاً وبريقاً وحسناً وفتوناً، فهي رائد الحسن وسائر الدنيا الرفد المرفود.
ما كان ليسعد (نداء) هذا الإطراء الذي بدا مبالغاً به أكثر من اللازم.. وان كانت هي بالحق تتمتع بمواصفات راقية.. لكنها كرهت التكرار.. كان في ودها ان يدعوها للجلوس، ان يحدثها عن المستقبل، إن كل ماعدا هذا مجرد ثرثرة وسفاسف كلام.. وبشيءٍ من الجدية في محاولة لإثارته وانعطافه عن عين التصابي وبصوتها الناعم وضحكاتها الممطوطة:
ـ أما آن لنا أن نجلس ونتحدث.
احمد بخفة دم:
ـ نعم.. نعم.
جلسا قرب البحيرة، ما كادت لتجلس حتى أستنهضها: تعالي بنا نركب الزورق.
هناك نوعان من الزوارق المائية الكثيرة المتواجدة بكثرة في بحيرة جميلة، قد ملئت بالعوائل والعشاق وكانت الزوارق كلها ميكانيكية منها تعمل بدافع القدمين ومنها بحركة اليدين، ففضل

احمد الركوب بالنوع الأول، وامسك بنداء واصعدها إلى الزورق الذي أشبه ما يكون (بالفايبر كلاس) وبدون أية محركات ماعدا دوافع ميكانيكية يعتمد على حركة الراكب، فبدر إلى ذهنه سؤال: هل تجيدين السباحة.؟
نداء ببداهة:
ـ بالتأكيد لا.
احمد ممازحاً:
ـ إلا تخافين الغرق.
نداء باستعداد وتأهب للجواب:
ـ قطعاً لا.. فآلاف السباحين هنا وأنت..
احمد يستمر بملاحاته وجداله الممل:
ـ وهل ينقذك غارقٌ.؟
نداء بذات الاستعداد:
ـ بم يا ترى.؟
ما أن خطف احمد السؤال إذ انهال بجوابه:
ـ ببحر عينيك، بكل مفاتنك، بصوتك الملائكي، بشكلك بهندامك، بلسانك البليغ.
استحسنت هذا النوع من الوصف والاستعارات المجازية.. وبادرت لاستغلال الفرصة قائلة:
ـ لا أحب أن أراك غارقاً فأفقدك، أريدك موجوداً أمام ناظري، ان لا تغيب لحظة واحدة، فكيف السبيل لذلك.؟
ما إن جد الجد، بدا عابس الوجه مقطب الأسارير، انفرجت عنه ابتسامة صفراء سيئة، لا يدري كيف يعبر عن رأيه، ضاقت به الأجوبة، فهو مرتبط في أكثر من مكان: الأهل، الزوجة، البيت، المقدرة المالية، أهله، ناسه.. لم يجد مكاناً، سوى اللجوء للحيلة،

واللواذ بكنفها حتى حين.. فاخذ بكفه ماء، وغسل وجهه الذي بدا ساخناً، ورمى ببلل يديه على وجهها قائلاً:
ـ فلنتكلم بصراحة، ما الذي تريدينه بالضبط وبدون حرج.؟
ما كان يروقها هذا السؤال، إلا إنها استبشرت خيراً بوضع الأمر على المحك، فا جابته:
ـ أنا اعرف ما أريد، فهل أنت تعرف ما تريد.؟!
حيرة السؤال، الحق انه لا يعرف ما يريد، فالزواج ما تريده المرأة وتطمح له، على العكس من الرجل المتزوج الذي تعيقه الارتباطات، والكثير من الالتزامات، فأجابها بجواب ملتو:
ـ أنا أريد الحب.
نداء بقهر: لكني لا أبيع الهوى فارحم، الحب في بلدي اعتم.
احمد بنوع من الفجاجة والسذاجة:
ـ لنعيش أجمل قصة حب، لنكون أسطورة للعاشقين، ليفتتن بنا كل مراهق، ويحلم بنا كل ناشد هوى، أو متعثر حظ.
نداء بسخرية وتداع:
ـ وبعدها ما هي النتيجة.؟
احمد يسترق الجواب:
ـ حينها لكل حادث حديث.
نداء بملل:
ـ لا أظن من المقنع ان نسوّف ونماطل بتكفل المستقبل ذلك، نحن من نصنع المستقبل.
احمد متداخلاً:
ـ ولكننا أبناء اليوم، مازلنا لم نتخط عتبة الماضي بعد، مازال أمامنا الكثير، ولربما تنفرج الكثير من المعوقات، فلنربح الوقت بالتعارف والتقارب.

وان كانت نداء غير مقنعة بتبريرات هي ذات التبريرات التي فشل بها المنظرون وصناع القرار، فعادت لتجس خلال نفسه بقولها:
ـ هل تعاهدني ان لا تحنث بحبي وتكسر قلبي.
احمد لم يجد بدا من الاستماع لها والانصياع لكل مطالبها، ما أن عدلت عن فكرة الزواج وأرجأتها إلى ما بعد التعارف، وصناعة قصة حب ولا بالخيال، واحدة من أجمل أساطير الحاضر بقوله:
ـ أعاهدك أبداً ما حييت، ألا أفرط بك مهما كانت الظروف.
وعادت عليه الكرة:
ـ أتعاهدني إن تبقي حبنا شريفاً وعفيفاً كحب النجباء.
استوقفه هذا الطلب، وان كان لا مناص من الحنث بهذا الوعد، فالحب الشريف كالبدر على الرغم من عذريته؛ يواقعه الخسوف.
وما ان استبطأته، إذ صاحت به:
ـ ها.. تخاف الحنث، والنكث.
فاضطرها الأمر إلى أن تمسك بيده وتعتها للمضي معها.. فانقاد مسحوباً، مرحّباً بهذه المسكة، كانت كالطفلة التي تود اللعب فرحة مرحة تناست كل همومها لحظتها، بيد كان احمد يبادلها ذات الروح فهو على الرغم من بلوغه العقد الرابع إلا انه كان يشدو بروح طفل.. وكأن سنه لم يتجاوز بعد سن المراهقة، فتىً طائش، باش الهيئة، يثب من مكان لآخر، طائراً من السعادة.

****

مـررت بـه صـوب المشـاتل، حيـث أنـواع الـورود الزاهيـة والروائح الزكية، فكل مشتل يعبر عن واحدة مـن بلـديات بغـداد تشـكل أشـكالاً جماليـة رائعـة كإبـداع رسـام، أفنـى عمـره فنـاً وتسكعاً.. كانـت نـداء تخبـره بـأنواع الزهـور بمـا فيهـا الزهـور الغريبة لتركيبات عجيبة فالآس والياسمين والنـرجس والرازقـي والأقحوان، والسوسـن والجـوري والبنفسـج والنسـرين والـدفلى والأسفنجي، وفصائل أخرى تشكلت على شكل خارطة العـراق، وخارطــة العاصــمة، واحتفــت بعــض المشــاتل، بالتراثيــات، فالسمك المسقوف، وغيرها.. فقد كانت نقوشها لا تقل جمالاً عن سجادة فارسية، رسمت بحنكة، وحيكـت بدقـة، وبأنامـل عراقيـة مبدعة.. كان أحمد يتمنى ان يلتقط أكثـر مـن صـورة معهـا، ولا مكان أكثر جمالاً من هـذا الموزاييـك الملـون الـذي تمنـى احمـد بقوله: ماذا لو اجتمعت كل أطياف النزاع تحت خيمـة المواطنـة كمشتل واحد وان اختلفت إزهاره.

بدورها نداء بادلته ذات الشعور؛ لكنها نفت بلوغ هذه الدرجة:

ـ نتمنى ذلك؛ ولكن الى أين تذهب التجار.؟

هذه المرة الأولى الذي يحس بمـدى قوتهـا ومسـتواها، كمـا أنهـا المرة الأولـى التـي تخـوض بمثـل هـذه المواضـيع وتـنفس عـن معتقداتها.. ود ان يجاريهـا بالحـديث.. ان يـنفس عـن نفسـه.. ان يعرف توجهاتها.. لكنه أبى ان يضيع فرحتـه، ويغـتم بحـديث لـم يجلب غير الهم والغم.. انتهى بهمـا المسـير الـى الألعـاب.. إنهـا المدينة الأكثر جمالاً في حديقة الزوراء، فقد كانت تعـج بـالكثير من العوائل، شبان وشـابات يتنطعـون مـن مكـان لآخـر، العـاب حديثة، وهو يرى ان بعضها مروعة، خاصـة وهـو يـرى تقلبهـا في الأعالي.

فهو لم يعهد سوى دولاب الهواء، والأراجيح، وسيارات التصادم، والألعاب الأخرى التي بدت مهملة، يحاول المجتمع البغدادي ـ بالذات ـ تناسيها.. وهو يقرأ الأسماء بإمعان، مخافة ان يتعرض لسؤال ما؛ لكنه وان كان معجباً بتطور هذه المدن، والألعاب المربحة والمريحة للنفس وحب المغامرة، كان في الوقت نفسه مستنكراً للصراخ المفتعل، من قبل شباب طائش يحب الظهور ولو بملبس المخانيث.! فهذه لعبة (الديسكفري) الطبق الطائر في الهواء التي تكشف عن مدى قوة النفس، والإصرار في ركب المخاطرة.. ولعبة (السايكلوب) التي تزيد عن غيرها خطورة وهي تتقلب بأعمدة طائرة تضارع الإعصار.! بلغ النفق المرعب وهو يضحك، ويقول في نفسه: ان ما يرعب فيه حقاً أن تختلس قبلة وردية من حبيبة، وتسقط مغمياً عليك من شدة العذوبة واللذة.. قبلة في نفق اشد خطورة، من ان تصارع الجان في غياهب الأرض، وصياصي الوحوش.

استوقفه موقف ثلاث فتيات، يركبن عربة تجوب هول النفق، وقد توزعن كل واحدة جلست على مقعد ثنائي، ما سارع إليهن بعض الشباب الطائش، ليركب كل شاب بقرب شابة.. تتقدمهن فتاة ترتدي قميصاً اصفر فاقع اللون، كبقرة بني إسرائيل، شبه عارية، كاشفة عن صدر كمطار بغداد بعد الاحتلال، فيه أكثر من حريق وسكراب ونفايات.. وزندين لا يقلن اكفهراراً من ظلام مدن أوربا الغربية بعد الحرب.. غير ان الوجه كان كساحة معركة، أشبه بسبخة (نهر جاسم) لما فيه من البثور والبقع السوداء.. قد كانت أكثرهن نشازاً بالفعل والقول والخلقة، ما ان خرجوا من النفق المرعب خرج الشاب الذي كان جالساً

بقربها، وهو يكلم أصدقاءه: لا شيء اشد رهبة وترويعاً في هذا الكهف منها وكأنها امرأة الظلام.
ما ان سمعه احمد، إذ كلمه بدون إذن أو مقدمات: مسكينة هذا قدرها.!
فأجابه الشاب بازدراء بالغ: بل قل مسكين فانه (جرو) مخنث.!
تعوذ احمد من شرور الشيطان وانطلق وهو يتساءل: ماذا حدث للدنيا؟ الشباب أكثر ميوعاً وتخنثاً ومُثيلين.! فان في بلدي كذا مليون عانس وأرملة ومطلقة، وهن أكثر عفة من شباب يتشبهون بهن؛ لوطيين يبحثون عمن يواقعهم، ويوقع على أدبارهم معاهدة الحضور في ساعة الهيجان.

تداعيات امرأة

لم تكن اليوم نداء حالها بالأمس، هي اليوم أكثر نشاطاً وحيوية واشد متعة وسعادة، هي اليوم مصممة على كسر القاعدة وبالكاد فعلت.. وما زالت مصرة على ان تبتدع الأفكار المناسبة في بناء حب مثالي يحكي به الخلف بعد السلف.. إنها تدرك إن لكل قاعدة شواذ، فولجت من هذا الباب.. قالت له: احبك. في لحظة كان لم يكد يقوى على النطق بها، وشرطت عليه ان يكون حباً عفيفاً نقياً كنقاء البحر. في حين لم يكن مستعداً على ان يملي شرطاً واحداً بالمقابل.. انه ما زال يظن انه الرابح فتاةً ولا بالخيال، حلم قديم خرج بأسطورة من الحور، ما كان لمخرجي هوليود على مقدرة بتصويرها وعلى الرغم من سماتها الشرقية، عجزت بوليود هي الأخرى من إنتاج شكل يطابق صورتها، فجأة كسرت كل الأطواق، وكل القيود لتلتف حول قلبه، انه يسمع نبضاً وخفقاً لكنه لم يتيقن بعد، إذا ما كان قلبه من يخفق، أم هي من تطبل على صدره؟

ما كانت الأم بشرى الواقفة تنظر بين إفريز السياج الخارجي قدوم ابنتها التي داهمها الليل.. أنها لا تحب ان تشعر بالوحدة.. لا ترغب بان يخطفها أحد منها، إنها تعودت عليها، بل لا تملك غيرها.. تذكرت أيام زفافها ـ هي ـ كيف إن أمها ودعتها بالعويل بدل الهلاهل والزغاريد، وكيف لازمتها في بيت

زوجها، حتى ما كاد بإمكانه الدخول بها، كونها كانت تشاركها ذات الحجرة، حتى ان عمتها ـ حماتها ـ سأمت ذلك، وأقسمت إذا لم تبتعد عن طريقها، فإنها ستخبر الشرطة في ذلك، وما ان أخرجوها من حجرة ابنتها، ودخل عليها الزوج، كانت الأم مضطربة قلقة، ما ان سمعت صراخ بنتها، ثبت فزعة وجلة، وما أن تكرر سماع صراخ بنتها فإذا هي تزبد وترعد وتهدد بالانتقام، لا تعرف ما كانت تتكلم به سوى شعورها بالخوف والحنية المفرطة، وما عاد يسعها تذكر ليلة زفافها التي لم تختلف عن ليلة ابنتها كثيراً.

فتحت نداء الباب، دلفت للداخل، لمحت وجه أمها الذي بدا يتفصد عرقاً لشدة الحرارة، وهوس الذكريات، وتداعيات امرأة مغلوبة على أمرها، مقهورة في الحياة، ذليلة في الحب، وقحة في الأماني، لئيمة في المراجل.

سارعت لتقبيل أمها بروح، ليس بشفاه خافتة الإصباغ، ذابلة العود، بدون سقاء ولا انتشاء.

لم تستطيع ان تعبر عما يختلجها من أحاسيس، ويبارحها من هواجس، أنها مفعمة بالحب، تشع من قدها ومضة وردية، ومن بين ثناياها حديث غرام وهيام.. أخذت تدور حول أمها كطفلة تدور حول شجرة سامقة، وهي تصيح: أحبه يا أمي، أحبه، ما أجمله، فهو لا يقل عني حباً، كبير بروح طفل، ما أظن مثل روحه تهرم.

ـ ولكني أخاف عليك الهرم، الحب المتسرع نهايته الندم، والندم يشيب الروح.

نداء متفائلة: أعوذ بالله من هذا التشاؤم.

الأم بانكسار: تعرفين كم احبك وأخاف عليك، فلا أحب لك الفشل.

نداء محملقة بوجه أمها باستغراب: كلامك لا يشبه كلام الأمس ـ وكان كلام الليل يمحوه النهار.
الأم بنشيج كالنحيب: لا تقولي ذلك، إنما كان في ودي ان تتعرفي عليه أكثر، إن تخبري مقاصده، لا ان تقعي في فخاخه.
نداء مستهانة: وما أدراك، لعله من وقع في فخاخي.
الأم: أتمنى ذلك، ولكنك لا تنسي انه صاحب خبرة؛ بحكم سنه، الذي يعادل ضعف سنك.
نداء تصد بوجهها عن أمها قائلة: كأنك تلمحين إلى كبر سنه لا لخبرته، فمتى كان كبر السن يشين الرجال.؟!
الأم بهدوء: لا ترتابي بقولي، وتظني بأمك سوءاً، أنا ككل الأمهات اللاتي نذرن أعمارهن من اجل ضناهن.
نداء لم تجد بكل قواميس اللغة، التي تعلمتها ما يدعم اعتذارها ويعزز انكسارها، في وجه أمها المتوهجة حباً وحناناً.. فتأخذ بيد أمها، وتسحبها إلى داخل حجرتها بدون كلام، وأجلستها على سريرها.. خلعت نداء حذاءها الطويل، ومن ثم نزعت قميصها الحريري، كشفت عن نهدين يلوذان بغلالة سوداء مزركشة بزخرفة ذهبية، وسرة كقفل أسطوري لمخابئ سرية، وخصر مضمرة، هيفاء البطن كأنها لم تحمل ولم تنجب، وقفت أمام المرآة، نظرت لصدرها بتركيز دون سواه من سائر الجسد، خلعت (السوتيان) انفرج عن نهدين صغيرين مدورين افترقا في جبهتين، وانضويا تحت جسد متمرد مشاكس، متأهب للمشاركة في معارك الهوى، على قدر كبير من القوة والعزيمة كهزيم الرعد، شديد القوى، لكنه يبحث في أمهات الأماني عن حب أفلاطوني.
فصاحت بها الأم: كفي من التحديق في المرآة، والعُجب في القوام.

نداء ضاحكة، وهي تراقب بريق أسنانها الجليدية المنتظمة كمسبحة بيد خراز قائلة: أتعرفين ما قال لي احمد.؟
الأم تهز رأسها مستفهمة.
تستطرد نداء قائلة: قال لي: اشك بأنك إنسية خالصة، فان بك خليطاً من الملائكة.
الأم تعرب عن ابتسامة صفراء سيئة، ملتزمة الصمت، متفكرة بان مثل هذا المديح لا يتعدى إما الطمع أو التغرير.
تنظر نداء لامها التي ارتسم فوق محياها انعطافات غاية الوعورة وتقطيب، فصاحت بها: حسبي ان ذهبت بك المذاهب.
الأم مستسلمة: لا أدري بالضبط من منا التي ذهبت بها المذاهب.
نداء: أرجو أن تصارحيني بذلك.. أنت تخافي عليَّ.. وأنا غير مبالية بكل المخاوف، وأنت تظنيني غارقة بيم الهوى ودياجير غياهبه المظلمة.. واشك ان في الهوى أرضاً مظلمة؛ أنا إن أحببته ضانة بعوزي إليه، شاريةً قلباً أعود إليه في تيهي ومحنتي.
الأم لم تكن بالمستمعة الجيدة، فهي لكثر ما سمعت بهذه الأقاويل، وبنيت صروح الأماني، وشيدت أبراجها العاجية، سرعان ما هدَّ الصرح، وانتكست الأعلام، فقالت: لا أحد بإمكانه أن يسمو لقلوبنا.
نداء ساخرة: ماذا قلوب أنبياء.؟
الأم، اشد سخرية: لا بل قلوب جواري، فالجارية لا يهمها إلا إرضاء صاحبها؛ وان بذلت كل ما في وسعها، وأن أعطته كل لآلئها، فإنها ما زالت تشك ببخلها.

نداء تهز يدها استنكاراً، قائلة: وهذا هو الفرق.. علينا ان نعلمهم كيف يحبون، ويحيون بالحب، فالحب حباً بالوجدان، وهو خير وسادة للنوم باطمئنان.
الأم ممتعضة: أنك ما دمت في غيك الأول، لم تزل تفتأ تذكر الماضي.
نداء صارخة: لا اسمح لك بكشف السجلات القديمة.
الأم بصوت عالٍ: لم تترجيني قبل قليل بان أصارحك.. وها أنا أقول لك بملء الفم، أنت تحاولين الانفكاك من الماضي عبثاً، فالحاضر لا ينمو إذا ما حضر الماضي.
جلست نداء على السرير منكسرة يعلوها شبح الماضي ــ التحدي الخطير التي هزمت به هزيمة نكراء ومنيت بخسارة فادحة، ما كان في ودها ان تعرب عن كلمة واحدة كما لم يكن بمقدورها الاستماع لكل كلمة بصدده، أعاشت خادعة أم مخدوعة.؟ هي نفسها لم تدرِ وقتها.! أما اليوم فهي تجد نفسها واعية متفهمة لكل خطوة تسعى بها.
نظرت لنفسها بإمعان مازال نهداها طليقي السراح، على الرغم من تشبثهن بمسرح الجريمة ـ انه الصدر الذي نعته احمد خبثاً: (لو أني رشفت من عنق نهدك رشفة لكنت أشد الناس إيلاما، وإجراماً).
باغت صمتها رنين نقالها، نظرت للشاشة، صاحت: انه احمد، كبست على زر التشغيل: مرحباً
احمد: أهلاً عزيزتي.. اشتقت لكِ
نداء: لا أقول لك الداعي أشوق؛ لأني ما عدت أشتاق لمن سكن روحي، وقطن في جوارحي، واستوطن مشاعري.
احمد يطرب لهذا الحسن وهو ينشد: لم أكن خليقاً بهذا الشعور، فأنت على ما عليه من الحسن عليه من الشهامة والكرم.

نداء بمبالغة: بالعكس فأنت مزار العاشقين، إليك يشد الرحال، وبجود قلبك يضرب المثل.
احمد بتواضع واضطراب: أنا لا أقوى على هذا المديح، ولا أطيق هذا العزاء.. أنا ثمل بهذا الحب وهذا الصوت الملائكي الذي غزا كل كياني واستوطن كل أحاسيسي.
نداء بتباه وتبجح: ما أجمل خمر الحب، فلنسكر بهذا العشق كل العمر.
احمد أكثر غروراً: ونغني هل رأى الحب سكارى مثلنا.
نداء، توقع على الجرح: ما أجملك إسلامياً منفتحاً، يسكرك الحب ويتطوح بك العشق، ان دل على شيء فإنما يدل على رقتك.
استوقف احمد هذا الكلام، فهل هو رقيق حقاً.؟ نعم انه عاطفي، وعشقي كثيراً ما ينعته أمر وحدته بالـ (حبجي) والعشقي، فضلاً عن زملائه، لما سمعوا من حكاياه، وثورته ضد التقيد والجمود، وهو يناقش جملة من المواضيع بطريقة عقلانية منفتحة حتى ان من يدخل في عمقه ويخوض معه بضعة أحاديث، يجده إسلامياً منفتحاً هذا إذا ما نعته بالمتحرر وغير الملتزم، ومن النكتة ان سمعه أحد الضباط الزملاء يتكلم عن مفاتن المرأة وسحرها فقال له: أنت إسلامي شيوعي.!
صاحت به نداء: أيه.. يا هذا فيم سرحت.؟
احمد، بسرعة ودون تلكئ: بغنم أفكاري التائهات.
نداء ملاطفة وببداهة: ألا تخاف عليهن ذئب الفلوات.
احمد: أخاف عليهن ذئب البنات، عشقهن، سحرهن، افتنانهن، وفتنتهن.
نداء: ان هذا الذئب الذي تقصده يعيش فينا كلينا المرأة والرجل.

احمد، بقوة وحزم: سنروضه، ونحفل بـه حارسـاً أمينـا، نلتحـف جلده الوثير.
نداء ضاحكة: "إذا كان الحارس ذئباً فمن يحرس الشاة".؟
احمـد: هـذا كـلام غابـة الصـراع، لا غابـة العشـق الحافلـة بكـل أطياف الحيوان، التي يحرسها كل المخلوقات.
الأم ممتعضــة، أنهـا تسـمع الكـلام مـن طـرف واحـد، وذئـاب مشاعرها تعوي بالحب.. كـلام قـدح بـالواقع.. سـكر فـي صـميم الحياة، ثمالة وترنح في أكثر الإعمال صـدقاً، هـو الحـب، إنهمـا يزعمان الحب الأبدي، لكن لا شيء يؤكد ذلك، فصاحت بابنتها: انهي المكالمة الى وقت الصحو، فما يتحدث بـه السـكارى كـلام جنون.
سمع احمد من طرفه هذا الحـديث لكـن لـيس دقيقـاً، إلا إن كلمـة السكر خطرت على بالـه فصـاح بهـا: أخبـري أمـك الجليلـة، ان دكاكين الخمر كثيرة، خاصة فـي الكـرادة؛ لـو شـربتها كلهـا لـم أسكر بما سكرت به من حبك.
فإجابتـه نـداء، وكانـت أكثـر منـه سـكراً وعربـدة: أمـي ليسـت الجليلة، تلك زوجة كليب، أمي اسمها بشرى.
احمد بلا تريث، قاصد الممازحة والضـحك: إذاً بشـريها بالنـار؛ اقصد بنار الهوى.

شطحات واهتياج

عاب منشد على احمد حركاته وتصرفاته الطائشة وشطحاته واهتياجه فهو يثب من مكان لآخر، ويصفق، ويقبل الهاتف النقال حيث التقط لصاحبته أكثر من صورة في متنزه الزوراء، بعد قضاء يوم جميل اسماه بيوم اكتمال البدر، تحقيق الأماني، صدق الرؤيا، أبداً ما كان يراه ألاّ حلماً عابراً، إنها رؤيا، ورؤيا صادقة مثلما يرون أولياء الله الصالحين دقائق الأمور، فاليوم هو خطيب لا يشق له غبار ولا أحد بإمكانه ملاحاته وخصمه وهو يصدع بقوله السديد، انه اليوم من أعظم العاشقين الذين كتبوا أسماءهم في كتب التقديس.. لربما كل الأساطير مجرد تفاهات، كحكايات رواها القصاصون، أما حبه فأسطورة قائمة على الحب، في يوم من الأيام سيشاهده القاصي والداني، سيتكلم باسمه الجميع، سيهتف له الملأ، ويشار له بالبنان: هذا العاشق العظيم احمد الولهان.

لحظات ويجمع شتات نفسه، يتوجه لصلاة العشائين.. توجه صوب القبلة، ودخل بالصلاة مثوله أمام الله تعالى كشخص سوي لكن قلبه وشعوره كله عند نداء.. أنها ترقص أمامه عارية، أين ذلك وعنف هذه الصورة القبيحة فحسن المرأة مقرون بالحشمة.. نعم أنها الآن شبه عارية بالـ (مايو) الأخضر القصير و(الستيان) الأخضر الموصول بخيوط ضعيفة جذور النهدين كالجمار بيضاء بانتفاخ عضوي بارز.. فخذاها مصقولان بين البياض والخمري وأرداف كإرداف نساء

مرسيليا، لا، بل كأرداف (جينيفر لوبيز)، وكان إذ هو مشتعل التفكير يركع ويسجد، لكنه ما يدري ماذا يقول.. فما أن انتبه لنفسه، وجد نفسه عند الركعة الأخيرة، فسلم ونفض عنه غبار العبادة، ليرجع لحلم أكثر روعة وجمالاً.
الى ان صاح به منشد: تقبل الله.
احمد، بسيماء مؤمن: منا ومنكم.
منشد: أتعرف كم ركعة صليت.؟
احمد: الله اعرف بذلك.
منشد بروح يؤمها السخرية والازدراء: إذا كان الوليد يسلم خلافة المسلمين للبابة، فلا بأس بك ان تسلمها إلى نداء.
احمد يستعد لمباراته: إذا كان يهمك أمر المسلمين وخلافتهم؛ فتسلمها أنت، واحرص على وقف حمامات الدم.
منشد بقسوة: لا أظنهم يختلفون عنك كثيراً، فأنت أنت ممن باع دينه بهواه.
احمد بنشاط: لماذا لا تقول ممن دعم دينه بحب الآخرين.؟
منشد اشد تهكماً: قل بحب الأخريات؛ وان كن غانيات.
احمد، يستشيط غضباً: هذا كلام مفلس لا يقوى على الحب، ألست ممن عاهد الأم على الحب وأشيائه الأخرى.؟!
منشد باستياء بالغ: أنت سافل. من قال لك هذا.؟
احمد لم يجد عذراً مناسباً يدفع به صحة قوله، فطأطئ رأسه مستعيناً بالسماء ان تمده من معين الغيب، إلى إن صرخ به: انه القطار.. سمعت كل ما دار بينكما هناك.
اطرق منشد رأسه: إذن أنت تتجسس علينا.؟
احمد: أبداً لم يكن ذاك إلا أنك اضطررتني لذلك.
منشد مستفهماً: وماذا سمعت بالتحديد.؟

احمد لم يسمع شيئاً، وإنما افتعل الحكاية تخميناً، فهل يقوى على المناورة، وبالفعل فعل: سمعت الوعود.!
منشد، محدقاً به: أية وعود.؟
احمد: لا أقول أكثر من رؤوس أقلام، والباقي عليك فأنت اعرف بكل هذه التفاصيل صغيرها وكبيرها.
منشد، متملصاً بتلاعب واضح: أنها كانت ليلة عابرة، ليلة سفر، اختبرت بها نفسي وقدراتي، هل أنا قادر على جذب النساء.؟ هل ما زلت بارعاً في كسب ود امرأة.؟ وانتهت منذ ساعتها.
احمد وجد لنفسه مخرجاً بقوله: وها أنا أفرغ شحناتي المغناطيسية في مدى قدراتي على كسب النساء.
منشد: وماذا وجدت.؟
احمد بانكسار: وجدتهن مسكينات، يشفق عليهن من لم يكن في قلبه رحمة.
منشد: لكن ماذا لو كانت رحمتك نقمة عليها.؟ وأنت لم تستطع إكمال المشوار.
احمد بتحد وصرامة: سأكمل المشوار، سأعيش الحب.
منشد بابتسامة صفراء: وماذا بعد الحب.؟
احمد: ما يكون بعده فهو بعده.
منشد: وتتزوجها.؟
استوقفته هذه الكلمة، لكن لا مناص من إجابته بالإيجاب مخافة أن يسخر به أو يهزم في الحوار.. ورجع الى نفسه متسائلاً: (هل حقاً سأتزوجها ولم لا.؟ فمن مثلها، أو يضاهيها على الأقل.؟ لكن هل أنا مستعد لهذا الزواج.؟ أنا أخبر الحياة الزوجية أكثر من غيري، فالمرأة تحتاج لكل شيء، فيما لا يحتاج الرجل منها غير حضن دافئ، أو مفرغ هموم وكبت).

لكنها وعدتني بأننا نعيش الحب وحده، لكن هذا جنون، فمن يصدق ذلك.؟ فتاة ضائعة تبحث عمن يحميها، ويرد عليها وحشتها، ويشاركها قلبها، ويعتلي عرشها، ويمزج الأحبار ليكتب رسالة الخلود.

كان منشد ينظره بعين الرحمة والإشفاق، بعد إنْ أحس بإفحامه بسؤاله الأخير، فثب قائلاً: عندما تصل الى حقيقة الأمر تعجز عن الإجابة، وهذا ديدنك في كل المساجلات التي خضتها بخصوص الزواج.

شعر احمد بالحرج، هذا إذا لم يشعر بالخزي، لصدق كلام صاحبه بحقه، لكثرما اتخذ قرارات صارمة، وأبرق بوعود كثيرة، ما أسرع ما حنث الوفاء بها، إلا هذه المرة فهو مصرٌ وعازمٌ على ان لا يترك ما بدأه في هذا الأمر، انه الحب الذي طالما تمناه وانتظره أكثر ما انتظر في حياته قائلاً: صدقني إلا هذه المرة، فاني سأركب معها البحر ونبحر ولو للعالم الآخر، فالحياة بلا حب منفىً.! ومن منا يرغب في تجربة المنفى، وقد عشن فيه عقداً وبضعة عام، من الهم والاوهام.

إن اشد ما يجرح سماع منشد اسم المنفى أو المهجر أو المغترب فكل الأسماء تؤدي للهلاك على حد تعبيره، انه يعشق الوطن، وهاهو في الصدارة يحمي أركان حكومة طالما تمناها وحلم بها على الرغم من مساوئها.. يبرر ذلك بأنها حكومة محاصصة.. وكل ما جاء بها مشروط، لكنه في يوم من الأيام ستلد دولة أخرى، دولة حكيمة تفيق من غيبوبة النسيان، ستظهر بحلتها القشيبة.. همها الأول والآخر الإنسان.

وكأن أحمد ضرب على الوتر الحساس، ما استطاع بذلك صرف أنظار منشد عنه والاختلاء بهواجسه الملتاعة، فيما ظل احمد يحبس نبضه وحرارة جسمه، وهو يشعر باضطراب

وإعياء، هو ذاتـه الإعيـاء الـذي يشـعره فـي كـل مـرة يتخـذ فيـه قراراً سريعاً، في حالة غضب كانت أم في لحظة طيش، فحاول ان يهـدأ مـن روعـه، وهـو يـوعز لنفسـه بالتعقـل، إنهـا لحظـة الرزانة والكياسة والحزم في إدارة كل أمر طارئ.

وبروح مهتاجة صرخ بنفسه النائية: انه الحـب، فلنمـت دونـه أو نعيش به أبداً. وشـطح بتفكيـره بعيـداً وهـو يتـذكر كلمـة حكومـة محاصصـة، متسـائلاً مـع نفسـه الملتهبـة: إذا كـان هـذا فعـل المحاصصة، وما سدا على المجتمع مـن تـدهور ملحـوظ، طـال القاصي والداني؛ فكيف إذا كانت حكومة مماصصة.؟!

بغداد مبغى سياسة

((بغداد مبغى كبير
بغداد كابوس رديء فاسدْ
يجرعه الراقدْ))
"شعر/ بدر شاكر السياب"

صباح الأحد صباحٌ جميل تدب فيه الحياة بنشاط وحيوية، انه أول أيام الأسبوع، بداية العمل بعد مضي يومين من الاستراحة.. الحركة دؤوبة والخطى حثيثة.. عمالة وموظفين وأجمل ما في ذلك الموظفات، فهن أكثر حيوية وجمالاً وهن متوجهات للعمل، وكأنهن يقصدن إيذاء القلوب وقهر الشباب، الجنود ينظرون ويتألمون، وسرعان ما ينسون كونهم مرابطين في واجب، يعلوهم أكثر من آمر وناهٍ، وواعظ وزاجر، وترقبهم عين الرقيب التي تحسب عليهم الزلل والخطل.. وقد تأخذهم بلا رحمة الى أشد العقوبات.
منشد يراقب النقاط، هندام الجنود بكامل تجهيزاتهم أجهزة السونار (ADE651) وأجهزة كشف المتفجرات المرايا العاكسة، شاشة C.P الجامعة لعشرات الكاميرات المحاطة بالبوابة، يصعد الى الأبراج يتفحص سلاح الـ (BKC) وكذلك أشرطة العتاد، ومن ثم يعرج على ناقلة الأشخاص والدبابات ليضرب عصفورين في حجر، فحص الأجهزة والمعدات والأشخاص وتمضية لوقت يقف في باب الدخول يراقب الجنود وطريقة تعاملهم مع الداخلين وهم يفحصون (باجات) دخول المنطقة الخضراء يحرص آمر النقطة على زج أكثر الجنود

التزاماً وتحفظاً في مثل هذه النقاط المهمة التي تعد واجهة البوابة، على الرغم من احتراز الضابط في اختيار الجندي المناسب، فهو لا يؤمن جانبه إذا لم يرقبه في نفسه، بشكل مستمر وبطريقة مباغتة.

الموظفات وموضة فوق السرَّة، انه لأمر مغرٍ، يداعب الإحساس والمشاعر، ويحرك الرغبة ويهيج النفس، فما يصدر من المتلقي سوى صراخ صامت، يفرغه إما بضحكات استهانة في نفسه وبيئته، وإما بهذيان وثرثرة فوضوية ليس لها مربط ومعنى، إلا (صبيح) الجندي الذي تسميه رؤساءه بالروائي الماهر، والقصاص الكاذب الذي لا يبارى.. كان له رأي أخر وتصرف يناسب اللحظة، فهو يكتب ويفبرك الدراما ويخرج، فعلى الرغم من هرجه ومرجه وأحاديثه التي لا تكل والتي قد توقع لآخرين في ورطة إثرها؛ كان الضابط لا يخاف منه، لان له من المقدرة على النفاذ من سم الخياط.

لمحه منشد وهو يكلم امرأة شبه متعرية، نافذة كل مفاتنها من قميصها (التور) المزركش كالغربال، فالنهدين يتحسسن نسمات صباح بغداد الباردة وسرتها المشدودة بحلقة ذهبية بارزة فنم عن فضوله سؤاله المتطفل: هل أنت مترجمة.؟

الآنسة: ما أدراك.؟

صبيح: قرطك الذهبي.

الآنسة: وهل سمعت بان المترجمات وحدهن من يلبسن الأقراط.؟

صبيح، موضحاً: هه.. لا اقصد أقراط الإذن، إنما حلقة السرة.

الآنسة، بعهارة: وكيف رأيتها.؟

صبيح متفاخراً: من واجبي ان افحص كل الداخلين فحصاً جيداً.

الآنسة بتحاذق: إذن ما حاجة الدولة لأجهزة السونار.؟

صبيح أكثر دهاءً: السونار لفحص المواد المعدة للانفجار، إما العيون فهي لفحص المواد المنفجرة أصلاً، والمخابئ السرية الغائرة.
الآنسة بجدل متعمد: الم يكن لباسي محتشماً.؟
صبيح، ضاحكاً: ونعم الاحتشام.
الآنسة بهدوء: وكأنك مستهزئاً.! لكن ما رأيك في بنطلوني الذي يستر كل مفاتني.؟
صبيح، متفلسفاً: المرأة كلها عورة، فان كان بنطلونك مستوراً فهو على طريقة الإخوان ـ في إشارة لإخوان المسلمين ـ إلا إني أرى قميصك على طريقة دعايات تكبير النهود، وعارضات السرر والزنود.
فتركته ودلفت للداخل، فصاح بها: لكنك لم تجيبي على سؤالي الأول بعد.
التفتت إليه الآنسة، وبنوع من الدعابة: إذا كنت تجيد فحص المخابئ، فما بالك بظاهر الأعمال.
الى ان وقف عليه منشد، نظر في وجهه شزراً، موبخاً إياه: هل عرضت عليك باجها (البطاقة التعريفية) هل عرفت إذا كانت مخولة بالدخول للمنطقة الخضراء أم لا.
صبيح بنوع من الفكاهة والاستظراف: إذا مثلها لم تدخل للمنطقة الخضراء، فمن يا ترى يستحق الدخول.؟
منشد بغضب وحدية: مقصر في واجبك، وتنكت.
صبيح بنوع من الاعتذار المفتعل: ولكن يا سيدي بعدي أكثر من نقطة ستتحرى عن باجها، كما إني رايتها سابقاً، وهذا دليل كاف على صحة دخولها.
منشد، بحنق: ودليل على صحة خروجك من هذه المنطقة، تحول على الخط العسكري.

كان قرار منشد قراراً صارماً مع كل الجنود الذين يسوفون بالتزاماتهم في واجبهم العسكري، فان واجبهم على خلاف كل الواجبات الأخرى، أنهم يحرسون الحكومة وخطأهم لا يغتفر في حال تسلل أي دخيل من شأنه إرباك كل وحدات الحماية وإدخالهم في إنذار مستمر.

ما ان انسحب منشد من نقطة البداية وقد أبدل صبيح بجندي آخر أكثر خبرة وهدوءً منه، إذ تفاجئ منشد بقدوم صاحبه احمد، سلم عليه، وأخذ بيده الى ثكنة الضباط، لكن احمد أبى ذلك، وأصر على الوقوف في نقطة الدخول بغية رؤية الجنس اللطيف، الذي دائماً ما يستنكر منشد مثل هذه الفعلة ويسميها بالمشينة: (فلا يعاكس بنات الناس إلا أبناء الشوارع) وهناك أكثر من محفل يجمع بين الغواني وأسافل القوم.. خاصة ان منشد لم يستطع ان يسيء الى صاحبه المستبد برأيه من جهة ومن جهة أخرى فهو على مرأى ومسمع من الجنود، فكل كلمة توبيخ أو تأنيب تصدر منه بحق صاحبه، فهي إشارة على الانفكاك بين قوىً عُرفت بتوجهاتها الدينية، وأعمالها الجهادية المرموقة في ساحات الوغى ضد أزلام النظام البائد.

وحار منشد فيما إذا ترك لصاحبه الحبل على الغارب، فسيكون موقفه ضعيفاً أمام سريته، فالتزم الصمت كبادئ البدء، محذراً صاحبه بهدوء من التمادي في غيه.

لكن احمد أجابه باستفزاز واضح بقوله: كفانا نخادع أنفسنا، فمثلنا كمن يفتح عيناً ويغمض أخرى على الباطل، ذئاب إذا ما واتتنا الفرصة بكل مقوماتها.

لم يرق لمنشد هذا الكلام، وهذا الاستفزاز الصريح؛ فرده بقوله: كلٌ يقول بلسان حاله.

تورع احمد من إجابته، مخافة الولوج في مداخل ضيقة وأنفاق بلا نهائيات.
ففهم منشد ان لا فائدة من الملاحاة والسجالات العقيمة، فسأله ضاحكاً: هل تنتظر نداء.؟
احمد أكثر سرية: لا، بل أنتظر أمها.
منشد منبهراً لا يدري ان كان صاحبه صادقاً بقوله أو ممازحاً، قائلا:
ــ هل أنت محقٌ.؟
احمد، بهدوء: طبعاُ لا.
منشد، يتنفس الصعداء ويطلق تنهيدة طويلة جاثمة على صدره قائلاً:
ــ إذن ما الذي أتى بك.؟
احمد، بنوع من الارتياح: أحببت ان أطلع على أخبارك، وأرى عملك.. وحياة الإنس الذي تحياها في جو من المتعة بالنظر لهذا الجمال الأخاذ والتقليعات الساحرة، فقد بلغني ان بعض الوافدات على المنطقة الخضراء أكثر اخضراراً وريعاناً من كل زروع المنطقة، التي لا تحفل إلا ببعض أشجار علاها الغبار، ونخيلات شيصت بلا لقاح.
منشد يهز يده بسخرية: ليس ثمة جديد فيما تقول.
احمد متمتماً: لكن أقراط السرة أصبحت شيئاً جديداً، وإطلاق النهود بلا مهود على الأنظار أمراً خطيراً.
منشد: أبن الكلب صبيح، لم يحفظ السر لعشر دقائق خلت.
احمد، بعناد: هذا وفاء منه لسيده، بان يخبره بهذه المناظر الخلابة والبديعة الجمال.
وقاطع حديثه، قدوم فتاة محتشمة بجبة وحجاب إسلامي، عيناها مطرقتان للأرض، حاول عبثا ان يستميل أنظارها صوبه لكن

بلا جدوى، فاستغفر الله وانبرى مطرقاً الى الأرض، ونادى على سائقه وركب العجلة وانصرف.
لكن السائق كان يخبر ضابطه برقة القلب وضعف العواطف، وهزة العشق فسأله: ما الذي جعلك تعدل عن رأيك في البقاء ها هنا.؟
احمد لم يكترث له ولم يعبأ بسؤاله، وقد صرف بنظره الى أبعد نقطة حمله الخيال إليها، وفكر فيما إذا كان كل ما عاشه من هذه الفترة القليلة مجرد وهم.
في حين تناهى الى ذهن السائق بأن نقيب احمد لم يسمع سؤاله فعاد عليه ذات السؤال بطريقة مختلفة: عسى أن لا تكون قد رأيت ما تكره.
احمد، سبر غور سائقه، وهو يعرف ما يروم قوله فأجابه بلا مقدمات:
ــ اثنان لم استطع خيانتهما أبدا زوجتي والحكومة.
السائق لم يفهم جيداً ما معنى فحوى كلامه.؟ وما هي المناسبة التي حثته على قول هذه المقولة.؟ وهل تعبر عن صدق في قرارة النفس.؟ فهو يدرك ان الجنود أكثرهم يخبرون نقيب احمد بالنقيض البائن لنقيب منشد، فهم يحفلون بأحمد ويستمعون لآرائه وأقواله في الحب والحياة والمجتمع، ويؤيدون الكثير من أقواله ويرون فيها السداد، بينما لا يستمع لمنشد الا من يود معرفة أمور الدين والسياسة.. فتجد احمد بين محفل كبير من طالبي العشق ومحبي الحياة، الشاعر وحافظ الشعر والمهووس بعشيقته، والممجد بأحبابه.. لذا قلما ترى من يحضر مجلس منشد من مثل هذه الأشكال.
وفي هذه الأثناء رأى احمد فتاة تتوسط الشارع، على شيء كبير من الشياكة والجمال بشعرها الأسود الطويل، الذي يغطي

ملامح وركها، فنده على السائق ان يخفف السرعة وان يمشي الهوينى.. ولا يفوته إخباره بان يسير إلى أقصى جهة اليسار، مخافة إعاقة مرور السيارات الآخر.
فاستغل السائق هذه المناسبة ليتكلم: ولكن ما الفائدة يا سيدي ان نسير وراءها دون أن نرى وجهها.
احمد، بجنون: لا أظن وراء هذا القوام الفارع وجهاً قبيحاً كوجهك.
فاستاء السائق من كلامه وراح يجمجم بنفسه: (إذن أين كلامك للتو عن الخيانة).؟!
فصاح به احمد دون ان يفهم كلمة واحدة من كلامه: اسكت وتابع المسير.
السائق: ولكن علينا ان ننعطف صوب وحدتنا.
احمد صارخاً به: ومن قال لك إننا نريد الذهاب الى وحدتنا.
فسكت السائق وواصل المسير ببطء.. وإذا بامرأة أخرى متجهةً صوبهم.
فصاح به احمد: توقف ـ الى أن وصلت بالقرب منهم، تمعن احمد بها كثيراً كانت على شيء كبير من النعومة والدماثة، حسناء، هيفاء، ناعمة الوجه، عنقاء.. تغيرت صورتها في بؤبؤ عينيه الى صورة نداء، وكاد ان يصيح بها، لولا أن تماسك قليلاً، لكنه تماسك منحل، فنزل من السيارة مسرعاً، وراح معترضاً طريقها، وبسؤال مرتبك: هل أنت فاتن حمامة.
وبسرعة دون تلكئ: لا أنا هند رستم.
فضحك ضحكة عالية، وبدأها بلا مقدمات: هل أنت مرتبطة.
فعادت عليه الكرة: نعم مرتبطة بالدوام.
احمد بتلكئ: أعني الزواج.. الحب.
فهزت يدها بوجهه: الضابط يعاكس فما بال الجندي المسكين.

تركها وركب سيارته وهو يردد: الجندي المسكين، ونحن قواويد، كل أعمالنا محسوبة وأخطائنا محسومة، ويحرم علينا الحب.
فبزه السائق بخبث: أولاء مبتذلات فلا يرجى منهن حباً ولا كرامة.
احمد يلتفت إليه باستهجان: ومن قال لك ذلك.؟
السائق: مبتذلات.!
احمد ينظره دون ان يجيبه توكيداً على قوله الأول.
السائق يستطرد قوله: لأنهن غير محتشمات، يعملن في سلك يتعذر وجود النساء فيه، حتى ان احد نواب الضباط من أصدقائي يعمل في وزارة الدفاع يقول تعمل معنا موظفة قريبة على السيد العميد (.....) فكان كلما يختلي بها، ندخل عليه بغتة فتُعقد عليه الغزل(الشِباك)، ولم يجد فرصة ما للاقتران بها، كون هؤلاء النواب ضباط تخصص شيطنة وحيالة، في حين ان العميد كان أكثر منهم مكراً ودهاءً بعد ان عجز من كسبهم وضمهم الى جانبه، وآيس من مضاجعة هذه الموظفة بحضورهم، كونهم رفضوا الإجازات، فاخذ يستوقفها عند باب غرفته، ويعطي ظهره للباب ويكشف عن سلاحه ويستخدمه بطريقة فوضوية، بعيداً عن تعاليم أهداف المعركة، لتمتص بدورها جام غضبه ونشوته، وما ان يحاول احدهم الدخول عليهما، إذ يسرع العميد إلى مكانه منهزما من الغزو المباغت، وتفتح له الموظفة الباب بأسرع ما يمكن.
ضحك احمد ضحكة سخرية وامتعاض، وهو يردد قصيدة السياب: بغداد مبغى كبير.. لكنه ما زال يسمع الكثير الكثير، دون أن يلمس وجه الحق من هذا الكلام أو ذاك.. انه لم يشاهد شيئاً حتى الساعة في أم عينه.. السفور والتعري الجزئي، ليس

دلـيلاً علــى سـقوط المثـل العليـا أنهـا مجـرد أزيـاء، موضــات السـاعة، تقليـد الشـارع الغربـي، الحريـة المفرطـة، قـد تجلـب الكثير، مما لا يخطر على بال ولا أحد بإمكانه ان يضـع الحـدود والضـوابط؛ وان شـهر سـيفه.. فـالخوف والشـعور بـالخطر قـد يكبحان الحرية ويهدمان التحـرر، لكـن لا ينهيـان بـراثن الفسـاد المتجذرة بعمق الإنسان والمجتمع، وعاد احمد يردد بغداد مبغى كبيـر ومـد عينيـه بـالأفق البعيـد يسـتذكر أبيـات السـياب وتنهـد صائحاً انه مبغى سياسة.

في ظلمة أبي نؤاس

التقى الاثنان مغمورين بالسعادة والنشوة، تعلو وجهيهما بهجة الانتصار وحبور النجاح.. تعرج روحيهما في فضاء الحرية والانعتاق، محلقة مع أسراب الطيور المهاجرة صوب الجنوب.. نسيم بغداد لم يكن نسيماً إذا ما خلا من رائحة العشاق.. العوائل تنتشر في كل بقعة ومكان من متنزه أبي نؤاس.. العشاق يتردون بعشيقاتهم في أماكن نائية من المتنزه مخافة تطفل الآخرين عليهم.. صبايا وصبيان يلعبون ويمرحون بالقرب من ذويهم.. طالبي عشق وطالبات يتنقلون من مكان لأخر، بحثاً عن مبتغاهم وضالتهم، لكن الخوف والحياء والأنباء لا تبشر بالعجالة، وتنذر بالمغبات الخطيرة والعواقب الوخيمة والانزواء.

نداء عالقة بيد احمد كما يعلق كيس الفواكه والخضار.. هي في مسرة تفوق كل المسرات.. بينما كان احمد، كالغريب تائهاً، مشدوهاً، إبله، لا يسعه إلا ان يمتدح أبا نؤاس على هذا الإرث العظيم، ملتقى العشاق، في زمن يساق به البشر الى الجزار كما

تساق الخراف.! من يذبح فهو أمير، وأمير الذابحين مولى المؤمنين.!!
وعتّ نداء من يدها، ليمررها بين كل العاشقين منادياً: هذه حبيبتي، شفاء السنين، بلسم الكبر، ربيع الحزين.
كانت النظرات تراقبه وتحملق به، مشرأبة الأعناق: حتماً انه مشعوذ تغلب على هذه الملاك الطاهر بسحره وشعوذته.. ماذا رأت به.؟ بأية خصلة ملفتة للنظر انجذبت به؟ ليس فيه ما يدعو هذه المسكينة لتتعلق به حد (التمعشق).. هكذا كانت النظرات.
كان في داخله غل وحسد يتغور لما تملكه من روح شفيفة هفهاف، فرحة مرحة، في وجهها نضوج غير طبيعي كاتساع الحدقتين وارتفاع الحاجب الهلالي، وقدٍ مشدود ووجنة متوردة، وشفتين مشقوقتين كرمانة يانعة النضج، كل ذلك بفضل ابتسامة صارخة قاتلة نضرة.
للساعة نسى احمد من يكون، كل السنين العجاف ما كانت له ببال.. سنوات الحرب والدمار لم تكن في بلد مثل بلده الذي يحظى بمثل كل هذه الصبايا وهذا الجمال.. الهجرة المريرة التي عاشها عقداً ونيف، لم تكن سوى كابوس في اصطلاحات البائسين وحدهم.. إلا هو، فهو بالتأكيد ليس منهم، ولم يشمله كل القرارات الجائرة التي اتخذته حكام (الطفرة) عليه وعلى ناسه.. زهرة شبابه التي ذهبت، كانت مجرد أشواك وحسك السعدان، وخزت أقدامه الحافية إلا اليوم فهو منتعل كل الدقائق لا يفوت لحظة واحدة إلا ويغمرها بكلمة حب، ويغمسها بشوق وهيام.
ما كانت نداء لتشاهد صبغة وجهه المتغيرة، وتجاعيد أفكاره الموحلة، وهو عاجز على ان يغطي سوءة الماضي وما نابه من بؤس وحرمان.. فهي كانت تستطلع كل الوجوه إلا وجهه.. وهي تشاكس كل العيون الرابية صوبها، وتفند نظرات الاختراق

بعصف سحر مضاد.. أنها ملكة تهيمن على الزوايا المظلمة في العقل، وتشعل فيها الغيرة ووهج الاحتقان.. لكنها لا تشك بالمرة غير أنها مملكة غارقة بطوفان رجل لم تسبر غوره بعد، هذا إذا ما أفلت يديه من نجدتها.

بلغا في مشيهما قاعدة تمثال.. أبو نؤاس ذهب بين المصادرات للحريات.. فكل قرار بحقه منوط برغبة صاحبه ومدى التزامه؛ لأنه كان متمرداً على نواميس التقاليد البالية.

لأنه يعشق المرأة في ساعة، ويقدسها في ساعة أخرى، وفي اغلب الأحيان يعريها، لأنه يحب بصورة مختلفة.. ويمدح ويثني عليها في أوقات ما كانت لتستحق هذا المدح ـ في نظر الأمة ـ لا أحد بإمكانه ان يجيبه، أين ذهبت المذاهب بالشاعر الجهبذ.؟ غير ان الكل يدري انه توارى عن الانظار ليبقى في القلوب.

سأل نداء مستفهماً: هل جئت الى هنا سابقاً.؟

نداء بتطفل: لِمَ هذا السؤال.؟

احمد: مجرد سؤال.!

نداء: كلا لم ائت الى هنا.

احمد: شكراً.

ان شيئاً ما ثار فضولها واستغرابها، غاصة في أعماق هذا السؤال ودواعيه ونواياه، ما دعاها للكلام: هل تعتقدني ممن ترتاد مثل هذه الأماكن.؟

احمد تفهم وضعها، وأحسّ بما يشوب نبرتها، قائلاً: لا تذهبين بعيداً، إنما وددت ان أسألك عن هذا التمثال، هل حلق الى مكان أخر.؟ في زمن تطير به الفيلة.!

علا صاحبه شيئاً من الارتياح، بقولها: دعك منه فأنت اليوم شاعري وأبو نؤاسي من صعاليك الجاهلية الى (الهوسجية)

فامتثل بقول الشاعر المحتفى بذكره وتحت صنمه المفقود هاتفاً:

قالوا عشقت صغيرة فأجبتهم
نعم المطية تلك ما لم تركب
كم بين حبة لؤلؤ مثقوبة
لبست وحبة لؤلؤ لم تثقبِ

أجابته بضحكة عالية التفت إليها من كان بالجوار، لكنها لم تعبأ بهم، خلاف احمد الذي بدا يستشعر في فجاجتها، بعدما طوق بنظرات حانقة.
مررها بين ممرات مقرنصة صغيرة، مطوقة بشجرة الآس، ومن ثم عبر بها النجيل الأخضر المبتل، لينفرد بها بعيداً عن الطرق الرئيسة المكتظة بالوافدين، أجلسها على مصطبة كونكريتية، ومالها إليه، فكانا وجهاهما مرآتين صافيتين للتكاشف والاعتراف.
ـ أيها القس أنا مقصر، أني ولدت قبلك، وتزوجت غيرك، وأنجبت أولادي من امرأة ثانية، جمعني بها القدر صدفة، ها.. وقد عدت اليوم ـ والعود احمد ـ لأملأ ناظري منك وارتوي من سحرك ما يطفأ ظمأي، ويذهب بغيظي وينحسر حرماني.
أيها القس.. أنا بليد، عشت مذ زمن عتيد، على أمل لقياك، وأنت تعيش فيّ، وتسكن كل جوارحي، لكن الدليل إليك كان أعمى لم يبصر نورك الوضاء في عمقي.
أيها القس.. أنا احبك فهل بعد هذا الاعتراف اعتراف؟! أليس اعترافي دليلاً وحجة ينقض كل دعاوى الزيف وخور المزاعم.
كانت هذه جملة من اعترافاته، أمام من وسمها بالقس أو القسيس الطاهر ملائك الرحمة والغفران.. وكان في وده ان

يسمع اليسير من اعترافاتها، وان كان ما فعله لم يكن بقصد أو حتى بتخطيط مسبق إلا انه مجرد الهام انساق على لسانه وضربة حظ بدد فيها المسارات الضيقة ليعبر بها نحو فضاءات رحيبة.. فبينا هما كذلك إذا التفت الى شاب كان يجالس فتاة على مسافة غير بعيدة عنهما، وقد بدا يرتشف من شفتي فتاته شهد البقاء، دون الاكتراث بالناظرين، وتمادى أكثر وهو يمتص العنق، نزولاً باتجاه الصدر الى النهدين، بينما كانت فتاته كالمغشي عليها من التخدير منهالة عليه بالتقبيل.

تمتم احمد بقوله: انظري.

فتابعت نداء أثر نظراته وإذا بها تنظر لهذه المواقعة العلنية.

فسحبت بصرها، ورجعت الى موقفها، دون ان تنبس بكلمة.. استحى احمد وصد بنظره عنهما، وعاد لحبيبته، يتحرى أمرها، قائلاً: لم اسمع اعترافك بعد.؟

فانهالت عليه ثملة التعبير: نيافة الحبيب، سيادة الطبيب سعادة الأمير فخامة الوزير.. سأبوح إليك بأخطر اعترافاتي، وأبث عنك خزائن أسراري: أنا احبك.. بلى أنا احبك ولا تغيرني عنك تصاريف الدهور.. أنا احبك بكل ما فيك، ما أظهرته أو أخفيته.. أعلنته أو أسررته.. احبك أنت.. لا أظن ان هناك في الكون كله امرأة واحدة بإمكانها ان تعطيك روحها وتبقى جثة هامدة سواي.. لأني عاشقة بروح.. تواقة لعلاقة مستديمة، عفيفة كريمة.. فخذ من كياني ما يرضيك؛ لكن بشرطها وشروطها.

أطرب احمد بكل كلمة سمعها.. سكر بهذا العطاء الذي لا ينضب.. الحب الذي لا تخفت جذوته ولا يخمد أواره.. لكنه كان يطلب اقل من هذا العطاء بتواضع.. انه يرغب ان يسمع اعترافاتها الصريحة عن ماضيها من صداقات حميمة وعلاقات مريبة، ولحظات تيه ولوذ بجوار الناسك السكران.. كان أخوف

ما يخافه ان تكون امرأة مطـاردة يلاحقهـا الخطـأ القـديم.. وهـل ثمة خيّال اعتلى هـذه المهـرة الوديعـة؟ وهـل هنـاك مـن يطالـب بحقوق الامتياز والطبعة الأولى.؟
كلها أفكار شطحت به بعيداً بالرغم مـن وجاهتهـا، إلا انـه شـعر بالضياع وراء بحث عقيم متمـثلاً بـالقول المـأثور: "إلا تجهـدوا أنفسكم بمعرفة كل الإسرار أنها طريـق المعصـية" ورجـع الـى نفسه قليلاً، ان الفتاة متيمة به، هائمة بحبـه، لائـذة بحمـاه.. فهـل يجازيها بالصد، ولعب النرد على صدرها الأمرد.
استطالت سكوته أو بـالأحرى ضـياعه.. فوضـعت رأسـها علـى قلبه، أهو نابض بالحب.؟ أم رابض بالعزاء.؟ لكنها سـمعت فيـه الحياة بمنأى عن صاحبه الذي غشـاه الفنـاء، فصـاحت بـه: أيـن أنت.؟
احمد مرتبكاً: أ.. أنا.. أنـا مخمـور بعطـرك.. بشـعرك المتسـاقط بأحضـاني، بخـدك الملامـس أضـلاعي، وأغصـانك الربيعيـة الممتلئة، تلوح خريف أغصاني.. كأني بك ثمل.
نداء ضاحكة: للتو أنت ساكن سكون الموتى ـ خطاك السوء ـ.
احمد فـي قـرارة نفسـه يصـدق كـل كلمـة، لكنـه يكـابر بالنشـاط والعنفوان، فان مثله لا يموت واقفاً.. انه عاشـق ومـن سـماته ان يحيا الى الأبد.
تسـاقط الظـلام شـيئاً فشـيئاً بينمـا تـزداد الحشـود.. سـاعات الاستجمام أوفر حظاً في ليل بلا مرقاب. اشتعل أبو نؤاس ظلمة ليضـفي شـاعرية أكثـر، عنـد نحيـب دجلـة التـي يعلوهـا وجـع الاغتراب.
جال احمد ببصره لينظر لأولئك العشاق الموزعين في كل حدب وصوب، وهم يسترقون القبلـة تلـو القبلـة برضـاً وغيـر رضـا.. إنما هو زرع قطيف لم يدرج على مواسم الحصاد.

بينما كانت نداء ساقطة في حضنه، نائمة على صدره كطفل فطيم يلوذ برائحة أمه.. كان يشتهي تقبيلها، لكنه أبى ترفعاً أن يدرج في قائمة العابثين.. وان كانت القبلة لا تفي بإشباع رغبته الجامحة؛ ولا آلاف القبلات.!

لكنه تسامى من ان يحول بفؤاده الى شهوته فرفعها عن صدره.. وكانت منكسة الرأس، فامسك بحنكها وأقام انحناءه.. وعلاها بقبلة فوق الجبين قائلاً: أن مثلك لا يستحق ان تطوله المفاسد.

فبكت بلا شعور.. انسابت من عينيها دموع ماسية، موشاة بكحلها الاثمد، قائلةً: وان مثلك لا يستحق إلا إن يجارى العمر كله، ويتبع خطوة بخطوة والى الأبد وأنشدت قائلة:

ويكفي ان احبك العمر كله..

وبعد العمر يكفي ما كفاني

نزعة متقدة

ما ان يحين ليل بغداد فتشدو نغمات الصبا تدغدغ الأحاسيس... تداعب نسمات أجوائه قلوب حرى.. اليوم ليل بغداد عامر بالسهر والسمر والموائد الدسمة بالمحشي والدولمة والبامية والسمك المسقوف وشواء الكباب في الحدائق والمتنزهات والشوارع التراثية.. العوائل تهرب من بيوتها المتخمة بالظلمة والروتين وضائقة الصدر، تنفس عن نفسها في كل مكان تدب به الحياة تجتمع به الأحبة بموعد وسواه.

ــ أنا أحبك وعمري لم أفكر ان التقي بسواك.

هكذا كان يرن صدى هذه الكلمة في مخيلة نداء، من بين كل الكلام الجميل الذي سفطه احمد؛ وكأن لهذه الكلمة صدى غرائزياً تجده يحرك فيها كل المشاعر الساكنة، يفزز فيها الأشواق المسبتة الغارقة في غياهب النفس، المتوترة المهمومة المكبوتة المدفونة بتابوت الخيانة والغدر.

كانت جالسة على أريكة، عيونها تستطلع البرامج التلفزيونية، مئات القنوات ما كانت لتنتشلها من غرقها، إنها عاشقة اليوم بقلب وروح وجوارح.

تقابلها أمها التي أفرغت الكثير من همومها بطفل أبنتها الجميل، وكذلك البرامج التلفزيونية المنوعة، فهي تجد الراحة في دفء ما ترى، وتشاهد من خضم الحياة العصيبة، فتلقى إجابة شافية وافية تحرك بها صحو الضمير والإيمان بعدالة السماء: (لست

الوحيدة المظلومة في العالم) (ان هناك مصائباً مهولة، مصيبتي عندها لا تعادل شيئاً) فتعود لتسلي نفسها بمشاكل الغير، لا من باب الشماتة بل من باب التأسي، وتجد في التلفاز تزجية للوقت. فهي لا يهمها ما يؤول إليه العمر بمقدار ما تتمنى ان تجد بغيتها ولو بعد حين.

تنظر لابنتها بحب وحنان، ويخالجها وساوس التساؤل: إلى أين ابنتي ماضية.؟ إلى أين سيصل بها قطار الشوق.؟ هل يصدُقها احمد الحب.؟ هل يتلاعب بمشاعرها.؟ هل يستغل وحدتها، حاجتها، شغفها به.؟

تساؤلات لا تنفك تراودها، توخز بها الراحة والاستقرار، بالتالي تعود لتترجم هذه العلاقة السريعة، بأنها الأفضل من اللاشيء، فليس أمامها ما تخسره أنها الرابحة بكل الطرق وشتى المداخل.. انه تعبير جسدي أكثر من كل تعبير وتفسير.

نداء منغمسة بهاجس الحب، سارحة تلملم شعث الأمان، مقبلة يحدو بها الرجاء والأمل، تمرغ بزغب زنديها، تشع بابتسامات مبعثرة كأطياف اللازورد.. كأن في صدرها صوتاً يتفجر كزهو النوارس، ينشد الشاطئ ترنيمة المطر.

الأم تطولها بنظرات طويلة، تفتعل التكزز بأسنانها كإيحاء على الضجر والتوتر.

لكن نداء هي.. هي صامتة كمعجبة لصوت القباني وهو يناغي بلقيس بصوته السحري.. مشتتة الأفكار، شاردة الذهن، سابحة بكل كلمة سمعتها من احمد كنغم (ياني) الطروب.

لاح للأم أن تكلم منشداً، ذاك الذي تركها دون أن يسأل عنها على الرغم من تنازلها الكبير، وإعطائها إعطاء الذليل، إنها بدت تنظر للمستقبل بعين بخل ضيقة، ان صبرها كله لم يشفع لها بالراحة بعد ولم يأذن لها بالنعيم.. أخذت جهازها وخرجت

الى باحة البيت، تاركة الطفل في مهده، بعد ان أشارت على أمه به.
أجرت الاتصال، فتح الخط، الصوت مشوش تقريباً، أشار عليها منشد بصوت متهدج: ابقي على الخط سأخرج بعيداً عن مكان التشويش.
لم تفهم بالضبط ما يرمي إليه، لكنها بقيت منتظرة على الخط، إلى أن سمعت صوته: مرحباً بشرى.. كيف الصحة.؟
بلا مجاملات هوت عليه: بخير، الحمد لله.. أين أنت يا رجل.؟
بتلكؤ: اعذريني مشغول جداً.
بشرى بتهكم: ومتى ينتهي شغلك الشاغل.؟
ـ لا أدري تحديداً، ولو أني أظن لا نهاية له.. نحن في ظرف حرج.!
باستغراب مفتعل: من أنتم.؟ وبالتالي مهما تكونون، ومهما تكون أدواركم فلا بد من الرجوع للحياة والأوب للراحة والمتعة والجمال.. أليس كذلك.؟
منشد بنرفزة طويلة: أين هي الراحة والمتعة في زمن لا مكان فيه إلا للمثابرين.
بنوع من الآياس والإفلاس أجابته بشرى: مازال فكرك منصباً في العمل فلا يسكنه الهوى.. أنت تتحرك بقوى تتجاهل الأحاسيس.
أحس منشد بلكمة عنيفة سددت على فيه، فلحق نفسه: إنما ضيعت الكثير، ولا أظن بأني سأضيع شيئاً بعد اليوم، فأمهليني الى أقرب فرصة.
شعورٌ بالغبطة، والقسوة والسعادة وبهمس حريص: ما يعني كلامك هذا.؟

منشد بدون تريث، وكما قالت كأنه يتحرك بقواه لا بمشاعره قائلاً:
ــ هذه المرة سألتقيك.. أجالسكِ.. أنادمك، أتفرغ لكِ تماماً.. فهل أنتِ باقية على العهد.؟
بغنج واحتيال: أي عهد تعنيه.؟
على الرغم من شعوره بالارتباك والتلكؤ، لكنه الساعة لم يجد بداً من القول:
ــ أظنك تذكرين العهد وما اتفقنا عليه.
بتصنع ودهاء، استفهمت: قل ما ذاك تحديداً ولا تسهب.؟
بدون لف ودوران: المتعة.!!
رجعت بشرى للوراء، اتكأت على ساق السدرة الكبير.. أحست بانكسار.
صاح بها منشد: ما بالك.. لم نتفق على ذلك.؟
بشرى كالمصعوقة، لم تقو على الحراك ولم تستطع القول، لكنها حاولت جاهدة تضميد جرحها النازف بقولها: انه الركض وراء سراب.
منشد أشد استغراباً: ما يعني قولك هذا، إنني على خطأ.. كلا وألف كلا أنا على صواب بل متيقن من ذلك أشد يقين.. إنما أنتِ تضحكين على نفسك بتجاهلك هذا، بالأمس القريب أنتِ مستسلمة تماماً إليَّ.. قلدتيني مفاتيح نفسك..
(بشرى على الجانب الآخر صامتة دون أن تنبس بكلمة)
وهو مستطرد قوله: ما عدا مما بدا.. ألسنا بالأمس في قطار الشوق.؟ وقد أجمعنا على الهوى، وعرضتِ عليَّ ما أبيت أن أجيبك إليه؛ اليوم تنكرين عليّ كل ذلك.!
يتحسس الصوت، ينظر في الشاشة، مازال الخط موصولاً، لربما حدث انقطاع بالخط، فما بالها لا تجيب، وبالكاد فقد فعلت

مـا توقعـه منشـد مـن قطـع الخـط، وأن عـزا ذلـك الـى ضـعف الشبكة، لكـن مـاذا لـو كـان خـلاف مـا توقـع، فلـم يصـبر عليهـا طويلاً حتى أتصل بها.. ففتحـت الخـط علـى مهـل: تفضـل.. أنـا أستمع.

منشد بحمق: لماذا أغلقت الخط.؟

بشرى: ليس من عادتي ذلك، ولا من شيمي؛ ولكن الرصيد نفذ.

منشـد مرتـاب بـين مصـدق ومكـذب لهـا، اضـطره عـذرها بالتصديق والمواصلة بقوله:

ــ الى أين وصلنا.؟

بسخرية ومكر: الى حيث كنـا فـي القطـار، وضـغطت علـى زر قطع الخط.

منشد كاد يجن، أراد أن يرمي النقال ويكسره، وهو يصـرخ فـي نفسه: ما هذه الخطوط التعبانة، لم كل هذه التناقضات، ما أتعس هذا الخط الجائف، ثم عاد الكرة مـرة أخـرى، وأتصـل مجـدداً.. بشرى تنظر للشاشة ضاحكة، بعدما تلاعبت بأعصابه وقد جن جنونه، وأزداد رنين نقالها دون أن تبالي لـه، وقريـب أن ينقطـع الخط، فتحت الاتصال معه: أهلاً منشد.

منشد بلا تريث: أين أنـت جالسـة، أخرجـي الـى باحـة البيـت أو حديقته، أبتعدي عن الغرف الموصدة.

بشرى ضاحكة: ما بك.؟

منشد: لِمَ ينقطع الخط.؟

بشرى: لست أدري.! غير إني أعرف أن الخطوط ضعيفة.

عود على بدء رجع منشد الى نغمته السابقة: هل تقولي لـي بأننـا لم نتفق على أي شيء إطلاقاً.

بشرى بنوع من الجرأة: لا أذكر.

أزداد استغرابه وغيظه، فهو متأكد حد ألاطمئنان بأن ما اتفقا عليه كان يقيناً لا يساوره الشك، فصرخ بها، ولكنني أذكر الكثير.
تقاطعه بشرى بوقاحة: مثل ماذا.؟
يسترخي منشد قليلاً: مثل رقم هاتفك، الكلام عن أبنتك وانفصالها، الطفل والنفقة وعرجنا من ثم على رغبتك بالزواج، ولو كان بالسر.
بشرى ببرود أعصاب غير معهود: إطلاقاً، لم يكن الشطر الاخير على اللائحة.
ازداد استغرابا، وهو يغمض عينيه بشدة: قد أكون في حلم، ولكن أي حلم هذا الذي تسلمت به باليد كل هذه المعلومات، وصمت هنيهة، وأردف قائلاً بعد تفكر: إذاً لِمَ اتصلت بي الآن، ماذا تريدين.
بشرى شعرت بضيق المخرج، فما كان منها إلا أن أغلقت النقال، وجلست في مقعد الأرجوحة الحديدية، وهي تفكر فيما إذا كان تصرفها سديداً، أو على شيء من الشجاعة، أم أنه خطوة في غلق المنافذ، وسد الطرق أمام أماني الطيش الحائرة، أمام نزعة متقدة، فكرت ملياً، إنها مجرد أحاسيس ليل دافئة، إذا لم تكن قاتلة فهي بالتأكيد خاطئة.. وعلى الرغم من رجاحة ما توصلت إليه بدت لوامة لنفسها، معاتبة لتصرفاتها ذامة لسرعتها.. إنه بصيص من نور في ظلمة النفس والدنيا والشارع المتوحش، المتوثب للشر والصراع.. إنه خيط من أمل تعلق عليه رغباتها الجامحة المكبوتة، إنه الحب الذي نساها ونسته، والنجاة التي أملته، كل ذاك ذهب بساعة غابرة، في تقلبات المزاج.. للحظة إنها تذكر الكثير من المواعيد، التنازلات التي أبدتها، لربما كان ظرفاً خاصاً ـــ هذا ما يمكن أن تبرره

بها ــ لكن لَكَم من الأقوال والأفعال في مثل هذه الظروف تؤخذ على المرء الى الحتف.
لربما الجو الغابر المترب، حركة القطار وزئطته المستمرة، احتكاك الحديد على الحديد، الليل، السفر، الخلوة هو من أثارها أكثر مما ثارتها لواعجها.. ورجعت بنفسها إلى الساعة، إنها تعيش لحظة إفلاس، اغتراب، وحدة، انكسار سيقتلها اللوم والندم، فهل من طريقة ترجى في الوصول الى ما تبتغي.. غير أن تضغط على زر نقالها، مفتعلة ألف عذر وعذر، متصنعة المزاح، أو الطريقة الأكثر شيوعاً إدعاء التجربة وجس النبض.. وأن كان أشد ما يعترضها سؤال طالما سألته وبجرأة: ما الجدوى؟ وما هذا التصابي الفارغ.؟ وآلام هذا التمعشق.؟ فأنا امرأة رشيدة.. ماذا لو قالت ابنتي عني بأني مراهقة، ألبس ثوباً ما كان ليليق بعمري.. وظلت جالسة ساكنة الحراك، إلا أن في داخلها تتغور براكين وحرائق مهولة، أتتعوذ بالله من الشيطان، أم تتعوذ من نفسها المترددة.؟
في حين كان منشد لا يختلف كثيرا عنها، وهو يقارع هواجسه الحيرى، بعدما احتفت به رجلاً رشيداً على وجهه سيماء التدين، كما هو الظاهر في ملبسه، بخاتميه العقيق، ومسبحته السوداء، وإكثاره من الاستغفار والذكر، طيلة الطريق كان دليلاً على التزامه، وقد تحاشى التقرب منها، على الرغم من قرب ركبتيه اللتينِ كانت تلوحان ركبتيها، في تلك الليلة الليلاء، حتى عندما خاضا حديث القلب، كان يتكلم بأدب وكياسة دون أن تفضحه أطماع رغبته، الذي حاول جاهداً على إخماد أوارها وقتئذ.

هذه اللحظة أكثر اللحظات إحساساً وإدراكا أن ما مضى مضى، إنها نزعة خامدة كخلايا الإرهاب النائمة، تنتظر الدعم في إيقاظها.

فوضع نقاله في جيبه، وهو يصرخ بجندي فات من قربه، لم يؤد التحية العسكرية.

الأميرة الصغيرة

هلَّ هلال الخير، إنه شهر رمضان المبارك شهر الخير والكرم والطاعات، جاء بوهج من نور، ونبراس عدل وعطاء، مالت إليه الناس شوقاً كحبيب يميل لحبيبه، أنه أجمل رياضة روحية، معزوفة عشق أبدي يبلغ صداها السماء، احمد قادر على أن يصوم الدهر كله طاعةً لله، لكنه لا يقوى على الإمساك لحظة واحدة من دون مهاتفة نداء.. إنها شغله الشاغل، الأمل الدائم الذي يغذي فيه البقاء.. أصبحت كل حياته، وكل ما يمت به من قريب وبعيد أجمل صلاته وأدوم عشقه.

إنها، بثينة، وعد، ميساء، ليلى العامرية، إنها خلاصة كل عشق كتبته الأساطير بحروف من ذهب، أبلغ للذكرى وأدعم للأثر.

لا شيء يتلذذ به مثل طعم ذكراها، صورتها التي لا تفارق مخيلته، إنه غارق في بحر (غويط) انه بحر الحب، ليس في ذهنه كلمة ترن إلا صوت نداء يسبقها، كل حرف تنطقه ينظم دقات قلبه، خفقانه ونبضه.

ظل احمد هائماً عن عالمه غريباً في وطنه، يجأر حباً ويزأر قهراً: (أعطوني نداء وخذوا كل ما عندي) وراح مبالغاً أكثر عندما ازدادت عذاباته، في بُعدها عنه بقوله: فليأخذوا كل أشيائي معتقداتي، ويهبوني نداء وحدها وفي منفىً في جزيرة نائية أو قفار وفيافي، وبدا لا تعرف وجهه من ظهره، ضاعت كل معالم شخصيته بسكون، فهو لا يعدو أن يكون إلا صنماً في

معبد مجهول.. سكران حد الثمالة بحب طفلة، نعتها بالأميرة الصغيرة.
إفطار الضباط إفطارا (مجتمعاً) بإمرة الآمر في بهو الضباط، البعض منهم من يسارع في الصلاة وآخرون ينتظرون الإفطار.. الكل مجتمعون، الآمر عقيد ركن، يتمتع بروح رياضية وأخلاق لا تختلف عن خلقه الجميل، كما يتحلى بخبرة كبيرة في مجال عمله، وهو ضليع في فن قيادة الرجال، ناهيك عن كونه صاحب لغة عشقية جميلة، يتغنى بأنواع السباب المحبذ، الوجبة الأكثر شهية بين مختلف الضباط الشباب، والأجمل من ذلك فهو مسامح وسخي ويخاف الله.
وقلما تجد هذه الصفات بأقرانه، بدأ الإفطار بقوله: تفضلوا.. بسم الله.
ما أن ابتلت العروق، عاد نور الوجه يشع نضرة وظرافة، وابتدأ اللغط والسباب المبطن بعد أن حال الصيام بينهم وبينه.
الآمر بطبقة صوتية عالية ومميزة: الجند إخوانكم، فلا تبخسوهم حقهم ولا تظلموهم.. وصمت هنيهة ثم أردف: لكنهم ليسوا أصدقاءكم بالإهمال بالواجب.. كما لك حق عليه فعليك مثله، وكلكم في الواجب سواء، ويبقى للوطن والدين عليكم أكبر الحق.
بينما كانا ملازم عبد الله وحسين يتهامسان صاح بهما الآمر: طاح حظك.. عبد الله الحيوان.
ضحك الجميع بما فيه عبد الله الذي يدرك تماماً بممازحة الآمر الذي اعتاد عليه هو وسائر الضباط ما عدا ضباط (أبناء العراق)، فلهم حرمتهم الخاصة، كونهم منخرطين بأحزاب إسلامية عريضة فضلاً عن أعمارهم الكبيرة التي يبدي فيه أصغرهم أكبر سناً من الآمر، لكن نقيب احمد كان أكثر الضباط

قربـاً مـن الآمـر بحكـم انفتاحـه وخـوض حـديث الغـرام بكـل التفاصيل.. وكان وقتها هو الوحيد مشغولاً بشغله الشاغل فلم ينبس ببنت شفة ولم يسمع لـه حركـة، فاستغرب الآمـر صـمته متسـائلاً: هـه.. نقيـب احمـد، بـم أنـت مفتـون ومتـوهج، لربمـا بوهج.؟!

استغرب احمد سماع هذه الكلمـة، مـا أدراه بقصـة وهـج، فهـو مهما كان على علاقة كبيـرة بـآمره، فمـا كـان ليظهـر شـيئاً مـن خصوصياته، لكنه تأكد بأنه قد تكلم عنهـا كثيـراً وفـي مـواطن مختلفة أمام أصدقائه الضباط، ومثل هذه القصص لها من ينقلهـا بسرعة قد تفوق حتى سرعة المعلومات الاستخباراتية.. فصمت كصمت قبر دارس.

لكن الآمر عاد عليه الكـرة: أحقـا إنهـا كـادت تنتحـر حبـاً إليـك، أحس احمد بفداحة القول، إنها سـخرية لاذعـة، لـم يقصـد الآمـر منهـا سـوى الضـحك لا الانتقـاص.. فتـذكر للحظـة قـول نداء:(ساحبك حتى اجـن بـك، سـأعبدك واقتفـي أثـرك، سـأموت وادفن في لحد فؤادك.. أنا متيمة بك حد الموت).. فعـاش بقولهـا بعيداً دون ان يسمع أي طنين آخر، صوت الملاعـق والصـحون وصريف الأسنان وهسهسة الخبز كان بمنـأى عنهـا، انـه يسـمع صوت العشق يشـعر بحـرارة الجـوى، يسـبح بتبـاريح العشـاق، ويقول في نفسه: جاءت من تعادل وهجاً آلاف المرات، من هـي وهج أمام نـداء تلـك مـن جـيش الشـام البـارد، وهـذه مـن جـيش العراق المتوقد، الأولى تسيرها الرغبة الأمويـة بـالفتح والثـروة والشهرة.. بيد الأخرى تسيرها الرغبة بالحب والدين، وهذا مـن مصاديق الايمان، إذا لم يكن من أعلى مقامات الصادقين.

استفزه صوت نقيب حسان الصادح: دعـه سـيدي فهـو فـي حـب ملائكي.

بينما كان لملازم أول حسام رأيٌ آخر بقوله: بل هو كمن في حفل جنائزي ينظر الغرباء وهم يبكون الميت، وأهله يتقاسمون الإرث، وهو لا يدري يعزي من ويوّجب من.
الآمر ممازحاً: تعني أنه ضائع.!
منشد متداخلاً: هذا إذا لم يكن قد ضيع المشيتين.
في حين لم يجد احمد أسمى من الصمت ناطقاً وحكيماً.. وهو يرمي الجميع بنظرات غاصة بالأسى والأسف عليهم، موتى، يعيشون بلا حب، صرعى يتنافسون على الخلود في خضم رحىً للموت طاحنة.
كان ينظر في وجه الجميع لم ير سوى نداء هي من جلست بجنبه وإزائه وفي كلا الجهات اينما امتد بصره.. لكنها صامتة صمت رجاء نوال وحياء ودلال، منكسرة لا يسعفها إلا حبيب صادق، ينتشل جثمانها الغارق في بحر هائج العنان، إنها تلمس الوحدة العصيبة، وحشة المصيبة، وخوف الضياع، وتمنى أن يصيح بأعلى صوته أنا المنقذ.. أنا قادم لك وحدك سأكسر كل أطواق الحصار، ستهون بي كل البلايا وتنجلي الأسحار.
الآمر لا يروقه صمت احمد، الضاحك الممازح، والطريف الظريف، فسأله بأدب سامٍ يليق بمكانته منه وسنه: ليس من العادة أن يطبق الصمت فيك، وتشرد شرود الملتاعين، إذا كان عشقاً فأطربنا فكلنا عشاق.
ساء بعض الضباط هذا التعميم، خاصة وهم في الشهر الفضيل، وتمنوا الخروج لكن لا مناص من البقاء، فللعسكرية قوانينها شاء من شاء، وأبى من أبى.
احمد يستفيق من صمته: وأيُّ عشق سيدي أرويه فقد أبكى صلف القلوب الأجلاف.

الآمر بتروٍّ: ما كنا ندريك سَكران في غرام طفلة، وتتطوح الليل كله مسهداً تغنيها.
احمد بشوق: ليس في العمر متسعٌ للامساك عن رغبة هي أسمى رغبات البقاء.
الآمر باستدراج بيّن: لكنها طفلة، والطفل يربك عزائم العقلاء.
احمد، يطوح برأس متموج الأشواق: طفلة خبرت الحياة أفضل من هرمة شاخت بلا هناء.
الآمر بشيء من الفضول: بم يمكنك وصفها.؟
احمد باختصار: بكل شيءٍ جميل.
ثب له منشد قائلاً: تحديداً.؟
كان سؤال منشد سؤالاً مخيفاً فهو يدرك من المناقب ما يدرك من المثالب، وقد تعمد في سؤاله هذا بغية استفزازه بل وتوريطه ما أن يتكلم خلاف ما هو معروف لديه وبالتالي ينقض منشد عليه كما ينقض الأسد على فريسته، ولربما أراد منشد بذلك التشفي بصاحبه وانتقاصه، فتحاشى الجواب.
لكن الآمر مسك بذيل الكلام قائلاً: لم تجب صاحبك بعد، أم إنك تعد إجابة شافية مختصرة، فهذا الجواب مفروض، كوننا نود أن نسمع ما يعبر بالضرورة عن ذوقك في النساء.
احمد وجد الأنظار مصوبة إليه، وأدرك أن هناك رغبة كبيرة في إفحامه؛ وإن كان الآمر يحب الاستماع ليس إلا، كما أن أكثر الضباط الصغار، كان في ودهم معرفة نقاط الجمال الرئيسة في المرأة، وهذا ما يكشف عن رجل خبير مثل احمد، بحكم سنه وتجواله الكبير في البلدان المجاورة، وليس هذا وبعد، فهو لطالما كان يصف الحسناوات اللاتي مرن عليه في حياته بإسهاب.. وصادفهن في مجال عمله وتجواله.. وبعد ان يئس الجميع منه صاح به ملازم أول حسام: ماذا تنتظر.؟ نحن

لا نسألك عن سؤال علمي أو ميتافيزيقي يتعلق بالغيبيات وما وراء الطبيعة، نحن نسألك عن فتاة عشقتها، لِمَ عشقتها، وما هي مواطن الجمال فيها.؟

تداخل منشد بدون تأنٍ: لربما لأنها عشقته.

الآمر ملاطفاً: هذا الشطر الأكبر من الجواب، لكننا نسأل عن وصفها.

احمد، يجمع شتات فكره المتناثر، وما عصف به من إلحاح السائلين قائلاً: إنها الأميرة الصغيرة، (صوفي مارسو).!

مواسم الخروقات

عيد بأية حال عدت يا عيد..

جاء العيد لم يكن احمد وقتها من المجازين، عيد العراقيين: الوحدة، الصلاح، لمة الأحبة، وجمعة الخيرين.. الاجتماع على كلمة واحدة، هي صدق النوايا، والعمل في إنجاح العملية السياسية، وإنقاذ العراقيين من براثن الإرهاب.. هذا العيد مثله مثل سائر الأعياد، فتهديدات الإرهاب قائمة ما يدخل أكثر وحدات الجيش والشرطة في الإنذار، انه موسم القلق، توجب اتخاذ تدابير الحيطة والحذر والانتباه الشديد.. لذا كانت كل أبواب المنطقة الخضراء، متأهبة ومستعدة لتفادي الأخطار، وصد كل مخططات العدو، احمد لا يدري ما يصنع، فعائلته تبعث بالرسائل، وتلح عليه بالمكالمات الهاتفية بالمجيء، لكونهم يتمنون أن يقضوا العيد معه في زيارة الأهل والأقارب، والأماكن المقدسة، والمتنزهات العامة، ودونه يحرمون كل هذه المتعة.. لكنه يبرر ذلك بالواجب الذي لا مناص منه ولا فلتان.. بينما كانت مكالمات نداء الأكثر قسوة على قلبه.. فهي تبكي لرؤياه وترجوه بتذلل والحاف سائل، أن يطلع عليها بطلعته البهية ليسكن لهيب صدرها والجوى.. فقد عذبها النوى، وضيق عليها الأفاق.

حتى انه لم يكن على قناعة تامة بأجوبته الجوفاء، فما يعني الإنذار والتهديدات والإرهاب أمام قلب نابض بالحب والحياة، وان للقاء بها شحنة عزة وإباء، لكن ما كانت الظروف بالهينة

التي تسمح له بترك الوحدة إضافة الى خجله من آمره وزملائه، فانقطعت المكالمات الصوتية لأنه يكره ان يسمع بكاءها عليه، فهي بدت تولول عليه كمن تولول على ميت لها، فباشرها بالرسائل كحلٍّ وسط يمحي بشكل من الأشكال سقوط ماء الوجه، فهو لا يرغب ان يراها منكسرة متوسلة في لقائه، وهي بالكاد لم ترد ان تفسد عليه حياته العملية فهذا مصدر رزقه، ورزق عائلته، وقد يكون في يوم من الأيام رزقها كذلك.

من بين عشرات الرسائل التي تصلها منه، كانت هذه الرسالة مميزة عندها، فقد خطتها على جدار الغرفة بقلم ماجك عريض، وكتبتها على مفكرتها اليومية وعلى الخشب الداخلي للكنتور وهي: ضمنت في السماء من يشفع لي، لكني لا أضمن في الدنيا غير شفاعتك، ودونك ألج نار الوحدة والاندثار.

أحيانا يشعر انه يكفر، لكنه يعود ليقول: إني لم أتجاوز الخطوط الحمراء.. فالدين ينصحني بالحب، انه حبٌ عفيف طاهر؛ حب نداء.. ويستغفر الله لائذاً به من هول البعد والفشل والخصومة.

بينما امتلأ نقاله برسائلها المتواصلة وصورها الجميلة، وهو يقلب صندوق الرسائل، منها رسالتها الناهدة: إذا ما اختبئ الساسة في بروجهم العاجية، ستجد في روحي إليك برجين ناهدين مخبئاً وملاذاً وقتما اشتهيت العزلة والاعتكاف.

فيضحك احمد نشواناً، ويكتب لها الرد: هما برجان مسوران بلون العاج ومنارتهما من الحجر الخرساني الأسود وله دعامة كمانع الصواعق، هذا إذا ما كان هو الصاعق الاكبر.

وتتباهى بحسنها حد الإفراط: أنا أملك من الحسن ما لا يملكه غيري به من الحس ما يطرب ومن القلب ما يلهب، وفي وجهي سحنة الخاشعين.

فيماشيها احمد على غير هدى: أنتِ للحُسن أصلٌ وباقي النساء كلهن فروعُ إذا ما اشتبكت راحتينا، نسينا ما لنا وما علينا.. بضوء وجهك ضياء روحي، وفيك التعزي لشد نوحي.
وأسهبا وأطنبا في رسائلهما، وانتهى العيد، وما انتهت التهديدات، فلا بناته وزوجته فرحن به وتمتعن بقربه، ولا عشيقته نداء نالت مبتغاها ورؤيته، ولا فاز هو بشيء مما أراد ولو بإجازة قصيرة يكشف به عن تعبه، وقلقه، في زجه بأكثر من نقطة، كضابط مرابط بديل، ومساعد للضباط المجازين.. هم ينعمون بإجازاتهم الدورية، في أكناف العيد، بين أهاليهم وزوجاتهم، أو عشيقاتهم؛ بينما هو يلسعه لهيب القهر والتذمر والانزعاج.
ففتح نقاله كشف عن الرسائل، وجد نفسه قد شطح في أكثر من جملة وفي أكثر من مكان.. تحسس للمرة الأولى إنه مراهق، بل ومراهق على درجة من الخفة والرداءة بأن يمكنها من كل شيء بما في ذلك عقيدته العتيدة على الطغاة، وأعتقد بأن ذلك من لغط المحبين، وهياج اللغة، والضعف في القلب، والركاكة في الأحاسيس، إنها خروقات تتجاوز العقل، لها مواسمها غير المعلومة كمواسم: الجراد في البلاد، والقمل والضفادع والبعوض.

قلوب من نحاس

ما ظن منشد أن يقع فيما وقع فيه الآن، انه يعاني من ذكرى أليمة لإنسانة وديعة تحولت في لحظة لأفعى مخيفة تغوص في جوفه بعد أن سبق وتنازلت له عن كل شيء.. كل شيء بلا استثناء.. إنه لم يحس بالعشق اتجاهها بمقدار ما يحس بالندامة والخداع، لكنه لم يدرك للحظة واحدة ماهية الرغبة، بالأمس كانت جامحة واليوم عاكفة في صومعة الخشوع.. الأمس غير اليوم، كانت امرأة متحررة.. مهتاجة ملتاعة ومحتاجة، واليوم فهي هادئة وقورة لبست ثوب الحشمة والسكينة.

ـ إن أشد أمراض عالمنا (البدائي) الانتقام.

كان جواباً شافياً نطقه عقله الباطن.. التشفي هو ما يسعى وراءه وينشد، من امرأة مسكينة اعترضت طريقه في ساعة غابرة الإحساس، واستعصم أن يجيبها الى طلبها، إلا أن يمرر قراره هو، فالتزمت الصمت إزاءه، لا صمت رضا بل صمت اعتراض.

منشد من النوع الكتوم جداً، والحريص على أن يرى بمنظار واحد، وإن كان لا يصبر على ذلك الى أمد كبير، وكان منه أن أفرغ ما في جعبته الى صاحبه فارس العطار، الذي استغرب بدوره من لعبة العشق، تصابي الكبار، أبداً لم يكن بالأمر الجديد ولا هو بالنادر، لكن أن يكون منشد هو المقصود في ذلك فهذا أمر لا يصدق ـ على حد قوله ـ وأردف قائلاً: لماذا تنازلت عن موقفك الشجاع في إهمالها؟ لماذا ضعفت الى هذا القدر الكبير.؟

لم يجد منشد ما يجيبه به غير قوله: إنه الكبر.

فارس العطار: تقصد الهرم، أن يشيخ العقل، بالعكس فالأحرى أن تشيب الأحاسيس، أن تخرس المشاعر وتكبت اللواعج والتباريح.. الشوق كل الشوق للآخرة للأحبة هناك.
منشد يطأطئ رأسه ندماً على ما فعل. وأن كان أكبر ندمه اعترافه لصاحبه، والمشكلة تكمن فيما إذا سمع احمد بذلك، ما هو رد فعله.؟ فهل ثمة أجوبة جاهزة معدة للرد عليه.
العطار، ضاحكاً: استعذ بالله، إنها مجرد نزوة عابرة وانتهت على خير.
منشد لا يصدق هذا الكلام ففي داخله ألف اعتراض عليه، إنها لم تُعد على خير، بل قد تركت أثراً بالغاً في النفس، مازال موجوعاً من ذكراها ويئن، عليلاً في هوى من لا يرحم، متسائلاً: ما هذه الدنيا؟ من هؤلاء الناس.؟ إنها قلوب من نحاس لا تصدأ ولا تكسر.
العطار بروح مرحة: الدنيا ذاتها على ما هي عليه، التي تغير فيها البهرجة والزخارف، أما الناس فمحظوظ من صادف من يريده.
فثب احمد بينهم مسلماً عليهم: السلام على الأعزاء.
أجاباه: وعليك السلام.
احمد، متطفلاً: سمعتكم بسيرة الدنيا والحظوظ.
منشد محاولاً غلق الموضوع بطريقة ملتوية قائلاً: كنا بصدد فتوى السيد السيستاني عن القائمة المفتوحة، فما رأيك.؟!
احمد أذكى من أن تنطلي عليه هذه الفبركة قائلاً: وما دخل الدنيا بهذه الفتوى.. ثم تسألني ما رأيي فهل ترجح رأيي على رأي المرجعية الرشيدة.
العطار يتلافى الموضوع: الحق إنا كنا نخوض بحديث عائلي، وان كان لا يخفى عليك، إلا إن به شيئاً من الخصوصية، سكت

احمد ملوحاً بالاعتذار من التطفل، بينما كان وجه منشد أصفراً غلب عليه الخوف والخجل.
فتساءل العطار مموهاً: لا أعرف حتى هذه الساعة ما تعني القائمة المغلقة من المفتوحة.
فثب احمد من مكانه: إنها قوائم مطاطية إن مططتها فتحت وإن تركتها أغلقت.
العطار متعمداً: لا أفهم ما ترمي إليه.
سبقه منشد للقول: أنت تعرف مقاصده فلم تلح عليه.
العطار: لا.. وأعرف مخارج حروفه والمداخل.
احمد، عابثاً: نقصد مداخل ومخارج المنطقة الخضراء والوجه الحسن.
العطار: بالمناسبة خبرني عن الوجه الحسن.
منشد بازدراء: دعك من الوجه الحسن، وخبرني عن الوجوه الجديدة التي سترشح في الانتخابات.
احمد، ما زال في غيه: الوجوه ذات الوجوه، لم تتغير سوى الجوارب والقنادر.
العطار: لطالما كنت تتلاعب بالألفاظ مع إساءة الاستعمال.
احمد، بتحاذق: مثل ربطة العنق يمكنك أن تتزين بها وأن تصيرها مشنقة.
منشد بعنف: متى تكون جدياً.؟
احمد: لم أكن جدياً مثلما أنا عليه اليوم.. أنا عاشق.
العطار في محاولة لإغاظته: لو أعرف بالتحديد ماذا وجدت بك هذه المسكينة لتفتن بك.
لم يكن السؤال ليغيظ احمد، بمقدار ما صدمه أبعاد هذا القول الذي لم يفكر به مسبقاً.. فالحق ماذا وجدت به، لكن سرعان ما

آب الى رشده، بقوله: إنها وجدت بي القلب الرقيق الذي لم تلوثه بعد آثام الحانقين.

تحديث أم تجديف

في جو تشريني هادئ مصحوب بنسمات باردة بانقلاب البرد على الحر.. التقيا الصديقان احمد ومنشد في دائرة الهجرة والمهجرين بعد استعلامهم من بعض أصدقائهم القدامى العائدين من المهجر، بان الدائرة أنفة الذكر طلبت تحديث بيانات، يومها كان الجو مشحوناً بالظلامات والغبن ما تسبب بالحقد والضغائن اتجاه رجالات الدولة.. المهاجرون باصطفاف على شباك الحاسبة وشباك القانونية وشباك الاستعلامات، شبابيك الاستجداء.. قد يطول الوقوف لساعات، ولربما لأيام، وجلب أضابير ومستمسكات وصور ضوئية وصور شخصية وأدلة وقرائن اثبات(مجهول) بأنك كنت مهاجراً بالإضافة الى الاضطهاد.

رجل القانونية يسال المراجع: لا يوجد في أوراقك ما يثبت صحة ادعائك.

المراجع ينظر بوجهه ملياً، وهو يفرك ذقنه بجانب سبابته، قائلاً: ائتني بالمصحف لأحلف لك.

القانوني: نحن نتعامل مع أدلة.

المراجع: ان إيران لم تزودنا بأدنى مستمسك، فماذا اصنع برأيك.؟

القانوني: ولكن الكثيرين من أقرانك عندهم أكثر من مستمسك.

المراجع، بحنق: هل تصدقني ان قلت لك ناس وناس.

القانوني: ماذا تعني.؟

المراجع: الأفضل ان تعرف بنفسك.

صد القانوني بوجهه عنه واستبعده بندائه: من بعده.؟

المراجع يهز برأسه أسفاً: فعلاً ناس وناس.!

القانوني أحجم عن الكلام واستدعى من يليه، وأغلق النافذة حتى حين.. بينما ضج المراجعون باللغط والصياح: أين المسؤول.؟ الى متى هذه المزاجية المقيتة.؟ آخر يبصق على الدائرة ومسؤوليها.. وغيره يشتم ويلعن بلا تحديد أو بالأحرى بلا حدود.

احمد كان ينظر عن كثب لردود الافعال المتباينة إزاء هذه الدائرة، وان كان أكثرهم استياء وانزعاجاً منها، حتى منشد الذي كان دائماً ما يتحلى بروح رياضية في تعاملاته مع الآخرين، هو الآخر كان يشعر بإعياء وغثيان من تعامل هذه الدائرة الممجوج، خاصة في تعاملاتها المتميزة بين من عاد من السعودية والدول الأخرى على حدة، وإيران على حدة.. الكل بكفة والعائدون من إيران بكفة فهم لا يحظون بمعشار ما يحظى به الآخرون.. التمييز قائم وواضح في كل مفاصل هذه الدائرة.. وان كان ادعاؤهم بذلك صحيحاً، كون ان القادمين من الدول الأخرى يمتلكون أوراقا ثبوتية توضح تاريخ وظرف هجرتهم ومدة بقائهم، على خلاف أكثر العائدين من إيران.

لم يجد المهاجر قوة أقوى من اللسان الحاد، ففيه يؤخذ الحق، ودونه ينتزع.. فترى المهاجرين مدججين بالكلام خاصة ممن عاد من إيران فهو لا يملك رصيداً أعلى منه.. نيفاً وعشر سنين أمضاها في مجمعات مخنوقة المساحة، مكتظة بالسكان.

الموضوع أثار حفيظتهم، ففي البصرة يكمن أكبر عدد من المهاجرين الى إيران وحتى الساعة بعد مضي خمسة أعوام وهم لم يأخذوا أي حق، وان أهم ما يطمحوا به هو الحصول على قطعة ارض سكنية تمكنهم من مواصلة الحياة، فالكثير منهم من ذهب اعزباً فتزوج وأنجب أكثر من طفل، وعندما عاد، عاد إلى بيت منقض، تتكالب عليه الورثة.

فلا هو يقوى على شراء بيت، وان كان في المناطق الريفية النائية، ولا يقدر على استئجار بيتٍ كونه خرج بلا وظيفة، أو خرج صغيراً وعاد بلا شهادة ولا مادة تمنحهم مواصلة الحياة بحرية وسعادة، ما دعاهم للهجرة من جديد، ثانيةً وثالثة.
هتف بهم أحد الأشخاص المعروفين في المهجر: كل المحافظات منحت المهاجرين حقوقهم ما عدا البصرة، فلنرفع شكوى جماعية ندين بها تصرفات هذه الدائرة بمسؤوليها وموظفيها ونقدمها الى مجلس النواب.
أجابه دخيل: الاثنان وجهان لعملة زائفة.
صاح به منشد: لا تقل ذلك، بل قل..
قاطعه آخر: ماذا يقول مجلس اللا أبالي بشعبه وجماهيره العريضة، غير (ولا على بالي).
ضحك احمد وهو يستمع لهذه الترنيمة، حتى صادفه أبو علي الأحمر المشهور بالأهازيج و(الحسجات) فسلم عليه بحرارة، وهو يردد حسجة قديمة اشتهر بها في أيام المهجر: (نأكل دكَة وعظام وما نرجع للنظام).
فسأله احمد: واليوم ماذا تقول فهل هناك حجة أو نكتة تناسب الموقف الجديد.؟
فصاح أبو علي: لا أوصيكم إلا بالصلاة ركعتين طلب قطعة ارض.
فتداخل آخر مألوف الوجه: سعر القطعة في الاقضية ثلاثين مليون ديناراً فما فوق فأنت بحاجة الى ثلاثين مليون ركعة وبالتالي تموت وتحصل عليها بالجنة.
فلفت انتباه احمد مسالة الجنة وتساءل هل هناك برلمانيون ووزراء وحزبيون سيأخذون حصة الأسد، ويسكن هو

والصعاليك في أطراف الجنة القريبة من النار.. الى ان استفزه صوت منشد:
ــ هيا بنا ندخل على المدير.
تعوذ احمد بالله من الشيطان الذي سحله إلى حيث لا يتوقع.
فقاطعه منشد: أنا أقول المدير ولم اقل الشيطان.
احمد ضاحكاً: وان لم يكن ثمة فرق، لكنني لا أعني إلا الشيطان بالرجم واللعنة.
منشد يهز برأسه متحاذقاً: تعال نفهم من حيثيات القضية، تحديث.. تحديث، الى متى.؟!
احمد، ممتعضاً: لا تقول تحديث إنما هو تجديف وتسويف.. دائرة شغلها الشاغل المماطلة والضحك على الذقون، والله لو ان بيدي الأمر.
منشد بخبث: ماذا تفعل.؟
يحملق احمد بالسماء: يا لله ولمجلس النواب، لعمدت على توزيع قطع أراض عن طريق البلدية، الاحوج فالاحوج، وسكرت أبواب الوزارة سيئة الصيت؛ ولكن ماذا أقول.؟
ربت على كتفه صديق قديم، قائلاً: لعل الحكومة القادمة ستفعل ما نطمح.
احمد أطال النظر بوجهه ملياً، لم يذكر وجهه وان كان يراه مألوفا، لكنه لم يتوصل الى إجابة شافية بمعرفته أو حتى معرفة اسمه، فانصاع تماشياً لرغبته قائلاً:
ــ لربما القادم خير.. ورفع يديه الى السماء صائحاً: يا لله وللشورى، لو أنهم شاوروني فقط.
فرجع إليه صاحبه بالقول: ماذا تصنع.
احمد بسرعة مخافة ان يشرد الجواب: لدمجت كل وزارتين أو ثلاثة بوزارة.

سور الطين

في لحظة الحب.. ساعة الذروة والانتشاء يتوه العاشق ينسى كل من حوله هذا إذا ما نسي من يكون.. لا يعرف في تلك اللحظة سوى انه عاشق على اتصال روحي بعالم من بلور وكريستال تنعكس صورته الى عشرات الصور الشفافة بروح بيضاء هفهاف، تحلق بعوالم من نور، تتراءى له جوهر الأشياء، يسكن عندها سكون من أسكرته الغبطة والابتهاج.

نهض احمد مذعوراً بصراخ طفله العائد من المدرسة مضروباً من قبل معلمته ضرباً مبرحاً لسبب تافه كما أوضحه لأبيه، فاستشاط احمد غضباً واخذ ابنه وسارع للمدرسة، بحث عن مكتب المدير فوجده مغلقاً وكان الفراش يصرخ به: انتظر يا أخي.

لكن احمد لم يسعه الالتفات إليه، فهو متشنج حد الانفجار لرؤية ابنه (الوحيد) بشكل مبكٍ يتلوى من الآم الضرب، وأثر عصا الخيزران على ظهره وكفيه.

فصاح به الفراش: هنا حجرة المعاون.

فدلف احمد سريعاً وبدون سلام صارخاً بالمعاون: أين هذه المعلمة، بنت الكلب.

فقام له المعاون وبطريقة التربويين المعهودة بتهدئته والأخذ من خاطره، نادى على الفراش:

ـ أتنا بالشاي، ثم أشار على احمد بالجلوس: تفضل أخي.
فجلس احمد إلا ان غيظه لم يبرد بعد، وهو يهدد ويتوعد المعلمة التي لم يرها بعد.. بينما كان المعاون، يسمع له ويترجاه بالإنصات له، وهو يقسم له ان حقه وحق ابنه لم يذهب سدى.. معللاً ذلك برفع كشف إدانة؛ وان مثل هذه الأمور لا تترك جزافاً.
فهدأ احمد، لكنه ما زال مصراً على رؤية المعلمة، وهذا ما لا يقبل عليه أي عذر وأي تبرير، واقسم للمعاون بأنه لم يرغب برؤيتها للخصومة بمقدار ما يحب تنبيهها ووعظها.
فجاء أحد المعلمين، ودخل على الخط مباشرة، وكان معلماً شاباً وسيماً تظهر عليه سيماء السماحة والحصافة، ونزل تقبيلاً الى احمد يترجاه بالصفح عن المعلمة، وتركها للإجراءات القانونية التي سوف تصدر بها من قبل الإدارة، وأعرب عن أسفه لما تعرض له طفله البريء، مبرراً ذلك بوقاحة أكثر التلاميذ فضلاً عن عدوانيتهم فيما بينهم وبين معلميهم، وأنهم يعانون الأمرين.
احمد لم تكن هذه الصورة لتغيب عن ذهنه، فهو يدرك تماماً ما وصل إليه الشارع اليوم لأسباب عديدة، قائلاً: رحم الله زمان، يوم كنا نخاف من المعلم أكثر مما نخاف من غيره، لا أحد يعرف ما يجري اليوم ولماذا تغير الزمان.؟
المعاون متماشياً معه: لا أظن إلا ان الفقر أكثر ما أربك الوضع.
احمد يغالطه: لا.. لا تقل ذلك، ان الفقر بريء من ذلك براءة الذئب من دم يوسف، فلا أحد كان أكثر منا فقراً، وكنا مدمنين تعليم.
المعاون يقاطعه: أعني فترة الحظر ١٩٩١، هي انعطافة خطيرة في حياتنا.

احمد بشيء من التأييد: الأحرى ان تقول الحرب.. هي السبب الرئيس في كل هذه الفوضى.
المعلم الشاب متداخلاً: والاحتلال.!
احمد لم ترقه هذه الكلمة: لا أؤيدك أبدا بهذا القول، فنحن متى كنا مستقلين أو أحرارا حتى يربكنا الاحتلال.
في هذه الأثناء دخل الفراش وهو يستمع بكلتا إذنيه للحوار فتداخل بلا إذن: لا أجد الاحتلال إلا نعمة، فقد جاب كل ما حرمنا منه النظام بلا استثناء، واليوم لا يعوزنا إلا الأمان.
المعلم الشاب: وماذا يعني كل شيء بلا أمان، إذن نحن نفقد كل شيء.
الفراش: ومتى كنا بأمان، وسيف الجلاد فوق رؤوسنا.؟!
المعلم الشاب: لم يطل سيف الجلاد إلا معارضيه.. لكنه سرعان ما لقى وجوه عابسة تحدق به فاستأنف قوله: وان كنت لا أنكر أنها حكومة طغيان.
لم يمهله احمد طويلاً: أنت شاب لا تدرك ما حدث ولا تدري ما كان، اسأل أباك وأعمامك، وسترى الأجوبة في عيونهم وعلى ملامح أجسادهم المنهكة، وللحديث شجون.
المعاون يشير لأحمد: اشرب شايك أستاذ.
احمد يمسك بطرف الاستكانة، ويحتسي حسوة شاي باردة، ويلتفت للمعاون: هل تذكر مدارس القصب، بيوت الطين، أيام القحط والفقر والعوز.
المعاون ضاحكاً: إنها أيام لا تنسى، وعلى الرغم ما كانت عليه أحوالنا، كنا بخير نشعر بان السعادة ترافقنا أين ما كنا.
احمد وصل لغرضه: أتعرف بأننا خلاف العالم كله فنحن من نود ان يرجع بنا الزمن الى خمسين عاماً مضت.. حيث الأمان، ودفء المكان، والأطعمة الجيدة التي لم تلوثها الكيمياويات،

الصداقات الكريمة والجورة المحترمة، الناس الأخيار، فضلاً عن التدريس فهو أفضل عشرات المرات منه اليوم.
وذكر احمد أساتذته الأفاضل، أستاذ يعقوب عبد الإله وعبد القادر وسالم القريني، وترحم على من مات منهم.
ووافقه المعاون القول: بان المعلمين كانوا رسل علم وتربية، وكانوا منبراً للثقافة، وحصناً منيعاً للمبادئ والقيم، وقدوة للخلق الرفيع والتسامي.
وتابعه احمد بقوله: أما اليوم فهم كسورٍ من طين هش، على الرغم من مرتباتهم الجيدة، إذ تجد فيهم المرتشي، ومن يسعى وراء الدروس الخصوصية، ومنهم من يعمد على تسقيط وقت الواجب ليس إلا.
المعاون مدافعاً: المشكلة ان ظروفنا لا تتيح لنا تلك الروحية التي يتعامل به أساتذتنا القدماء.
احمد، ببداهة، ووجع قلب: إذن علينا ان لا نتعلم، ولا نعلم أبناءنا، ولا نواكب العالم.. واستدار عنه صارخاً: أوه أيها النفطيون، أكثر شعوب الأرض كسالى وتخلفاً.. أخاف أن يأتي يومٌ يصنعون لنا ما يشغلنا عن نسائنا وما يشغلهن عنا، وان كاد قد يحدث بالفعل.
وفي معرض كلامه وحديثه المستفيض، إذ رن جرس الفرصة، ولم يحس إلا ومعلمة ابنه، قد وقفت على رأسه، كانت مثالاً حياً للجمال الأخاذ، رأى فيها صورة وهج ونداء وكل جميلات العالم التي صادفهن في حياته، فثب له ابنه قائلاً: أبي هذه المعلمة.
لم يكترث بصوت ابنه، فقد كان في شغل ينأى به لعالم السحر والهيام، كالمخمور يدور بأفلاك بعيدة عن مجرتنا، كل مجاهرنا والتلسكوبات الأرضية لم ترق لتتبع هذا النور الذي لا يظنه

دنيوياً البتـة وكـان يـدور فـي نفسـه: كيـف لهـؤلاء المعلمـين أن يؤدوا واجباتهم بصـورة صـحيحة.؟ وكـل هـذا الحسـن والدماثـة الطفولية تدور حولهم، وراح منقلبـاً علـى ابنـه يؤنبـه، بـدل أخـذ حقه، واستنكر عليه ـ في نفسه طبعاً ـ ان يسـير علـى خطـى أبيـه بالمغازلات الخائبة، والتحرشـات الذميمـة، التـي مـا زال يعـيش جاهـداً علـى تخطيهـا؛ لكنـه مولـع بـالهوى، وراكنـاً لأشـواقه المسعورة.

موسم القلق

في أجواء مكهربة بالمشاحنات السياسية، محتدمة بالصراعات (الحنجورية)، موسم العمل الإعلامي في صخب بدايات الانتخابات التشريعية، الكل يعمل في دأب.. تسربت معلومات من هيئة المساءلة والعدالة تفيد بانتماء القيادي صالح المطلك لحزب البعث المنحل والتي تحرمه من دخول الانتخابات، وفق مواد الدستور.. حيث لم تمض فترة طويلة، على ائتلاف قائمة المطلك مع القائمة العراقية، الذي يرأسها الدكتور أياد علاوي رئيس الوزراء الأسبق، في حين كان كل عمل يحسب على الدعاية الانتخابية مهما كان حجمه وثقله.

كان لواء بغداد من الألوية التي تعتبر القوة الاحتياطية لقائد القوات المسلحة وهي تمتثل لأوامره المباشرة تقريباً ومعظم أبناء هذا اللواء ممن يعدون على الأحزاب الإسلامية أو انتمائهم الطائفي أو المناطقية، في حين كان هناك القليل ممن ينتمون الى باقي الطوائف وغيرهم ممن لا ينتمون الى الحزبية، لكنهم يخضعون للمناطقية والمعارفية، حتى ان عوامل الانتقاء كانت مزاجية أكثر منها مسؤولية؛ لكنهم بشكل وآخر كانوا يدافعون عن قائمة ائتلاف دولة القانون.

كان أغلب ضباطه من دورة أبناء العراق الذين يعرفون بانتمائهم الإسلامي، وحسهم الوطني، كان لهم أراء وردود أفعال متباينة تحاكي صراعات الساعة، في جلسة مفتوحة قال

نقيب منشد: ان من العافية ان لا يبقى مكان للبعثيين في ظل الحكومة القادمة.
ملازم أول جسام بنوع من التأييد: على الحكومة الجديدة ان تقبر كل تحرك يمهد لعودة البعث، أو يفكر مجرد تفكير بإعلاء اسمه.
نقيب حسان: أين كانوا عن صالح المطلك كل هذا الوقت، على هيئة المساءلة ان تقاضي هيئة اجتثاث البعث عن سبب التغاضي عنه وعن أمثاله.
منشد يعترضه: لم تكن الظروف مؤاتية وقتذاك، عكسها اليوم، فالدستور هو من يحكم.
احمد يترك بصمة نقاش: لا اليوم ولا الغد يسمحان بشق عصا الوحدة، فنحن بأمس الحاجة لردم هوة الخلاف.
منشد يعرض عن إجابته بتقطيب وجهه، بينما بادره جسام الذي كان نداً شرساً إليه: إذا لم نسيطر اليوم على رقعة انتشار العدو، فان رقعتهم باتساع مستمر، خاصة ان معهم عدواً غير قليل من الكفاءات الجيدة في إدارة دفة الحكم، على ما عليه من تأييد إقليمي ودولي، يقدم لهم الدعم المادي واللوجستي.
فثب له حسان بعد ان كان احمد يتهيأ لإجابته: وهل تظن بعد هذا العرض المستعجل في تنحية بعض الرموز المرموقة ان يقف الشارع مكتوف الأيدي.
منشد غير مبالٍ: وما عسى ان يكون؛ إلى حيث وبئس المهاد.
احمد يمد سبابته في عين صاحبه: قل عسى ان يكون الأمر على خير.
تداخل عرضياً ملازم نجم متمثلاً بحكاية حكاها الجندي (صبيح) قائلاً: ان شاباً فاسقاً ابن فاسق يكره والده، فدعا الله ان يتزوج والده من فاسقة فينكحها الابن انتقاماً من أبيه فاستجيب

دعاؤه، لكن بالعكس. فقد توفى والده وتزوجت أمه من فاسق؛ فراح ينكح الابن وأمه.
فصاح به منشد: اخرس يا تافه.
فصمت الملازم دون ان يحري بكلمة، بينما نظر إليه احمد بشفقة، واستشف من حكايته المقتبسة: ان الدعاء بغير محله بلاء.
وان كان جسام يعتقد بان الحكاية ابعث على اللؤم وتفسيق الآخرين منها للسذاجة والتراث؛ لكنه اكتفى بالقول: (من هالمال حمّلْ جمال).
في حين ما كان بمقدور ملازم نجم ان يدافع عن نفسه ولو على الأقل يعلل القصد منها، بعدما انهالت عليه كلمات الذم والتقريع، فلم يجد مخرجاً أفضل من الاعتذار والخروج بأدب، حفاظاً على ماء الوجه.. وعلى الرغم من خروجه ما كانوا لينفكوا من الحديث عنه وذمه بشكل مجرح وفج.
بينما تصدى احمد لحديثهم بقوله: ان الولد لم يكن شريراً الى درجة الطعن..
جسام لم يمهله ان يكمل دفاعه قائلاً: أنت لا تعرف شيئاً عنه، ولا تدرك مأربه من هذه الحكاية.
احمد لم يستمع له، وقد اعرض بوجهه، وقاطعه متكلماً مع الآخرين: إذا كان كل من يخالفنا برأي نتهجم عليه بهذا الشكل المقيت، فأين نحن من الدين والأخلاق وأدب وثقافة الحوار التي تعلمناها من تجارب الحياة.؟
فاقفل جسام مبرراً تصريحاته بزعمه: الدين والأخلاق لمن يستحق.
فخطب احمد بهم قائلاً: كلنا خطاؤون، مرة بالقول وتارة بالفعل وأحيانا كثيرة بالإصرار، لكننا حتى هذه الساعة كجيش معاوية

لا نميز بين الناقة والجمل، لنقل إننا لسنا رعاة ونحن أبناء المدينة فما زلنا لم ندرك أيهما أهم الوطن أم المواطن.؟ ستقولون الوطن، بينما يقول الحديث الشريف:" حرمة المؤمن أفضل من حرمة الكعبة بسبعين درجة" ونحن ما زلنا نقبع تحت مسميات (فسنجونية) فنحن لسنا بحاجة الى بلد ندافع عنه، بمقدار ما نحن بحاجة الى بلد يدافع عنا.. ومعظم العراقيين ليس أشراراً، إذا ما وجدوا ظروف العيش ميسرة، وما تراه اليوم، وما يصدر منا، فهو نفاق وهو من أهون درجات الدفاع عن المكانة، والبحث عن الذات.

اعترضه جسام بقوله: لا أدري الى أي جهة تميل.؟

فأجاب منشد بدلاً عنه: انه يميل الى جهة واحدة، إلى جهة الحب والعشقيات، وللأسف فهذه نقطة ضعفه.

ضحك احمد بصوت ممجوج، وكركرة نشاز، وهو يقول: لا أدري متى كان الحب نقطة ضعف المرء.. ولذا فليحشرني الله مع المحبين.

فتداخل حسان بخبث متعمد لتغيير الموضوع: وأي نوع من أنواع الحب ترغب به: الداعر الماجن أو العذري الساكن.؟

لم يرق لأحمد إلا الضحك بنشوة، والاستهجان من كل شيء دون الحب، كما قال دائماً:

ــ حياة بلا حب، موت بلا آخرة.

فأجابه منشد بشيء من اللعانة: إذن فلنركض جميعاً وراء كل فاسقة وفاجرة.

شعر احمد بوخز كلامه، وما يرمي إليه، فردعه بغضب وانتقام كرد فعل طبيعي بقوله: همت بفجور البنات وهام غيري بفجور الأمهات.. والزمن كفيل بإماطة اللثام وكشف قبح الوجه من حسنه.

حار منشد أي المسالك للنجاة يسلك ومن أين يفر.؟ فربت حسان على كتف منشد وبشيء من اللعانة واللئامة قائلاً: أنت يا صاحبي من تفوز بالآخر، لأنك ستنتخب سياسياً عجوزاً خيرٌ من سياسي مراهق.!

الأمل المحاصر

احمد ومنشد في تيه: الأول في تيه الحب، والثاني في تيه الرفض.
حاول احمد جاهداً التنصل عما يكنه من حب عميق لعشيقة تطفلت على حياته غيرت كل ملامح وجوده وكل ما عدَّ من خطط وبرامج طموحة.. لم يستطع ان يهرب من لواعجه، ويسترد أفكاره الشاردة ولو لوقت قصير، يمضي به إجازته الدورية مع أسرته بشكل طبيعي، كان متجاوباً بشكل ملفت للنظر، قبوله لكل شيء مهما كان قد أعلن رفضه في السابق.. طلبات زوجته وبناته صارت أوامر تستحق التنفيذ مهما كلفته مادياً ومعنوياً، حتى ان زوجته شعرت باسترداد قيمتها المضيعة، وحقوقها المستلبة، فضلاً عن شعورها الكبير بالتعافي، خاصة وان عافية زوجها كانت على أتم وجه.. إلا أنها لمست منه بشكل أو بأخر شروده وهيامه في شيء لا يتجاوز التصابي.. حركاته كانت تشير الى ان وراء هذا الرجل سر كبير، تفضحه العيون، الابتسامة المستديمة، السهر، الانعزال، إنها حالات ينقصها الغناء وقراءة الشعر وكتابة الخواطر لكانت مراهقة، ولو صاحبها الصراخ والرجاء لكانت ولهاً وتيماً، لكنها كانت على أساس من العفة والنقاء فصارت حباً بلا منازع.
حاولت زوجته ان تستدرج رجلاً عصياً على العثرات أمام امرأة خبرها نيفاً وعشرين عاماً، فكيف يكون ضحية من كان مفترساً.؟ فباءت جميع محاولاتها بالفشل.. حتى انه في أكثر من

مـرة كـان يلـوح لزوجتـه بـالزواج عليهـا كونهـا لا تقـوى علـى مسايرة رغبته العارمة.
أما اليوم فقد انقطع تماماً عـن مثـل هـذه التصـريحات الجوفـاء.. فهو أكثـر حكمـة ونضـجاً مـن ان يفتعـل المشـاكل أو يختلـق مـا يعكر عليه صـفوه، فزوجتـه تبقـى جُنـة ووقايـة لـه ولأبنائـه أمـا الثانية فهي لقلبه وعقلـه وكـل روحـه، لـم يسـتطع ان يجـد مكانـاً فارغاً في كل كيانه خالٍ من نداء، فهي ملكت زمام قلبه وروحـه وساسته الى حيـث الهـوى ومصـرع العشـاق.. لـم يفكـر للحظـة واحدة الى أيـن ينتهـي بـه المطـاف، ولـم يـدرك مـا يريـده منهـا تحديداً.. أنها أضفت على حياته شيئاً من الغبطة والابتهـاج، فـلا يدري دونها ما كانت حياتـه أو تكـون.. رغـم بـرودة الجـو كـان يتمشى على السطح يساءل نفسه بملل: مللت من حسي، لا اسمع سوى صوت نفسي.. أيتها السماء أرفقي بعاشق ولهان.
يجيبه الصوت من مكان بعيد في خلايـا التكـوين: الـى أيـن أيهـا العاشق السكران.؟
تـذكر للحظـة انـه سـكران حـد الثمالـة، بشـيء اسـمه الحـب المستحيل.
بعد بحلقة طويلة في النجوم طأطئ رأسه إلى الأرض، وتساءل: هل يحق لنا أن نعيش حياة جديدة؟ وأين نترك هذا العـبء الـذي يكسر الظهر؟
لكنه ألجم فاه تساؤلاته بلجام الصمت والقبول، بقوله: إنهـا أيـدي الفقر التي تمتد لتخنق الحياة، براثن التعاسة التي تغـرز مخالبهـا في مك الانتصـار.. لا شيء اسمه المسـتحيل أمـام العزيمـة.. ولا شيء أدوم بقاءً من الحب ففيه بداية البداية.
شـعر بالـدوار لكثـر مـا جـال وصـال فـي أفـق الخيـال، الـى أن خرجت زوجته من غرفتها بعد أن استطالت مكوثه في العـراء..

انـه الشـتاء، وهـو لـم يرتـد سـوى دشداشـة خفيفـة للنـوم، كانـت متلفعة بشال طويل وجاكيت من النسيج اليدوي، صاحت بـه: لـم تنته بعد من عد النجوم.؟
التفت إليها قائلاً لنفسه بتوبيخ: أهذا زرع السنين، لبـئس الـزارع والمزروع.. وأعـرض عنهـا ومـازال يكلـم نفسـه بصـمت وهـو يركل الحائط بقدمـه: يقولـون لفـلان أصـابه مـسٌ مـن الشـيطان فكيف لا يصاب من يسكن في فراشه جان.
زوجته لا تـدري مـا تصـنع، وبـم تبـدأ الحـديث، غيـر ان الشـك والارتياب قد أخذا منها مأخذاً كبيـراً لا طاقـة لهـا علـى تحملـه، فصاحت به: هل أنت مشتاق الى الجيش.؟
في نفسه مجابهة ساخنة لكل سؤال مـا كـان ليبـديها علنـاً مخافـة من صنع مشكلة هو بغنى عنها، فقال: أذهبي الـى مخـدعك ففـي النوم تسكن العفاريت في عريشها.
ــ وأنت.؟
ــ لا عليك بي، إني أفكر في أمور كثيرة لمصلحتنا جميعاً.
ــ مثل ماذا.؟
ــ السكن، الحصول على عقار.. مصلحة نسترزق من ورائها.
ــ ولا يفلح التفكير إلا تحت النجوم.
ــ من قال إني ألتمس الإجابة من النجوم، إنما هي المناجاة.
استوقفتها هذه الإجابة القاطعة، وإن كانت تشك بصحة ما يقول، إلا إنها حاولت أن تكسبه بقولها: الأطفال نائمون.
درك المغـزى إلا أنـه كـان يـود العزلـة، بقولـه: إذاً لا تتـركيهم لوحدهم، خذي راحتك.
انسحبت منكسرة، فالرجل كان فاقد الإحسـاس، هـو فـي دوامـة، إعصار اسمه الحـب وأي حـب، حـب طفلـة محرومـة ومغبونـة تلوذ في كنف رجل صلب الظاهر خاوٍ في العمق.

المرأة تقلبت على الفراش، ترفع الوسادة تضعها على وجهها، تطفئ التلفاز، توقد مصباح النوم، جو الغرفة قرمزي دموي صاخب الحمرة شاحب المتعة، تكشف الوسادة من وجهها المحتقن غيظاً، تنظر لأطفالها بشفقة وعطف، وتتساءل في نفسها: ماذا يصنع أبوهم.؟ بم هو موهم.؟ هل عرضت عليه سارقة روحها لتسرق روحه.؟ وتجعله مجرد جثة هامدة مرمي في بيت عياله، أم أن هناك أمراً مهماً شغله عنا.؟ هل حقاً يفكر بنا بكل هذا الوله.؟ حتى يصير متصوفاً يناجي ربه في العراء، إن فيه لأمراً خطيراً، ليته يطلعني عليه، لعلي أستطيع مساعدته أو على الأقل مشاركته لأخفف عنه بعض العبء.. وتساءلت سؤالها المخيف: ماذا لو كان يكذب.؟ وأنه قد سقط ضحية لخداع امرأة لعوب، إنه في بغداد، وفي بغداد نار واتقاد، الجمال بكل أشكاله، حرية البنات، الانفتاح، إنها العاصمة لطالما تقل بها الضوابط وتنتفي العادات، فهي محط رحال الوافدين: الطامعين والمطمع بهم ومنها يتبلور المجتمع.

وقامت من فراشها، أزاحت ستار النافذة خلسة، تتلصص على زوجها الذي ما زال يروح ويغدو، سابحاً في تفكيره، حاولت أن ترجع إليه تسأله إذا كان بحاجة الى من يشاركه همومه ويشاطره أحاسيسه، لكنها خافت تجهمه وازدراءه، وأن يعد موقفها موقفاً سلبياً على الرغم من إيجابيته.. وفكرت لو أنها دعته الى نفسها بأثواب النوم الوردية.. وتتعطر وتوقد له الشموع، لكنها استحيت، واستنكرت أن تصل بها المواصيل الى هذه الدرجة، فهي ما أن كانت في شبابها لم تقدم على مثل هذا العمل فكيف بها وهي أم لخمسة أولاد، فرجعت لتشغيل التلفاز، وبحثت في القنوات، أخيراً وصل بها البحث الى قناة الأنوار، كان وقتها محاضرة للشيخ عبد الحميد المهاجر، تعمدت حينها

على تعلية الصوت.. فصاح بها بخفض الصوت.. ما كانت لتسمعه فقد كان الباب والنافذة مغلقة، وكان صوت التلفاز عالياً.
فجاء الى الغرفة صارخاً: اخفضي الصوت.
ففعلت ذلك، وأن كانت لا تروقها هذه المعاملة بطريقة مقززة وعصبية ممقوتة، وأعرضت عنه.
فقال لها: ما بالك متعجلة بالحزن والكدر.؟ ها أن عاشور على الأبواب وأحزني أنى شئتِ.
لم يعجبها كلامه، واستنكرت عليه هذه الطريقة، بقولها: من قال أن الحزن في عاشور وحده.؟
أجابها ضاحكاً: لكل شيء أوانه، والحديث يقول تحزنون لحزننا وتفرحون لفرحنا.
فأجابته بذات السخرية: ومن قال إنهم فرحون.
احمد ببداهة: مازال لا يوجد حزن، فأنها بالتأكيد يوم فرح.
زوجته: ولكني حزينة.. وسكتت مخافة الخوض في حديث يجلب المشكلة.
مسح احمد على ذقنه بأظافره قائلاً: ولم هذا الحزن يا ست الحسن.؟
الزوجة مستاءة: وكأن الحال بلغ حد السخرية والاستهزاء.
احمد متراجعاً: معاذ الله، فأنتِ فعلاً ست الحسن والجمال وما كان هذا المدح والثناء، إلا خليق بكِ.. لكنكِ تعرفين موقفي.. وسكت.
الزوجة بتجاوب: موقفك الخاطئ بخصوص الشيخ المهاجر.
احمد، بأنفة وكبرياء: لم لا تقولي هو الخاطئ.
الزوجة: وهل هذه الحشود المؤلفة كلها باطلة.. وأنت وحدك الصح.

احمد، بحزم: بالتأكيد لا، فكلهم على صح بحكم النية والقربة، إلا ان من غير اللائق ان تهرف بما لا تعرف.
الزوجة بازدراء: تعني انه لا يعني ما يقول.
احمد معارضاً: حتماً لا، فهو يعني كل كلمة يقولها، وهنا تكمن الطامة الكبرى، حين يكون خطابنا طائفياً بعكس الثورة الحسينية التي كانت ثورة لنصرة الدين ورسالة لكل العالم في مقارعة الطغاة.
الزوجة تضرب عصفورين في حجر: الظاهر أنت محبط بأفكارك الدفينة مع نفسك، لا غرو لو أنك تنبهت لحظة لحالك، لوجدت أن الخطابة الحسينية امتداد لثورة في وجه المد الأسود القادم من وراء العتمة.
احمد رجع لنفسه قليلاً، فهو لم يقتنع بالمرة في رأيه بالخطيب عبد الحميد المهاجر، بمقدار ما أحس بوخزة الإحباط، من أفكاره الدفينة في قاع النفس المعشوشبة بغضار الأمل؛ المحاصر بين الرغبة الجامحة، والواقع المرير.

مجرد وهم

في أجواء مشحونة بالدعايات الانتخابية والائتلافات السياسية هذا إذا ما تحوّل بعضها إلى تكتلات صغيرة تجمعهم قواسم مشتركة بالضد لمن ذاع صيته وبانت انجازاته أياً كان انتماؤه.. المشكلة إن الشارع العراقي بدا أشبه ما يكون بالضائع، فقد تشتت الأصوات ولا أحد يضمن نتائج الانتخابات المقرر عقدها في آذار، واغلب الظن إن هذه الانتخابات لا تختلف كثيراً عن الشهر الذي ستجري به من عواصف وتقلبات مناخية.

لا يروق لأحمد سماع ما تحمله الانتخابات القادمة، ولا يعجبه كثرة اللغط وتباين الآراء حول الائتلافات، حتى ان أبدى استحسانه في رأي ما حول طبيعة القوائم وقرارات المرجعية، فهو لا يكترث كثيراً بهذا الأمر.. بمقدار ما هو مهتم جداً بحياته بنفسه الخاصة وعشقه الكبير بالذات، فهو يشعر بأن على الإنسان ان يغير حياته هو قبل ان يغيره له السياسيون.

ولكثرما يشعر بالندم حين أمضى عقدين من عمره ـ ثمرة شبابه ـ في الصراع ضد الأنظمة المتجبرة ليأتي بأنظمة أخرى لا تقل شأناً عن أختها.. إلا انه سرعان ما نفض عن نفسه هذا التفكير، الذي دائماً ما يسميه بالتفكير العقيم.. رجع إلى حبيبته نداء التي

ألحت عليه ان يزورها في بيتها فهو مدعو لمأدبة غداء على شرفه وشرف صاحبه منشد الذي دعي إلى نفس المأدبة.
لم يعجب احمد البتة ان يصطحب معه منشداً، وان كان هو لا يفكر في الوقت الحالي على الأقل من إيلاء أهمية، لهذا الموضوع لأنه موضوع ذو تبعات غير محمودة.
أحيانا يتبادر الى ذهنه ان هناك فخاً ما، بالتالي سرعان ما يفند هذا الاحتمال الذي ينعته بالاحتمال الجبان، ويمني نفسه ان يكون جسوراً ليفوز بملذات الحياة، لكنه يرجع الى عدم إفساد هذا الحب بتلك الأماني المبتذلة.
خرج أحمد في دوريته الاعتيادية على مداخل المنطقة، توقف عند زميله نقيب حسان الذي كان يتكلم مع مجندة أمريكية، هي الأخرى من القوات المرابطة في الأبواب كقوة دعم وتعزيز، اسمها (جوليا) التي كانت على اختلاط كبير مع أفراد النقاط ضباطاً ومراتب، حتى تعلمت بعض المفردات العربية، وإن كان معظمها من الألفاظ السوقية التي ينبز بها الجنود فيما بينهم.. بينما كان حسان لم يجد إلا القليل من اللغة الانكليزية..
التفت إلى صاحبه احمد في محاولة للتعريف به لدى المجندة:
ـ انه كابتن احمد وها هي (جوليا).
بادر احمد إلى مصافحتها بحرارة.. فنبس حسان بخبث: أليس المصافحة حراماً.؟!
احمد في أجواء مفتوحة وبطلاقة: ابن الكلب منذ متى صرت مفتياً.؟
ضحك حسان وبشيء من الفكاهة: ما رأيك بها.؟ إذا شئت تقبيلها فلا مانع لدي.
احمد استغرب تصرف صاحبه الطائش قائلاً: الظاهر أنك وصيّ عليها.

حسـان، محتـالاً: أقـول الحـق، فانـا لا أنـام ليلـي، حتـى اقبلهـا عشرات القبلات.
احمد، بحنق: وهل بعد التقبيل شيئاً آخر.؟
حسان يتأتى بلسانه: كلا.. كلا.. فهي من النوع الملتزم.
احمد، مستهزئاً: التزامها يبدأ من تحت السـرة، امـا فـوق السـرة فلا بأس.
حسان ضاحكاً بعبث: صـدقني لكثرمـا طلبـت منهـا ذلـك فأبـت، حتى إنني لطالمـا سـألتها ذلـك فامتنعـت مبـررة ذلـك بقولهـا: لا اسمح لعراقي ان يقربني. هذا ما استطعت ان افتهمه من لغتها.
صد احمد بوجهه عنه، وهو ينظـر لهـا قـائلاً: مـا بـال العراقـي، أليس شعباً حراً مثـل شـعوب الأرض يحـق لـه ان يحيـا ويتمتـع بحياته بالطريقة التي يراها مناسبة.
(جوليا) لم تفهم عليه كثيراً، لكنها تحس ان المسالة تخصها على نحو ما، قائلة:
- Individual Iraqi Savage sexually .. (اكـول متـوهش سكس)
استاء احمد كثيراً بعد ان فهم مغزى مـا ترمـي اليـه مـن بشـاعة هذه الكلمة، وتمنى لو انه يجيد لغتها، لانهال عليها لثماً وتقبـيلاً، إفراغـاً للـواعج مكبوتـة، ولأفشـى بمـا فـي خزينـه مـن حـب للأمريكان بشكل خاص وللغرب بشكل عام.
إلا ان صبيحاً كان على مسافة غير بعيدة عنـه، فثـب لهـا يكلكـل بلسان لا يمل ولا يكل، فهو القائل متبجحاً بإجادة تسع لغـات فـي السباب، فصاح بها وهو يومئ باستقامة ذراعه: متـوهش. طبعـاً متوحش.. هذي في كس أمريكا، والثانية في دبرك.

كان صبيح من بين الجنود المعروفين جيداً ببذاءة اللسان، فما ان رأته، صرفت النظر وحاولت الانصراف، فصاح بها حسان: توقفي الم تقبلي نقيب احمد، فهو عراقي أصيل.
فتوقفت المجندة لم تدر ما تفعل، خاصة وإنها ترى ان احمد غير مكترث بها.
وعندما استبطأه حسان، صاح به: اذهب وقبلها.
فزبر احمد به: الم تخجل.؟ هل جئنا لنلعب.؟ أننا في واجب، وواجب مقدس، ما كان يليق بنا ان نتبع مثل هذه الأمور السخيفة التي لم تنم إلا عن ضيق أفق.
حسان بازدراء بالغ: أنت فقري مثل صاحبك ـ في إشارة إلى منشد ـ فوثب صبيح من مكانه صائحاً بنقيب احمد: سيدي لا تتركها، انكحها وأثأر لشعب اغتصبته الأدعياء.
فصاح به احمد: تباً لك من ثرثار.. وأشار إلى حسان ان يقدمه يوم غد مذنب للآمر.
صبيح ضاحكاً: المفروض ان يكون نقيب حسان برفقتي مع المذنبين.
فضحك احمد في محاولة لتغيير الموضوع، وعندما شعر صبيح بهدوء الجو وتلاشي الغضب، رجع من جديد ليقول: سيدي لا تفوّت الفرصة.
فانصرف احمد دون ان يعير له أية أهمية، وسار على خطاه نقيب حسان بعد ان سبقتهم (جوليا) بالانصراف الى (CP) وكان الأخير يغمز ويلمز بقوله:
ـ الواجب المقدس لا يشمل العشق، باستثناء نداء طبعاً.
فتوقف احمد، وقد احمر وجهه غيظاً: لا تخلط بين الأمرين، هنا موقع الرذيلة والمجون، وهناك موقع الفضيلة والعفة، فأين أوجه التشابه بين هذين.؟

لم يحر حسان بأية كلمة، فهو يشعر مدى تعلق صاحبه بعشيقته وان كانت من بنات المنزول، فهي تمثل له النقاء والصفاء والجمال وهذا ما لا يشوبه كل شوائب الدنيا بسوء، فلم يجد حسان ما يكمل به حديثه، ويبرر وهن موقفه، غير فتح باب آخر للحديث بقوله: أتعرف لماذا قالت ان العراقيين وحشيون.؟
لم يجبه احمد، إلا انه بدا مصغياً إليه.
فتابع قوله: لأنهم ما ان يضاجعوا واحدة منهن حتى يخبروا الجميع في ذلك فتنتقل من حضن الى آخر.
لا يشك احمد بصحة قوله، خاصة وهو اعرف بطبيعة الفرد العراقي عموماً، والجندي المتغرب عن أهله بشكل خاص، لكنه أراد ان ينهي هذا الموضوع وان يجعله غير ذي بال بقوله: من أرادت ان تفسد لا يهمها من يجتمع عليها أو ضدها، بالتالي هي في واجب، وعندهم الواجب له اعتباراته الخاصة، وبالتالي حاولت ان تعكس صورة عن مجتمعهم، بتوضيحها عن مدى الانفتاح، كأنها تقول: ان القبلة لا تنقص مني شيئاً، ولم تقتطع جزءاً من كرامتي، بالحدود المتعارف عليها في مجتمعاتهم.
حسان مستغرباً: الحقيقة أني لا افهم من تبريراتك هذه غير أنك توافقهم الهوى، وكأنك تقول لبنات مجتمعنا: ان التقبيل حلال، وهو لم يضر بالصحة، ولا يخدش الحياء، ولا يثلم الكرامة.
احمد، بتهكم شديد: أنت غبي، أقول لك مجتمعهم، تقول مجتمعنا.
حسان، بعناد ومكر: ولكنك راضٍ عنهم، بل تتمنى ان تعيش حياتهم.
احمد مستاءً: فعلاً صدق أمير المؤمنين (ع) عندما قال: "ما جادلت عاقلاً إلا وغلبته، وما جادلني جاهلٌ إلا وغلبني".

لم يكترث حسان لهذه الاهانة، فهو لطالما استمع الكثير منها، خاصة وهو يتلذذ بإيذاء الآخرين، وتعكير أجواءهم، وبث روح النزاعات العقيمة بين أصحابه في محاولة منه للضحك لا أكثر.
ركب احمد عجلة (الفورد) متوجهاً لمقر الفوج، وكانت صورة (جوليا) لم تفارق خياله، وتمنى ان يقبلها بدل القبلة عشراً؛ إهداءً منه إلى حبيبته نداء، لكنه سرعان ما رجع عن تفكيره وحرر نفسه من هواجس السوء، فلا تستحق نداء منه هذا التقدير الزائف، فهي تستحق الكثير من الثناء والاحترام وقال في نفسه: من الأولى ان اهدي هذه القبلات إلى وهج تلك الفتاة العاجية، لكنه نسى بان إهداءه مجرد وهم فهو لم يقبل هذه ولا تلك، وحمد الله بأنه لم يرتكب أية خطيئة من شأنها ان تضعف الإيمان أو تميت القلب.

غياب الأجوبة في زحمة الأسئلة

في يوم شتائي قارص البرد كان احمد يلوج من سخونة أعماقه المتفجرة، أيام قلائل وينصرم شهر ذي الحجة، وتبدأ مراسم عاشوراء، وبالكاد فان هذا الموسم، بمقدار ما يحظى باستعدادات مهيبة من قبل الشيعة فهو يحظى كذلك باستعدادات كبيرة من قبل الأعداء، وبالمحصلة النهائية فان اغلب القوات الأمنية ستدخل في إنذار مبكر تحسباً لكل طارئ، بالتالي تعلقت آمال احمد على حبال الوصال بعيدة المنال.. فأراد ان يسبق الأحداث وان يلبي دعوة عشيقته، لكنه اصطدم، بقضية صاحبه منشد، أم يتركه وشأنه.. وراح يحاور نفسه بذكاء حسيب متسائلاً: أليس من المعيب ان يتخطى صاحبه.؟ خاصة وهو مدعو حاله حاله.. وبأي تبرير سيتلافى إهماله.؟ وماذا لو أخبرته عن طريق هاتفه.؟ ماذا سيكون موقفه.؟ وبالتالي فهو صديقه، وثمة اختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية.؟ فما عدا مما بدا.! والأفضل من ذلك انه يعرف الطريق من جانب، ومن جانب آخر، أتقوى به مخافة ان يكون هناك فخٌ ما.؟ فنحن في وضع لا نؤمن به من أقرب المقربين إلينا.!

وسارع إليه ليخبره ويكسر طوق الأنانية التي تغلغلت في صدره بقوله: نحن مدعوان على مأدبة عند الأحبة، الأم وبنتها.

منشد مستغرباً: متى ذلك.؟

احمد بحماس: أخبرتني نداء يوم أمس بذلك، وقالت بالحرف الواحد لا تنسى منشداً تصحبه معك، مؤكدة عليَّ أن آتي بك.

منشد بدون تروّي: قحبات.!
احمد، مشدوهاً لما يسمع، وانه لنعت ظالم، لم يكن من حقه أو من حق غيره ان ينطق بهذا الحكم الجائر على امرأة مسكينة وبنت مطلقة ذبلت الفرحة في شفاهها.. انه خريف الزمان، ان لا مكان للعشاق فيه إلا في مواخير الفساد.. تنفس احمد الصعداء، وهو لا يدري بم يرد على صاحبه منشد الذي كان ورعاً وحصيفاً في ان لا ينطق الا بما يرضي الله، وهو يقذف النساء بالغيب، وينعتهن بأشد النعوت القاسية، واعرض بوجهه نادماً؛ لأنه أخبره، كان الأحرى به ان يذهب وحده ان يتمتع برؤية حبيبته، هي فرصة لتوطيد المحبة، فاتحة خير في التردد على أحباء يخففون عنه وطأة البعاد، لكنما للأقدار لعبتها الخبيثة.
منشد من جانبه ينظر لصاحبه بحالة من الإشفاق، خاصة بعد ان جرفته دوامة مهولة من التساؤلات العقيمة، والاستنكارات الجاحدة، فقال له: يدور في مخيلتك الإيقاع بهن.؟
احمد منقضاً كالباز: سحقاً لنا، إذا كنا نحن المتدينون لا نرحم؛ فكيف بأبناء الشارع.؟
منشد، ممتعضاً، وبصوت عالٍ: إنهن يستغلن طيبتك وأخلاقك، فلا مكان للمتدينين في وسط المفسدين.
احمد أكثر حنقاً واستياءً بقوله: نحن أصحاب الدليل فما دليلك على صحة قولك.
على الرغم من إبداء هذا السؤال إلا ان احمد لا يشك البتة ان لمنشد خبرة غير قاصرة في معرفة النساء من جهة، وإخفاء سرٌ ما من جهة أخرى، تعمد إخفاءه عنه، خاصة وهو الذي كشف أوراقهن الحقيقية إليه وعرفه بأرقام هواتفهن.

سكوت منشد لم يدم كثيراً، إلا انه اختصره بطريقة ملتوية، حيث قال: أتعرف على ماذا اتفقت الأم معي.؟ طبعاً لا تعرف، لكني أجيبك كصديق وأخ عزيز عليّ، إنهن يلعبن بك.
احمد كان أذكى من ان يترك الحبل على الغارب، دون ان يشد عقدة كبيرة في مرساه، بقوله: وهل لعبن بك يا صاح.؟
منشد، لأول مرة يشعر بالإفحام، كشعور مذنب بذنب كبير، وحاول ان ينفس عن نفسه بالصراحة وقول الصدق ففي الصدق النجاة، قائلاً: الحق ان الأم لعبت بي لعبة قاسية.
فهب له احمد متسائلاً: لو أني اعرف..
قاطعه منشد: لا تفكر أبداً باني سأفصح لك عن المزيد، لكني وبحكم الإخوة أقول: حذارِ يا صاحبي العزيز.

أفكار جامحة

شان احمد هذا الكلام، وغيّر كل ملامح تفكيره، بل شلَّ هواجس الحب لديه واستبدل عنده الأحاسيس المرهفة الشفافة، بأفكار سوداوية ظلامية أمات فيها عناصر الرحمة والإشفاق، وحزن حزناً شديداً كمن أصيب بنائبة شعواء، وقال لنفسه: هيا بنا نفعل ما عرفناه سابقاً، ونحوّل الحياة إلى صخب وتصابي، وما عاد يرجح أية فكرة سوى ترجيحه للعب والمرح، في بيت هو واحد من أكثر بيوت الدعارة والمجون، كما تناهت إلى عقله تحذيرات صاحبه.. في حين كان بالأمس القريب من اطهر البيوتات وأقربهن على قلبه، فالبيت يقاس على أهله، وان في أهل هذا البيت ممن سكنوا قلبه، واعتلوا عرش أفكاره، وتصدروا قائمة أمانيه.. أنها نداء الإنسانة الراقية المتألقة الحساسة اللماحة الصريحة الشفافة، واخذ يسهب ويطنب في وصفها، فهو لا يلقى منها إلا الخير، ولم يلتمس منها سوى روح الصدق وتدفق الحب، وهذا ما كان يتمناه ويحلم به ليخصب به شيبته المعقوفة.. ان قلبه لم يسمح له بالتجاوز عليها والتطاول على حرمتها كفتاة نضجت للتو، أنضجها الحرمان، وغدر الإنسان والزمان، كلاهما كان يشترك بأسرها وتكبيلها في بودقة متقوقعة، منكمشة على نفسها منزوية في أمانيها.. أنها لم تكن حبه فحسب، بل هي أسمى من الحب ذاته، علمته ان يعيش حياً؛ بعد ان عاش عمره كله ميتاً.

وبخطى متعثرة، وصل محلتها، كانت جذاذة العنوان بيده، احتياطاً وتوكيداً ولو ان العنوان كان مرسوماً في مخيلته، سأل أكثر من شخص، ما كان أحد يجيبه بدقة، كونها محلة حديثة، تلم بين أحشائها كل من هب ودب.. المدينة اليوم يقطنها الغرباء، الذي إذا ما مات جاره قربه لم يدر به حتى تتفسخ جثته وتعلن جيفته النبأ.

تقصى أرقام الشوارع والبيوت، حتى بلغ مقصده أخيراً، ضغط زر الجرس، لحظات ويفتح الباب الحديدي الكبير عن فتاة كالقمر في شرف السماء، أنها نداء بلباس البيت العادي كاشفة عن حسن فتان، صدر ممتلئ يختفي وراء الملابس، لكن وجهها سرعان ما اصفر وعلاها الارتباك: أحـ.. احمد، انصرف أرجوك بسرعة.!

احمد بمقدار ما علاه الاستغراب، علته نزعة الشك والارتياب: ماذا تقولين.

نداء بين خجل وارتباك: اذهب أرجوك.

احمد صارخاً بها: قولي ما وراءك.؟ ولم يستطع ان يكظم غيظه، ويحبس انفعالاته، فاستطرد قوله: ما بالك كأنك عروس في ليلة زفتها.؟ أخبريني الحقيقة، أرسي بي على البر.

ساءها كلامه، لكنها حاولت بصورة وبأخرى امتصاص جام غضبه بقولها: ان خالي عندنا في البيت.. وحاولت غلق الباب.. إلا انه أجابها بعصبية: إياك ان تتلاعبي بي، مثلما تلاعبتم بالأمس بصاحبي.

نداء منكسرة، لا تعرف ما يعني تحديداً، لكنها سارعت بإغلاق الباب وتركه بالخارج.

سار احمد بخطى وئيدة، مهمل التركيز، وكاد يترنح لشدة الغيظ، وما يعتريه من عصبية وشعور، بالغدر، وفي نفسه

برود: كيف لطفلة ان تضحك على رجل مثلي، خبر الحياة وقاسى الآمرين، هل كان منشد فعلاً على حق.؟ انه لم يكن مجرد تخمين وتخرصات؛ انه اليقين.! توقف عند أحد الطرق الرئيسة ورام تأجير عجلة تاكسي، لتعيده إلى وحدته العسكرية، لكنه سرعان ما استدار، وفكر أن يرجع من جديد إليها، ويدخل ليتأكد من صحة كلامها أو عدمه، وخطى بذات الخطوات المهملة، لا بل الشك اخذ يتغور في أعماقه، وراح يحثه على الفتك بها، والثار منها بالمضاجعة، كانتقام لما فقده من وقت، وبذره من ماديات بين مكالمات هاتفية وهدايا، ومرة أخرى سيضاجعها على مرأى ومسمع من أمها ثأراً لنشيج قلبه ونحيبه وانكساره، وتارة أخرى يقرر ان يضاجع الأم انتقاماً لصاحبه الذي تركته عليل الأماني.. أخذ الحنق والثأر كل مساحة عاقلة في نفسه، واستوطنه شيطان العصبية، وراودته أفكار جامحة بالانقضاض عليها، واللعب بكل مفردات أنوثتها.

وقريباً من منزلها، فتح باب بيتهم، وإذا بشاب ينسلُّ مسرعاً، وهو يزبد ويرعد بالشتائم والتهديد، وكان سبابه من أفحش الكلام واقله حياءً.

فجن جنون احمد، ولم يكد يعرف طريقة معينة للانتقام، ولم يحرك قدمه خطوة أخرى، حتى تفاجئ برجل كبير يخرج من البيت، وكانت الأم بشرى بأثره وهي تصيح عليه: إلى أين أنت ذاهب.؟ أبقى أرجوك.

حيث كان الرجل مستمراً في مشيه لم يعكف عليها، وبينما كان احمد واقفاً إذ ذاك، كان يطيل النظر في وجه الرجل، الذي بدا مستاءً مقطب الوجه، فحاول احمد ان يتذكر صورته، ان الرجل غير غريب، لابد ان يكون قد التقاه في يوم ما.. بالتالي لم يسعفه التفكير، وهو ما زال في أوج غضبه واستياءه، إلا انه أسلم

جدلاً بان يصدقها القول، وهذا الرجل الكبير هو خالها، فمن يكون ذاك الشاب الذي أنثال عليهما بالسب والذم بألفاظ يندى لها الجبين.. وعندما لمحت الأم احمد وقفت متسمرة دون ان تبدي أية حركة، فرجعت خطوتين إلى الداخل، وقد تركت الباب مفتوحاً بعد ان غابت صورتها في الداخل.. في حين كان احمد هو الآخر متسمراً في مكانه لا يدري ما يصنع، خاصة ان ثمة شعور بالندم انتابه، وعلا الانكسار كل ملامحه، فتفصد عرقاً، وهو يصوب بنظره نحو السماء، وداخله يتوسل بالصالحين طلباً للمغفرة ورجاءً للنجاة.. لحظات وإذا بالرجل قد عاد وبرفقته الشاب، وهو يهدأ به، ويحثه على تجنب العراك، وان يتعامل معها بدبلوماسية، وتناهى إلى سمعه آخر كلامه، وهو يتخطى عتبة الباب، إلى الداخل قوله: لا تكسب المرأة، إلا باللسان الرقيق.

افتراضـــــــات

رجع احمد يجر أذيال الخيبة، منكسراً قد إحتوشته الشكوك وساسته الوساوس، وانتفخت أوداجه بالغضب والانتقام.. هي المرة الأولى التي لا يدري كيف يخفي انكساره، ويغطي على هزيمته النكراء.. أفتقد الموضوعية بالكامل، بعدما كان ينام ويصحو على هذا الموعد، الذي كان يسميه بالوقت القاتل ليعلن انتصاره وظفره بأجمل عشيقة عرفتها الأكوان.. وبه سيدخل عالم الأساطير، تذكر حكايات الجدات في تقلبات الشتاء.. سيرى كل الشعراء تغني باسمه وأسم محبوبته، والمراهقين تعيش بأحلامها هاتفةً ببطولاته، حتى رجال الدين والمتشددين سيقفون عند عفة حبه ونقائه، فيطلقون فتاواهم المدوية بحلية العشق شريطة ان يشابه هذا الحب الموسوم باسم نداء واحمد.

هو الساعة موهم، انه لم ير شيئاً أصلاً، انه لم يصل إلى بيتها ـ ما كان مجرد وهم ـ ان البيوت تشابهن عليه كما تشابهن عليه الأزقة من قبل، إنها أضغاث أحلام، مجرد كابوس أثقل مخيلته.. لكن تفكيره اعرض عن تصديق هذه التبريرات.. إنها حقيقة مثل ما هو حي يرزق، لم يجد بداً من ان يحملها على محمل آخر، ان يصنع لها عذراً، ماذا لو كان قولها حقيقة، وان هؤلاء أقاربها، وبالفعل إن هذا خالها، ولم لا، فهو نفس

الشـخص الـذي التقاهمـا فـي القطـار، هـو مـن أودع المـرأتين عندهما، لكن الصورة لم تكن واضحة، لربما التبس عليه الأمر، بحكم مـا أصـابه مـن غضـب وعصـبية لعـدم اسـتقباله بمـا كـان يأمل.

حار احمد، هل يكلم صـاحبه منشـد بـالأمر، لعـل عنـده حـلاً مـا لمشـكلته، فخـاف الشـماتة مـن صـاحبه، لكنـه بالتـالي استسـهل الشماتة على غيرها من ان يخسر حبيبته فهو يخسر قلبـه ويكبـد نفسه غضاضة الم طويل، لا يبارحه ولو إلى حين.

ففاجأه منشد بقوله:

ـ إلى أين وصلت بك المواصيل؟ إلى (البتاوين).!

احمد باستياء بالغ:

ـ ما تقصد.؟

منشد بتهكم مشوب بالأسف:

ـ أبلغوني أنك ذهبت (للبتاوين).

احمد:

ـ وماذا في ذلك.؟

منشد بصوت عال:

ـ كأنك تخادع نفسك، ألا تعلم إنها محط الفساد.

احمد يصد بوجهه عنه قائلاً:

ـ كان من الأولى ان تـوبخ هـذا المنـافق، الـذي أبلغـك هـذا النبـأ الفادح.

منشد:

ـ وما أدراك ما فعلت به، وبالتالي عليك ان تصحح المعلومة.

احمد، سكت طويلاً، ثم تنهد قليلاً، وقال:

ـ كنت مدعواً عند نداء، وشاءت الصدف أن ألتقيها.

منشد يهز بيده استنكارا:

إذن صدق من قال، أنك ذاهب للبتاوين، فلا فرق فيما قصدت.
أستاء احمد كثيراً ولم يستطع ان يكظم غيظه، ونأى بفكره بعيداً، فيما إذا صحت مقولة صاحبه، فالاثنان وجهان لعملة فاسدة.. لكنه أبى أن يصدق هذا الكلام، ونأى بفكره بعيداً، مخافة الخوض به وثبات صدق صاحبه، إنها الطامة الكبرى إذاً، في انكسار قلبه، وانثلام أشواقه.. فإنسان ضعيف القلب أحرى به أن يُطمر في المزابل، وتجر الكلاب جثمانه المتفسخ.
نهره منشد بصراخه: متى تصحو من غيبوبتك.؟
أما زلت تصدق ان في الدنيا حب نقي، اللهم إلا حب الأنا.
احمد يزدري هذه اللغة التشاؤمية، المسيطرة على صاحبه، لربما هي اللغة الوحيدة التي جعلته متحفظاً أكثر من اللازم، بقوله:
ـ مازالت قلوبنا عذراء، فهذا جل أمانينا.
منشد باستمراء: فلا تسلمها الى زناة الليل، إنهن نسوة يوسف.
احمد يتجشأ مرارة وغضباً: أعلى درجات الإيمان حسن الظن بالآخرين.
منشد بسخرية: إنهن يضحكن عليك، يلعبن بك، شعورهن بالوحدة يلزمهن بتجاوز المألوف.
أحمد بامتعاض: إن جل نسائنا وحدانيات، وهن صابرات محتسبات صبرهن عند الله، فلم لا يتجاوزن المألوف.؟ ولكن من أين لمثلك أن يحسن الظن بالآخرين؛ وهذا ما لا يستوعبه صاحب القلب المقبوض، فهو لا يحمل ملكة التسامي، ولا يرقى لمستوى النبل.. أما قلبي فمبسوط، بإمكانه أن يسع العالم بأكمله.
ـ أنت تمدح نفسك.!
ـ لأني أعرف الناس بها؛ فمن يجهل نفسه، لا أظنه قادراً على الإحاطة بمعرفة نفوس الآخرين.

ـ ما زلت ممسكاً بالحب، متشبثاً بكل غادية وجائية؛ فأنت أعمى، لا ترى عيوب من تحب.
ـ الحق أن لا عيب بي سواك.
منشد بابتسامة صفراء: أنت ممن تضيق به النصائح؛ فالمحتسبات المحافظات لم يتصلن بك ولا بغيرك، إلا اللاتي يدب بداخلهن نبض الشارع ونوازع الشقاء، فهن تطرقن أبواب الناس بلا هوادة، مثل صاحبتيك.
شعر أحمد بالتعب، انه لجدل عقيم يهوي به الى مكان سحيق، كل مبرراته لم تشفع له بدفع التهمة، وهو متأكد حد اليقين، بان صاحبه يخفي أمراً ما، قد يغير كل أفكاره، ويهد صروح ما بناه من حب وثيق.. ولطالما أعترضه الخوف، من أن يعرف هذا السر الذي يسير خلاف ما تشتهيه سفنه.
ولكم يأمل أن يفصح صاحبه عن مكنون سره، ويكشف عن دفائنه النفيسة، ليحسبه سياسة الأمر الواقع، وهو حر الخيار، بالركون إليه أو النفور منه، والاعتراض عليه.
في حين كان منشد لا يعجبه صمت صاحبه، الذي يدل على الرضا والاطمئنان بعشيقته، وهو اطمئنان من سلم للموت عنقه، فلم يجد إلا أن يتركه وشأنه سابحاً في أحلامه الموحلة.
فصاح به أحمد:
ـ هل تتذكر خالها.؟ حين كنا في القطار.
منشد، بتقطيب: ومن قال انه خالها، لربما مجرد إدعاء، لربما عشيق آخر، لربما....
فقاطعه أحمد مستاءً من هذا التشكيك الفج بقوله: حاول ان تنطلق من نقطة محورية للنقاش.
استوقف منشد هذا الكلام، بما فيه من تأنيب خفيف، قائلاً:
ـ من أية نقطة تريد ألانطلاق.؟

شعر احمد بالغلبة، واستحسان البداية، قائلاً:
ـ افتراضية الصدق، وان كل هذه الشكوك مجرد ضباب، يلبد الأنوار.
منشد مذعناً:
ـ سأفترض ذلك، وان كان على مضضٍ، وأعيد سؤالي الملح: الى أين يصل بنا هذا الحب.؟!
هذا السؤال هو الضربة القاصمة، أو طلقة الرحمة لنهاية المشوار، هو اشد الأسئلة إخافة وترهيباً على قلب احمد، الذي بدا متجمداً من شدة الصعق، فهو لا يحبذ ان يُخطّئ نفسه ويغالط مبادئه، والصدق عنده مندوحة الوفاء وقمة الإيمان، وبدا يرمي ببصره الى الأفق البعيد يستنجد الغيب، انه عاشق ولا يدري ما يكون بعده، وكيف سيحيا من دونه.
واعترضه منشد بسؤال، أشقى عليه من جبل: ولنعد للافتراض أنك صادق، عاشق متيم بالحب، فهل تبادلك هي ذات الشعور.؟!
لم يرتح احمد من صاعقة سؤاله الأول إذ يسقط في ضربة ثانية لا تقل عن الأولى، وهو يستذكر شريط ما مر من الأحداث أمام عينيه ـ وهي تصرفه من البقاء أمام بيتها، مدعية ان خالها في البيت، إلا ان الرجل كان برفقته شاب مثيراً للشك، فهل كان الرجل الكبير على موعد مع الأم، بينما كان الشاب منفرداً بالبنت.
ينظره منشد من زاوية ضيقة، وهو يتملص من الإجابة، أو انه لم يحر بأية كلمة، إلى إن يستفزه من صمته:
ـ أنت لم تجبني بعد، وليس بمقدورك ان تجيب حتى نفسك، فيما إذا كنت على حق أم على باطل، فيما إذا كنت تحب بصدق، أو لمجرد اللعب والعبث في لحظة من الوحدة والهيجان.

احمد يعصر صدغيه، وهو يردد:
ـ قد أفحمتني بأسئلتك المهلكة، ولكني لم أستطع ان أجيبك غير إنني عاشق، ولا أدري ما وراء العشق.!
ضحك منشد بسخرية مقيتة:
ـ لا أظن انّ ما وراء العشق، اشد غوراً مما وراء الطبيعة؛ لكنك لم تستطع القول بما ستنتهي بك النواهي.

كل ما فيها ملائكي، ولكن..

أتى المساء.. تبدد النور بالظلام.. أين ما يكون المرء في وحدته يحس بصحراء بعيدة الأفق واسعة الأغوار شاسعة المدى.. تندحر عنده الأماني، وينهزم الأمل، فيتشبث بالرجاء.. إنها صرخة التيه ومرارة الضياع.
يهيم احمد بأفكاره المعتقة عتاقة الخمرة الأرجوانية، لا يدري غير انه ثمل، يروح ويغدو في ثكنته المظلمة، تناسى وقت الصلاة، ذكرُ الله في مثل هذه الساعات الحرجة التي تطير بلب الإنسان.
طل برأسه من النافذة صوب الأفق الذي علته سحنة السواد، رجع إلى نفسه المهتاجة يشيعها كجنازة لئيم بالويل واللعنات.
رن هاتفه النقال، تذكر للحظة انه حي، انه ما زال يملك اتصالاً مع العالم الخارجي، هرع الى هاتفه تفاجئ بقطع الخط.. بحث في نقاله في سجل المكالمات، وجد اسم نداء يعلو الشاشة.. على الرغم من انكساره البيّن، فقد علته بسمة وبشاشة، فاتصل بها على الفور، ما أن رن هاتفها، إذ انقطع الخط من طرفها.. حار احمد، كاد أن يصرخ، لكنه تماسك قليلاً، عاود الاتصال مجدداً، فأجابه المجيب الآلي بعد طول انتظار: الجهاز مغلق أو خارج

منطقة التغطية يرجى المحاولة في وقت لاحق. لم يتراجع للحظة حتى ضرب الجهاز بالحائط وحوله جذاذاً.
وما ان هدأ قليلاً، إذ راح توضأ وصلى صلاة العشائين، وبنفس يملؤها الرضا، متضرعاً: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.
وأسف اشد ما أسف على جهازه النقال الذي أصبح أكثر من قطعة.. الذي سيحرمه من الاتصال بعالمه الحقيقي، ما يجعله عاكفاً على وحدته الأليمة؛ يتجرع غصة الندم والفوت.
جاءه نقيب حسان وهو يمطُّ بشفتيه، ومن دون سلام ومقدمات، قائلا:
ـ قبلتها على قدها العسلي.!
احمد تناسى أوجاعه وبطريقة صبيانية:
ـ من هي.؟
حسان، ضاحكاً:
ـ البقلاوة.
انتكس احمد، ورجع الى الوراء، ان الناس تضحك وتلعب وتمرح رغم أوجاعها ومآسيها المتتالية، إلا هو وحده فهو يبكي ويصرخ من الداخل، ويتألم ويقتل نفسه كمداً بلا مبرر.
لا يوجد من يستحق هذه الدموع التي تفيض من مقلتيه الذابلتين، لا يوجد من يستحق الأسف.. وراح يكرر صرخاته التائهة في فضاء مضبب بالعويل والنحيب.
كانت نظرات احمد متمركزة عند النظر الى قطع جهازه النقال، ما أن لمح حسان ذلك ورأى كسرات الجهاز، صاح به:
ـ أنت مجنون فعلاً.! لماذا تكسر النقال.؟ قل ما بك.؟ احمد لم يجد بداً من الكلام بعد ان أعياه السكوت:
ـ لا أدري غير أني مصدوم، ثمل بالهموم.

حسان، مقاطعاً:
ـ أما زلت مفتوناً بعشق الصغار، أما نهيتك من ذلكم العشق الخطير.
يقوم احمد من مكانه، يضرب الجدار الخشبي برأسه، وهو يقول:
ـ ليس ذنبي، هي من علمتني الحب، لو تراها أو تسمع كلامها؛ لفقدت كل اتزانك، وسرت بلا رشد.
حسان يهز بيده اليمنى، ويضحك بلا حس، قائلاً:
ـ تراها مثلها مثل غيرها، لكنك مفتون، وفي القلب لوعة.
احمد مطأطئاً رأسه للأرض:
ـ معذور يا صاحبِ، سيان ما بين من يده بالثلج ويده بالنار.
حسان متهكماً:
ـ دعك من اللغو، وضّح لي عمن يميزها عن سواها من سائر الخلق.
احمد بلا تأني:
ـ روحها.. وصمت هنيهة ثم أردف:
ـ روح نبي أو ولي، كل ما فيها ملائكي.. ضحكتها، بكاؤها، همسها غناؤها، جلوسها استلقاؤها، بسمتها العريضة وسادة النفس المريضة، أحبها يا عالم.
سكت حسان حد الذهول، شعر بان صاحبه أما مجنون رسمي، وأما عاشق متفان بالصدق والوفاء.. وحس بمكانة الوصف، وجزالة المعنى، وخصوبة الكيان.. وسرح بذهنه بعيداً متسائلا مع نفسه: من تكون من ينطبق عليها مثل هذا الوصف، ورجع للظن والطعن قائلاً لنفسه: إنما هو الطيش والهيام، فلا يوجد من يملك هذه الصفات البتة، وقال له بعد طول تفكير وشرود:
ـ أتحدى إن تكون هناك امرأة بمثل هذه الصفات.

احمد بغنى عن الخوض بمثل هذه المهاترات والتحديات والرهانات العقيمة، قائلاً:
ـ هل سبق وان ذقت شهد ملكات النحل، طبعاً لا، هل سبق وان ارتشفت لبن من ضرع بكر، طبعاً لا، هل سبق ان مت ودفنت، ورجعت للوجود، طبعاً لا، إلا أنا فنعم، ذقت من شفتيها قطر الندى ولثمت من نهدها المكور لبن النجاة، ومات قلبي وكانت له الحياة.. أليست هذه من تستحق التمجيد والثناء.
أعجب حسان عجباً حد الانبهار، ونأى بفكره بعيدا، لكن هذه المرة يشعر بحلاوة تتسلل الى مخيلته، وطراوة تسبح في ذهنه، حاول ان يرسم جسداً يشبه جسدها، لكنه كان يفشل في كل مرة، تتشتت أفكاره، يطلي الرسوم بأصباغ من وهم، وأطياف تغيب إذا ما انقشعت السحب وعلت شمس الحقيقة، فبادر مبادرة مشكورة، أن اخرج نقاله، ورفع منه خطه (سيم كارد)، وأعطاه إلى احمد، قائلاً:
ـ خذ هاتفي هدية لك.
مانع احمد ممانعة حياء، إلا ان حسان ألح على ذلك، واقسم عليه.. ومن ثم قام حسان، وأفرغ شريحة زين من نقال احمد المنكسر، وكذلك الـ (رام)، الذي كان يخزن به الكثير من المعلومات، بما فيها الصور والقصائد، والرسائل الغرامية، وركبها على نقاله.. سلم النقال لأحمد قائلا:
ـ قم واتصل بعشيقتك، فان مثلها تستحق الكثير.

خاتمة الطيش

احمد على عجالة، اتصل بنداء، سمع رنين هاتفها، فرح كثيراً.
نداء متلعثمة: أهلا احمد.
احمد بين نارين: لا يسعني إلا ان أشكرك على هذا الاستقبال الرائع.
نداء معتذرة: أنا خجلة منك، ولكن صدقني ان خالي وابنه عندنا في البيت ولا..
قاطعها احمد: ما تقصدين بابنه.؟ زوجك.؟!
نداء: نعم زوجي.
فعاد عليها احمد الكرة: زوجك، أم طليقك.؟
نداء تتأتئ: نعم، نعم طليقي.
احمد بشيء من الانفعال: وماذا يصنعون.؟
نداء بألم: يريدون اخذ الطفل.
لكن صوتاً كان من وراءها يقول: الطفل وأمه.
هكذا قالت الأم.
لم يفهم احمد ما الأمر، فهو متيقن مما سمع، لكنه حاول ان يستوضح الأمر: أخبريني ما يجري بحقي عليكِ.
أجابته الأم بعد ان تناوشت النقال من ابنتها: ان نداء ما زالت على ذمة زوجها.
فصاحت نداء بها: كذب، أنا لست على ذمة أحد، أنا مطلقة.. أنا حرة.. أنا عاشقة.
كان احمد يسمع هذا الكلام عبر الهاتف النقال.. وهذا ما جعله يكظم غيظه، بعد ما سمع من أمها ما سمع.

وبرجاء قال: أصدقوني القول، ما الذي يحدث.؟
بشرى الأم: ما عندي من القول إلا ما سمعت، ان نداء هي ملك غيرك، ان زوجها عازم على إرجاعها، ولمَّ شمل عائلتهِ.
احمد لا يهمه ما يسعى له زوجها، بمقدار ما يهمه ان يسمع رأي نداء، قائلا: وما تقول نداء في ذلك.؟
الأم: إنها لا تعرف مصلحتها، إنها مجرد فتاة طائشة ستؤوب إلى رشدها شاءت أم أبت ذلك.
احمد يشعر بمغص وغثيان: لكنكم لم تجيبوني على سؤالي الأول، هل هي مطلقة أم لا.؟
الأم بازدراء شديد: أخبرتك بأنها على ذمة زوج، وما ارجوه منك ان تتركها وشانها، وأنت رجل متدين كما عهدناك، ونتمنى إن تكون هذه آخر المكالمات.
احمد برجاء ذليل: أرجوك أريد ان أكلمها آخر كلمة.
الأم تعطي لنداء الهاتف بقولها: اختمي هذا الطيش.
نداء بانكسار بالغ، وبصوت كالنشيج، قائلة: صدقني أني أفضل الموت على الحياة معه.
احمد لم يرضه هذا الكلام، قائلاً: هل ما زلت على ذمته.؟
نداء بصوت متهدج: وان كنت على ذمته، فانا لا أحب سواك، أنت وحدك كل ما أريد وأتمنى، لم احفل بالدنيا كلها دونك.
احمد بعصبية: هذا نفاق، مجرد كلام لا يغير من الواقع شيئاً.
نداء بذات الانكسار، وقد علتها العبرات: ما عساني صانعة.؟ وما الذي يرضيك.؟ تعرفني مجرد امرأة لا حول لي ولا قوة.
احمد غلبت عليه نزعة العنجهية: من لها القدرة على اللعب بقلوب الآخرين، لها من الحول ومن القوة ما يهد الصروح وينسف الجبال.. خبرتك مسكينة؛ أنا المسكين، أنا المقتول بسيف العابثين.

لم تجد نداء غير نشيج بكاء وسيلة دفاع، تلوذ بحماها وتعبر عن مكنون قلبها.
لكن احمد صاح بها: دموع تماسيح، بكاء احتيال، ان جل ما خدعني بك هذه المسكنة الفارغة، والعبرات المفتعلة.! لكني بملء القلب أدعو: أن تبكين العمر كله؛ يا أيتها الماكرة المخادعة.

الحب بمكان آخر

لم يكن احمد موجوعاً أكثر منها.. نداء عشقت بصدق، أرادت الهروب من وثبة زوج لا يفهم الحب، يستغبي المرأة ويستعمرها لنزواته المتذبذبة وقراراته المتهالكة.. ان شعور احمد كان محبطاً.. فقد نسف كل حكايا الحب وترانيم العشق، كل القصائد التي أنشدت للحب كانت نزوة طيش، حالة سكر، أراجيف، وأكاذيب فارغة.. خصوبة خيال عند الشعراء والأدباء الذين انثالوا بكتابة الملاحم والأساطير.

بينما كانت نداء تشعر بالإعياء، وضيق الصدر والنفس والأفاق.. تلوب ندماً، ان تنتهي قصة الحب عندها نهاية مؤسفة ومزرية ومقرفة، وبلا وداع، أو كلمة أسف أو تبرير مقبول العذر، بل كان نهايته بالدعاء عليها وقذفها بما لا يستحق قلب كقلبها أن يهان.. ان زوجها لا يعدو ان يكون غير مجرم يلاحق بريئاً لا لسبب معين، غير الفَتَونة والبلطجية.. انه سلبها كل شيء دون ان يعطيها شيئاً بالمقابل ولو على سبيل الإرضاء.. إنها تشعر بوحشيته.. هندامه لا يوحي بالرجولة، وكلامه لا يوحي إلا بسفه رأيه، مزاجه متقلب، متذبذب، عنجهي، نرجسي، اخذ من البداوة العصبية وشيم الافتراس.. يعتقد إن المرأة للفراش والانتعاش في أي ساعة يرغب، هو من يقرر الحب والكره والقبول والرفض والرضا والغضب، ولا يمنحها للحظة واحدة ان تحس بأنها إنسانة تحلم ان تعيش بهناء وكرامة ـ هذا ما قالته لأحمد في يوم من الأيام، ووضعت رأسها على صدره الدافئ، لتشعر بالاطمئنان ـ.

احمد اليوم يمشي بلا وعي، أو هو بلا قلب إذا صح التعبير: مسكين أنا، قتلتني الأماني ولعبت بي الأقدار.. مالي وعشق الصبايا أعذار ـ هذا ما كان يئن به في أعماقه ويصيح.
وهدأ قليلاً ثم رجع يناغم أحاسيسه بقوله: سأنتقم.. وما ان تقلب على فراشه، وهو يمط بشاربيه الناعمين، ويفرك انفه، إذ قال: من يحب لا ينتقم.!
وفي الجانب الآخر كانت نداء تزعق وتصرخ، وتولول لاطمة الخدود.. أمها تحاول تهدئتها، وتسكينها مخافة ان يسمع زوجها الذي نام مبكراً، كون إن سفره طويل ومرهق، لكن من دون جدوى.
فسمع خالها، وخرج من غرفة الاستقبال على صراخها وعويلها، ودلف عليها غرفتها:
ـ ما بك عزيزتي.؟
بشرى الأم، تجيب بالنيابة عنها: لا شيء يا أخي؛ اذهب للنوم فأنت متعب.
لم يقتنع الخال بهذا الكلام، إذ اضطره الأمر للجلوس بقربها، ومسح دموعها، وضمها إلى صدره، وبحنية كبيرة، قال: أنتِ ابنتي، تأكدي أني سأحافظ عليك ولا أفرط بحقك، وسأكسر انف زوجك ان آذاك؛ فبعدك عنه جعله شخصاً آخر.
نداء منهارة بالبكاء: لطالما وعدتني بذلك وحنثت بوعدك، وأنا لا أثق به وبك، وغير مستعدة للرجوع معكم؛ وان كلفني الأمر عمري.
الخال بتذلل وخنوع قائلاً: أشكرك على هذا التقريع، وأقول حقك، فنحن نستحق كل ما تقولين، فأنت ابنتنا العزيزة وأم حفيدنا، وعلينا لك واجب الحب والتقدير.

كفكفت نداء دموعها، وبضجر واستياء شديدين، قالت: كلامك هذا لا يقدم ولا يؤخر، خذ ابنك وحفيدك واذهبوا عني.
الأم صرخت بها: ما هذا الكلام.؟ ماذا تقولين.؟ أنتِ مجنونة تفرطين بطفلك.؟
نداء بعصبية: أنتِ تدركين انه ولدهم، طال الزمن أو قصر، سيرجع لهم.
الأم تزداد غيضاً: حقك أنتِ لم تربي وتتعبي مثلي، فانا لا أقوى على بعده وفراقه، انه ابني ليس ابنك، فلا يحق لك المساومة به.
نداء بشراسة: ان كرامتي أهم ما املك، فلا ابني ولا غيره يجعلني ذليلة لأحد؛ فقد ولى زمن الرق.
الخال بهدوء: ستذهبين معززة مكرمة.
نداء غلب على نبرتها الصدق: في بيتك لا، مع ابنك لا.
انسحب الخال خائباً وهو يقول: الله يهديك.
فتجيبه بوقاحة: يهدي من كان في ضلال.
شعرت نداء بالسعادة والارتياح، وهي تصب جام غضبها على خالها، الذي طالما خيب ظنها، واتهمها بالخطأ والتقصير، وجعل من ابنه وحشاً كاسراً، دون إن يحاسبه، أو يكون منصفاً مع بنت أخته الى حد ما.
انهالت الأم عليها بالتقريع والتأنيب، وان كانت في أعماقها تؤيد ما فعلته ابنتها، إلا ان أهم ما آذاها هو التفريط بالصغير.. بعد إن تعلمت عليه ودارته بماء العين ـ كما يقال ـ وأكثر اللوم كان يقتصر على علاقتها الكبيرة بأحمد؛ والتي أخذت تنعطف انعطافات خطيرة صوب المجهول.
بيد كان جواب نداء: سأحبه إلى الأبد، لم أجد في الرجال طراً من يشبهه، فقد أنساني كل همومي، يالهمومي دونه.!

واستلقت على فراشها، تأمل ان يشاركها ذات الفراش، يشاطرها الحياة والحب.. وعندما استعادت شريط الأحداث، كان صدى كلامه يرن في مخيلتها: ماكرة مخادعة.

فلم تمنح لنفسها الانسياب بالحقد والغضب، بل منحته العذر، وشعرت بالخطأ اتجاهه؛ فما كان لها الحق، بان تخفي عليه مثل هذه الحقيقة.. لكنها سرعان ما استرجعت الشطر الأخير، وبنوع من التأنيب والذم لنفسها: كيف أقول له ذلك؟ هل أنا مجنونة؟ ماذا سيظن بي، غير امرأة تبحث عن فراش؟ فيصبح الحب بمكان آخر؛ وانعي له جسدي، وهذا مصداق الخيانة والغدر، والخداع للنفس قبل غيرها.!

حب في منتصف العمر

طل الصباح برياحين بغداد المنعشة، وعبق وروده الفواحة بصموده بثباته بنياته، انهمرت عليها السماء مدراراً.. معظم شوارعها وأزقتها الضيقة وحاراتها القديمة وخاناتها التراثية كسيت بالسواد وزينت بالبيارق والأعلام، إنها أيام محرم الحرام أيام عاشوراء الحسين، تلتهب القلوب وتنهال مدامع الأولياء والأتقياء.. المصاب الجلل بذكرى فاجعة الطف الأليمة.. هذه السنة هي خلاف كل السنين السابقة، تزامنت مع حزن شعب جريح غررت به الساسة وخدعته الكياسة وابتاعت به النخاسة ـ هكذا كان يقول صبيح ـ الذي كان جالساً بالقرب من احمد فأجابه: لذا التمس الشعب هذه الشعيرة؛ نجاة له من خطاياه.

في حين كان منشد يستمع عن كثب فتكلم بدوره: كيفما تكونوا يولى عليكم.

لم يكن في ود احمد الانزلاق بجدال عقيم، فهو في شأن يغنيه من الملاحاة والسجالات الذميمة، جل تفكيره ينصب في فشل عشق لم يقو على التحرر من تكبيله، والانفلات من أسره.

دخل عليهم حسان، بعد تأدية السلام، قائلاً: عظم الله أجوركم بمصاب أبي عبد الله الحسين.

لم يستطع احمد السكوت حتى انفجر بالبكاء، بعد ان كانت العبرات تتكسر في صدره مما أبكى الحاضرين لبكائه، وهو يولول كالمرأة المهظومة.

لم يستغرب منشد البتة، لبكاء صاحبه فلطالما عهده بكَّاءً ورقيقاً ومهيض الجناح.. لكنه شعر ان مع بكائه ألماً مريراً، وجرحاً عسيراً، يتعذر على الأطباء مداواته.
انه الحب بغير أوانه، فلا الزمان زمانه، ولا المكان مكانه؛ إنما الزمن يغادر بأهله كما تغادر السفن مراسيها، لتلج في وسط القاموس، فلا يمخر عباب موجه، إلا من كان رباناً ماهراً يجيد المناورة.
فامسك منشد بيد صاحبه، وكذا فعل حسان، إذ مسكه من يده الأخرى، وأخذه إلى قاطع المنام.
فقال منشد ممازحاً: ابكِ يا صاحبي فانا لا ألومك فأنت عاشورك عاشورين.
فهب له حسان: لا تقل ذلك فهو ابن البهجتين؛ حب في منتصف العمر، يا للجمال والروعة.
منشد يعرف البئر وغطاءه، وهو يدري ان هذا الحب أصبح كالكابوس الذي كدر عليه حياته، خاصة بعد اعترافاته الأخيرة إليه بنكوث حبيبته وغدرها وخذلانها لقلبه المتيم المهووس.
خيم صمت حيرة وتساؤل غريب تسلل في عمق حسان البِشر الجذل في طراوة أحاديث الحب وشعر الغزل وفيض التصابي.
وكان في وده ان يسمع الكثير من قصة احمد المبتسر القنوط.
فبادره بالسؤال: ما جديد إخبارك؟
فأجابه احمد بلوعة: كل جديد يبلى ويندثر.!
فتدخل منشد: فما بال القديم إذن.؟!
حسان متطفلاً على احمد: اجبه.
سكت احمد دون ان ينبس ببنت شفة، وما عساه يقول وهو متكدر حرج الصدر صريع الأماني، لا يقوى على البوح.

لم يعجب منشد صمت صاحبه، الذي علته غبرة الهم، فقال له: ألم تنته اللعبة بعد.؟
في هذه الأثناء رن هاتف احمد، نظر للشاشة: إنها نداء ففتح الخط، وبلا تروٍ سألها ذات السؤال: الم تنته اللعبة بعد.؟
فانهالت عليه نداء بالصياح: من قال لك ان الحب لعبة.
من قال لك إني ماكرة، أو مخادعة، كما وصفتني، أهذا جزاء من تحب، الم احكي لك عن ظلمه ـ تعني زوجها ـ وسفاهته.؟ الم تكن أول من شجعني بالانتصار لكرامتي.؟ الم تقل ان المرأة بلا كرامة كجارية فاسقة.؟
فقاطعها احمد بصلابة: لا أنكر ما قلته، وما أزال مصراً عليه؛ لكني لم اقل ان تعشق المرأة على زوجها.
ومن دون توقف أجابته: هذا إذا كان زوجي فعلاً، لكنك تصدق الأوراق، وتكذب قلبي.!
انكسر احمد وانطفأت قناديل شكوكه لسماع ذلك، لان كلمتها هذه تنم عن صدق قول وحسن نية، وهو العاشق المستهام، الذي لا يستطيع ان ينكر إعجابه الشديد بها، خاصة وان أكثر ما لفت انتباهه في مدة علاقتهما، مدى تحررها. ودائماً ما ينعتها: بالمتحررة المتنورة.
فصاح به حسان: كلمها.. لِمَ سكت.؟
لكن احمد كان عاجزاً، لا يقدر على الكلام والحراك، أصيب برعشة ممزوجة بالخوف والخجل.
فنادته نداء بصوت لا يخلو من تردد المذنب وتلكؤ الخاطئ قائلة: لابد من اللقاء لتسوية الأمور.
احمد حائراً يطالع وجه صاحبيه، لا يدري بم يجيب، فصاح حسان: افتح المايكروفون.
فشغل المايكروفون، استنجاداً بمن يسعفه.

فصاحت به نداء مجدداً: هل انت معي.
احمد بتلكؤ: نعم.. نعم.
فاستطردت قولها: سنذهب للإمام الكاظم، واقسم لك بحضرته الشريفة، أني احبك.
ثب حسان من مكانه كاد يصرخ، وهو يقول: يا لجمالها، وجزالة منطقها، وعذوبة صوتها.
بينما ظل احمد عالقاً بصمته، فهو يدرك مدى حبها له.. لكن الظروف تغيرت الآن، فهي على ذمة زوج وحب المتزوجة، ضرب من الأفاعيل الباطلة، والمناطق المحرمة الولوج.
فغلق الهاتف تجنباً للتسرع الوخيم، وتلافياً للأخطاء، وفرصة للامعان بالتفكير الجدي.. كان ثمة صوت يتغرغر في داخله: أنا من عليه أن يقسم عليك، أن تتركيني وشأني.. أنا أدرك مدى حبك، وفي ذي يشتعل جنوني.. وأتضرع إلى الله مناجياً: ربّ بعزتك وجلال وجهك الكريم، إلا ما رحمت بعبد استجار بك عاشقاً؛ فألهمه حبك وكفى.
كان منشد على شيء من الجلافة وهو يضحك باستهزاء، يهز يديه لما يسمع، في محاولة لإيصال فكرة مفادها الولوج بالخطأ.. إلا حسان بدا منبهراً بهذا الحب، متمنياً ان يلعب الحظ معه ذات اللعبة.
اخذ احمد يقلب صور النقال، فكانت صورة نداء تحتل الصدارة، فدنا حسان ليسترق النظر، ومد بصره في عمق الشاشة، ومن دون ان يكترث للانتقاد صاح: أهي نداء.؟
لم يجبه احمد بشيء غير انه اكتفى بإغماضه عينيه فصاح حسان مغنياً: وسامة وجسامة، حلاوة وطراوة، نفاسة و(وناسة).

فصاح له منشد بغضب: اليوم أول أيام عاشوراء، وأنـت تغنـي، حتى المسيحيين ارجـأوا احتفـالات أعيـاد رأس السـنة، احتراماً لنا؛ وأنت ولا على بالك.
نكس حسان رأسه، شعوراً بالخطأ، لكن فـي داخلـه كـان يتـوهج نيران الغيرة والحسد.

شفاعة النسيان

فـي سـاعة متـأخرة مـن الليـل انفـردت بأحمـد شـياطين الأرق.. حملته من فراشه الدافئ الوثير إلى العراء.. السماء كانـت ملبـدة بالغيوم، مـا إن تظهـر نجمـة إلا وتختفـي نجـوم، فضـحك احمـد سـاخراً وهـو يراقـب بمنظـار مـن عبـث غيـاب وأفـول أقمـار ومجرات وراء سحب شفيفة تجرهـا الريـاح إلـى مكـان سـحيق، فظن ان حاله لا يختلف كثيراً عن حال تلك الأقمار الزاهرات.

وراح يخالجه شعور نابي بالـذنب والتقصـير، مـا كـان عليـه ان يسد منفذاً كان له أكثر من أصل.. وبدا يوبخ نفسه علـى التزامـه المطلـق بالحـب، وإبقـاءه الصـارم علـى قـدر كبيـر مـن العفـة والنجابة.. بين هو قادر على ان يمارس فنون المجون.

قال لنفسه وبصوت عالٍ: أنا غاوي حب، لا ابرح أمكنـة العشـق العذري الى مواخير الفساد.. مـن عشـقني بقلـب عشـقته بقلبـين، قلـب بالصـدر، وقلـب بـالروح، أنـا لا ابتـاع الغـواني بربـات الخدور.

فصاح به منشد: كنت أعرفك مهووساً إلا اليوم أنت مجنـون بـلا مواربة.

لكن حسان كان أخـف حـدة بقولـه: قـدرك ان تمـوت عاشـقاً بـلا معشوق، كمن يموت حالماً.

احمد بألم وندم: وأسعداه ان مت حالماً، أخاف ان أعـيش حيـاتي كلها حالماً.

منشد ساخراً رغم شدة الموقف: العيش حالماً ولا الفراغ.!

لم يجد احمد ما ينفس به عن نفسه أمام صاحبيه، فكلاهما لا يقدر صعوبة الموقف وحراجة القرار.. فقسوة البعاد لا تقل عن الم المواجهة، فالمرأة مهيئة بأعذارها معبئة بتبريراتها، ربما تفصح عن نوايا صادقة وتصدع بحبها ناطقة، تتحدى كل العالم، لم يلمس منها التدين ولا التشدد، لكنها كانت شديدة التحفظ على عفة وخدر، لم تكن بلئيمة الأصل ولا وضيعة المقام.. لكنها كانت تتشبث بمن ينقذها من غدر الزمان.. ونفض رأسه وهو يشعر بدوار خيبة قد علا تفكيره وطغى على كل أحاسيسه.. وتذكر انه لا شيء دونها.. وضحك لفجاجة هذه الكلمة، وهذه الذكرى المفجعة.. لكنه أقفل راجعاً، بقوله: أنا كل شيء معها أو من دونها، أنا الإنسان.. والإنسان بطبيعته قادر على قهر كل شيء؛ فلسرعان ما طأطئ رأسه متراجعاً بقوله: لا أومن بمن يقول إنه بطبيعته قادر على قهر الأشياء، الإنسان بطبيعته مقهور.

فصاح به منشد: اسمعنا ما يدور في خلدك لعلنا نساعدك.

لم يعد احمد يثق بأحد.. ولا احد بإمكانه ان يساعده، فهو يخبر حجم صاحبيه ويعرف طباعهما وما يرومان الوصول إليه، فقال عمداً بغية تناسي الموضوع الأصلي:

ـ أجيبوني بصراحة، أيهما أوفى: الإنسان أم الكلب.؟

حسان بلا ثبات: طبعاً الكلب.

احمد بسخرية بالغة: ما مدحت إلا نفسك لأنك من نفس الفصيل.

شعر حسان بهزيمة نكراء لم يستطع تلافي خسارته ولو بكلمة دفاع، وقال مع نفسه: العجالة هي من أوقعتني في هذا الفخ.

فرجع احمد للقول: سؤال ثانٍ، هل أنا صالح أم سيء.؟

منشد وهو يحملق بوجهه وبدبلوماسية:

ـ أنت صالح على شيء غير قليل من السوء.

احمد ضاحكاً: جواب وافٍ، على الرغم من التوائه. وصمت هنيهة ثم استطرد:
ـ سؤال أخير، أأنا ذكي أم غبي.
حسان بعجالته المعهودة: أنت ذكي
بينما قاطعه منشد قائلاً: أنت غبي.
احمد بهدوء مريب: ألأني عشقت.؟
منشد بموقف صلب: العشق نعمة، لكنك لست عاشقاً.. أنت ضائع.. تريد ان تنشئ أسطورة، ان تكتب ملحمة عشق في بلد لا يسمح البتة ان تعشق بهدوء، في أجواء مشحونة بالعنف والصخب.
احمد: لم المزج، بين العنف والعشق، بين السياسة والرومانسية، هم يخططون لاعتلاء الكراسي.
فقاطعه حسان متهجماً: وأنت تخطط لاعتلاء امرأة مسكينة.
احمد بزفرة متذمر: الأمر لا يحتاج التخطيط، فهو يسرٌ ومقدور عليه، لكننا نأبى ان نهد صروح الحب بالفواحش والرذائل.
فوجد حسان الفرصة مؤاتية للانقلاب عليه بقوله:
ــ إذن أنت غبي.
لكن احمد كان أقوى من ان يضعف أمام قرارات تعسفية تسيرها الرغبات والأهواء، وتبلورها النزاعات والأدواء.. وهو يقول: إنّ مثلكما لا يقيما مثلي.
عكف احمد على نقاله، يبحث في صندوق الرسائل الواردة، لا توجد رسالة واحدة تشير على هزءٍ بقلب، أو استخفاف بشخص.. هذا وحده يكفل سلامة المقصد وحسن النوايا.. فكيف تتكلم الرسائل الجميلة المفعمة بكل معاني الحب، والمطرزة بأرق الأحاسيس الجياشة، خاصة الرسائل الأخيرة المتوسمة بطلب الصفح، والمتعذرة بكل رموز العشق ما خط في كل

الأزمنة وما كتب في كل لغات العالم: إني احبك، ولا دافع سوى الوجد والشوق إليك.. لا اعرف بالتحديد، لم أنت.؟! لكني اعرف جيداً إني احبك.

هذه واحدة من أجمل الرسائل الأخيرة التي وصلته، دون ان يجيب عليها بكلمة واحدة أو بحرف.. فلطالما حاول ان يكذب أحاسيسها ويستهجن أقوالها، تراه ينتكس ويرجع القهقرى ليذعن إنها صادقة، ولا صدق أسمى من صدق المشاعر.

وحاول أن يخط رسالة أخيرة، ولو من باب الاحترام والتعقل، لكنه لا يدري ما يكتب وكيف ينهي ما بناه القلب، للحظة يستطيع المرء ان يهد كل الصروح المشيدة ويخسف بالعمران ويهدم كل بروج ألانا.. فالقادر على إتلاف روح قادر على كل ما سواها.. لكن بناء القلب لا يُهدّم ولا يُعدم.. انه الحب إذا ما تناساه المرء وهجره، سيعيش معه في دفائنه، يثار عند أول معول يحفر في كنوز أعماقه، ولا معول أمضى حفراً في الأعماق.. من طراوة بسمة صبايا في محول نفس جرداء.

فكتب بلمسات مترددة عازفة على لحن الأمر الواقع خلاف ما تمنته النفس وسعى له القلب: لا أظن أن شيئاً يشفع لي مثل النسيان ولا ارحم بي منه، فساعديني على طي صفحة عصيبة بالإهمال والتجاهل.

لا يدري إذا كان مقتنعاً فيما يكتب، وهل يعبر بالضرورة عن إرادته الحقيقية في طي صفحة جميلة من ذكر الحب وهمساته الشفيفة، أم انه يحاول ان يغالط نفسه ويوهمها باليأس والفشل.

لم تطل المدة على بعث رسالته إذ جاءه جواب صارخ: اقسم عليك بالإيمان الغليظة، بكل ما تؤمن به وما هو مقدس عندك، أن تحررني من قيود زوج ظالم، لأصبح لك وحدك، جارية

راقصة في بلاط مملكتك القدسية.. أنت رباني الهوى، روحاني المشاعر، لا أظن في الأرض من يضاهيك عشقاً.
قرأ الرسالة مراراً وتكراراً كما هي الحال مع سائر الرسائل لم يجد بها طعم الصدق، إنها تستفز عواطفه لخلاصها، تخدعه باسم الحب، جعلت منه أضحوكة، بكلام هو أقدر ما يكون على صياغته، بأفضل الأشكال، هذا ما أستنتجه من كل رسائلها، بدا مشككاً بكل كلمة تنطقها، خاصة ان رسالتها الأخيرة أعربت صراحة عن ارتباطها الفعلي بالزواج.. قال مع نفسه: إنما استغاثت بمن لا يغيث.. وما أدراني لعل وراءها بلية أكبر مما أعرف، إنها لم تكن صادقة معي، فما بالي باخع نفسي عليها حسرة وألماً.
رمى النقال من يده تناوشه حسان بسرعة، لفت انتباهه رسالتها الأخيرة، وأكثر ما أستوقفه قولها: لأصبح لك وحدك جارية راقصة.. وأنت رباني الهوى.
حس حسان بضياع هذه الفتاة وغور جرحها وأنها لو سقطت بيده لأنهكها لثماً وتقبيلاً، وكعادته بالجلبة والصياح فهو ممن لم يستطع التفكير بصمت ولا يقوى على التعبير بأدب بمثل هذه المواقف التي تستحق العناء ـ على حد قوله ـ صارخاً: ما أجملها من غنائم حرب، جارية راقصة عارية تتعطر بعبق الياسمين والجوري.
فصاح به منشد: قم أيها الثمل اللعين.
حسان فاتحاً ذراعيه محلقاً في الهواء: حقاً أسكرتني رسالة امرأة غارقة بالحب.
منشد هازئاً: إنها رسالة من تحت الماء، قبحك الله.!
حسان لم يلتفت له فهو غير معتاد على التجاسر والتجرؤ على منشد بالذات لكبر سنه من جانب وعصبيته من جانب آخر..

فصبا الى احمد الذي كان ينظره برحمة وإشفاق، فخاطبه: إنها تقول لك أنت رباني الهوى، روحاني المشاعر، فماذا صنعت لها، لتكلمك بأجمل خطاب قالته امرأة لحبيبها.
تدخل منشد على الفور: إنها شيطانة، جست نبضه، وعرفت كيف تطيح على علته.
لكن حسان هذه المرة لم يطق صبراً على تطفل منشد وفرض آراءه بالقسر على الآخرين، صائحاً به: دع منك هذا التطفل، فأنت أما حاسدٌ أو مبغض، كل الناس عندك على خطأ، وأنت وحدك على صواب؛ أبداً لم أرك تحسن الظن بالآخرين، وتضمر خلاف ما تدعي.. فأنت لست بالحريص على صاحبك، ولو كنت كذلك لأخبرته بالحقيقة.
أستطاع حسان أن يستفز منشد بشكل فظيع، فأنهار منشد سباً وعياطاً وهو يكرر: أية حقيقة.. أية حقيقة تلك التي أخفيها عن صاحبي.؟
لم يستطع حسان أن يكمل أو أن يبوح بشيء، بينما كان احمد مستغرباً أشد استغراباً، ما هي الحقيقة، وما الذي يخفيه عنه صاحبه، وكيف لحسان أن يعرف شيئاً دون أن يعرفه احمد وهو أقرب المقربين إليه.. فعلاه شعور بالإعياء والإحباط.. صُدم بما سمع، وساورته شكوك مخيفة بكل من حوله، أحس بالفقر والبساطة والسذاجة بشكل تام.. بدا يتطلع لوجهي صاحبيه الكالحين المنتفخين بالغضب.. حسان لم يرقه المشهد، فجرَّ خطاه للخارج.
لكن صوت احمد، جمده في مكانه، قائلاً: تقتلون القتيل، وتمشون في جنازته.. أخبروني بما تخفيان من الحقيقة، ألست أخاكم.؟!
حسان، بسرعة واضطراب: أنت روحاني المشاعر.

وخرج دون أن يلتفت إليه.. بينما كان منشد صاداً بوجهه إلى الجهة الأخرى.. فحاول احمد أن يستدرجه بقوله: وأنت ما عندك أخـ...
قاطعه منشد بهدوء وهو يخلل أصابعه بمقدمة شعره:
ـ الحقيقة إن زوجها أتصل بي..
احمد بحركة لا شعورية تسمر وجهه.
واستطرد منشد كلامه: أخبرني ان أبلغك بالابتعاد عنها، وإلا..
احمد بتصنع: وإلا ماذا.؟
منشد يواصل: أما يقاضيك قانونياً، وراح يؤكد قوله: إذا ما أنصفه القانون لسبب أو لآخر، أتعرف ما يعني؟
احمد بهدوء منكسر: لا أعرف.
منشد يعض بشفتيه، وهو يقول: إذا كان القانون من جانبه، كونه ينتمي لحزب كبير، ويعمل في القوات المسلحة، فانا سأقاومه عشائرياً، وليسأل أي العشائر نحن.؟! وباعتقادي أن هذا ما يبرر سبب تمسكها وتعلقها بك بهذا الشكل الكبير.
صمت احمد صمت الموتى.. لا يدري ما يصنع بعد ما انقلبت عليه الدنيا بكل أضدادها وتناقضاتها، وهو يهمس لنفسه: إذا لم تشبع من الحياة بعد، سيشبع الموت منك.
فحاول منشد أن يخفف على صاحبه وطأة التهديد، بقوله:
ـ اتركها ولتذهب إلى الجحيم.
ضحك احمد بحرارة، مستشهداً بقولها التي طالما رددته على مسامعه، حيث قالت:
ما أشرك بالله من حبَّ خلقه.. ولا أذنب العشاق حين تناهبا.

نهاية العاطفة جسد

ثمة شعور بالخوف انتاب احمد.. انه مهدد بالزوال، لم يخف الموت بمقدار ما يخاف العيش بلا حب، لم يكد يصدق ان كل شيء انتهى بهذه السهولة، لا يشك إطلاقا ان ما جاء مصادفة وبسرعة قد ينتهي بنفس السرعة، لكن حبه لبث عمراً، عاش فيه لحظات جميلة لا تعوض.. وكانت أمامه أكثر من فرصة ليملأ نفسه منها.. الخوف بدأ يزداد أكثر فأكثر، كلما تذكر إنها امرأة متزوجة لا يحق له ان يدنس طهارتها بلحظة غضب طيش، تمنحه لذة ساعة وندامة عمر كامل.

ما زالت تترا رسائلها، الذي تعمد إهمالها، واستقوى على ذلك في مسح الرسائل دون قراءتها، لكنها كانت أكثر إصرارا على مواصلة المشوار، فكثفت المكالمات، التي لم تسمع منها سوى صوت المجيب الآلي يناديها: المشترك لا يرد.. فتقطع وتعاود الاتصال مجدداً لكن دون جدوى.

احمد انطلق على وجهه إلى البصرة بعجلة (اليوكن)، ما ان ركب كانت إلى جانبه امرأة كبيرة تجاوزت الخمسين، ضحك ضحكاً عبيطاً في داخله وهو يصيح: انتهى زمن البنات وجاء زمن (الايجات) ـ الهرمات.

كان الوقت ما زال مظلماً لم تشرق الشمس بعد، انطلقت السيارة بسرعة.. احمد يستحي النظر بوجهها.. متسائلاً مع نفسه: ماذا

تصنع هذه المرأة في مثل هذا الوقت المبكر.. هل هي بصرية أم بغدادية.؟
لم يستطع النظر في وجهها ملياً ليرى ما إذا كانت جميلة وقوية، أم أنها قبيحة وعاجزة، النظرة الأولى كانت خاطفة لم تمكنه من معرفة الملامح، خاصة وهي متلفعة بعباءة عربية سوداء، لم يظهر منها سوى الكفين.. السيارة مظلمة الداخل.. اغلب الركاب استسلموا للنعاس تزجيه لوقت السفر الطويل، حاول ان يترك فاصلة بينه وبينها بالرغم من ضيق المكان متحاشيا بذلك الحرج.. رجع بنفسه للخلف مقدما قدميه في محاولة للاسترخاء والنوم، للابتعاد عما بدا يراوده من هواجس صاخبة، وخيلاء لجي، ونفس غائرة في متاهات الأماني.
للحظة صاح على نفسه: الم تتوبي بعد، الم تتعلمي من كل هذه الدروس موعظة وتعتبري.؟ لكنه توبيخ هزيل سرعان ما يخبو في أذكاء أي قبس جمالي تتوهج عاطفته المتعطشة لزيت النساء وعطر الأنوثة.
شعر ان فخذ المرأة بدا يلامس فخذه، فتعقل عن الصدام، ولملمّ نفسه، وركن بعيدا عنها بضع سنتيمترات.. لكنها بدت تضايقه أكثر باقترابها منه، وبدأت تلامس قدمه بقدم حافية.. فلم يجد سوى التظاهر باللامبالاة ولم يأبه لها ـــ وكأنه ضرب عصفورين بحجر، لكنها تمادت أكثر عندما بدت تضغط نفسها عليه بقوة، وتحرك مشاعره، وراحت تمسك بيده لتضعها على فخذها الممتلئ.. شعر احمد بنعومة الملمس، واستعاذ بالله من الشياطين التي ما زالت تلحق به، وتطارده في عربات الموت.. واستنكر هذه الأفعال، على الرغم من رغبته بالاختلاء مع امرأة أجنبية، يبسط عليها سطوته، ويفرغ سموم رغبته العارمة في جوفها والمحيط.

وبدت تزحف بأناملها الناعمة الملساء صوب سحاب بنطلونه، راجية ان تطول فحولته الذي بدا يشتد تأججاً، فسرع لها وابعد يدها، وظل ممسكاً بها، متسائلاً: كيف له ان يضّيع ما أذخره لزوجته بنزوة عابرة.؟!

لكنه لم يمكث طويلاً حتى ضعف ووهن وجاب يدها ليضعها عليه، بعد ان جرده للعراء.. فأمسكت به وأخذته بقوة لثماً وتقبيلاً، لم يشعر بلذة مماثلة مثل ما يحس اللحظة، حتى انتهى منتشياً، ففز مذعوراً من احتلامه، بعدما بدت بقع النشوة واضحة.. أمعن النظر بالمرأة التي ما زالت بلباسها المحتشم، والراكب الآخر الذي كان غاطاً في نومه.. وهو يكلمه بهمس: استيقظ قبل أن يفترسك الشيطان بإغوائه المحرج.

حار احمد ماذا يصنع.؟ وماذا لو انتبه إليه أحد الركاب.؟ أو أن المرأة لمحت ذلك.

رجع الى نفسه، الكل نائمون، الظلام بدا يتبدد شيئاً فشيئاً، إلا ظلام النفس، فهو قابع على الفكر، رازح على المخيلة.. دارت آلاف الصور أمام فكره السيئة والجميلة، لم يجد ما وراء العاطفة من إستفاضات روحية، وولع وهيام، سوى الجسد، معاشرة لحظات وتذوي كل تلك الادعاءات الفارغة والمزاعم البراقة، بالعفة والنقاء.

النهاية

٢٠١٦

هذه الرواية مزيج من الخيال الخصب..
مقرون بواقع المكان..
بنيت شخوص صراعها على الخصوصيات
متحاش في ذلك العموميات..
فمن يجد نفسه متهماً في روايتي هذه
فذلك لشعور جنابه بالنقص أو التقصير
فهو الملام الأول والأخير...

حيدر جاسم محمد
hj38723@gmail.com

دار الجواهري
بغداد - شارع المتنبي
ISBN 978-9933-920-83-8
9 789933 920838

تصميم الغلاف: م. جمال الأسطى

حيدر جاسم محمد

مسافر بلا وطن

رواية

دار الجواهري